سوناتا كرياتزر

وقصص أخرى

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: سوناتا كرياتزر وقص أخرى

- **المؤلف: ليو تولستوي**
- **ترجمة: فرج خطاب**
- **نوع العمل: قصص**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- رقم الإيداع : 2019/15150
- **الترقيم الدولي (ISBN):** 978-977-6754- 28 -7
- الغلاف: سردار حجي مغسو
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 0020120886826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

+201065534541 +201208868826 fb.com/Books.Bibliomania/ fb.com/bibliomania.eg/ Insta:books.bibliomania/ ببلومانيا Books fb.com/groups/Bibliomania.Books/ @BibliomaniaEg

سوناتا كرياتزر
وقصص أخرى

قصص

ليو تولستوي

www.bbibliomania.com

2019

الفصل الأول

كانت بداية الربيع، واليوم الثاني من رحلتنا. دخل الركاب الذين كانت مسافاتهم قصيرة وغادروا عربتنا، ولكن ثلاثة آخرين، مثلي، قد قطعوا كل الطريق بالقطار. كانت واحدة منهم سيدة، بسيطة، إلا أنها لم تعد صغيرة، وكانت تدخن، ولها نظرة مزعجة، كما كانت ترتدى معطفاً يليق بالرجال وغطاء رأس، وآخر كان أحد معارفها، كان رجلاً ثرثاراً في حوالي الأربعين من عمره، وقد بدت أشياءه نظيفة وجديدة.

والثالث هو رجل قصير نوعًا ما إلا أنه كان منعزلاً. لم يكن كبيرًا في السن، ولكن شعره المجعد كان قد تحول إلى اللون الرمادي قبل الأوان، وكانت تحركاته مفاجئة، وكانت عيناه المتلألئتان بشكل غير عادي تتحركان بسرعة من شيء إلى الآخر. وكان يرتدي معطفاً قديماً، من الواضح أنه كان من صُنع خيّاط من الطراز الأول، وله ياقة مصنوعة من فرو الحمل الصغير، وأيضاً قبّعة طويلة مصنوعة من فرو الحمل الصغير. عندما فكّ أزرار معطفه، ظهر تحته معطف روسي بلا أكمام وقميص مطرز.

وكانت من خصال هذا الرجل، صوتًا غريبًا ينبعث منه، وهو شيء يشبه صوت تنظيف الحلق، أو صوت ضحكة، ما أن تبدأ حتى تتوقف بشكل حاد. وعلى طول الطريق، كان هذا الرجل يتجنّب بعناية التعرّف على أيّ من زملائه الركاب، أو التواصل معهم. وعندما كان أولئك القريبون منه يتحدثون إليه،

كان يعطيهم إجابات قصيرة ومفاجئة، وفي أوقات أخرى كان يقرأ، أو ينظر من خلال النافذة، أو يدخن، أو يشرب الشاي، ويأكل شيئًا أخرجه من حقيبة قديمة. لقد بدا لي أن عُزلته جعلته حزيناً مكتئباً، ولقد قمتُ بعدة محاولات للتحدث معه، ولكن كلما تلاقت أعيننا، وهو ما حدث في كثير من الأحيان، بينما كان يجلس أمامي تقريبًا، استدار وأخذ كتابه أو نظر من النافذة. نحو المساء الثاني، عندما توقّف قطارنا في محطة كبيرة، أحضر هذا الرجل العصبي لنفسه بعض الماء المغلي وصنع الشاي.

ذهب الرجل صاحب الأشياء الجديدة الأنيقة - وهو محامِ كما اكتشفتُ ذلك لاحقاً – وجارته، السيدة المدخّنة، ذات المعطف الرجالي، ذهبا معاً إلى غرفة الوجبات الخفيفة، لشرب الشاي.

وفي أثناء غيابهما، دخل العديد من الركاب الجدد إلى العربة، وكان من بينهم رجل عجوز طويل القامة، حليق، أجعد، من الواضح أنه تاجر، يرتدي معطفاً مُبطّناً بفراء الظربان، وقبّعة من القماش ذات زاوية مرتفعة كبيرة. وكان هذا التاجر يجلس في المقعد المقابل لمقاعد السيدة والمحامي، وبدأ على الفور محادثة مع شاب كان قد دخل أيضاً فيتلك المحطة، وبالحكم عليه من خلال مظهره، كان كاتباً للتاجر.

وكنتُ أنا جالساً على الجانب الآخر من الممر، وبينما كان القطار لا يزال واقفاً، كنتُ أستطيعُ سماع القليل من حديثهما، بينما لم يكن أحد يمر بيننا.

وبدأ التاجر بالقول إنه ذاهب إلى عزبته والتي كانت على مسافة محطة واحدة فقط، ثم وكالمعتاد تحولت المحادثة إلى الأسعار والتجارة، وتحدثا عن حالة الأعمال في موسكو، ثم تحدثا عن معرض "نزني- نوفغورود"، الذي يُقام سنوياً، وبدأ الكاتب يشرح كيف أن التاجر الثري، الذي كان معروفاً لكل منهما، قد ذهب لقضاء الوقت الممتع في المعرض، ولكن الرجل العجوز قاطعه بإخباره عن العربدة التي كان يقوم بها في الأوقات السابقة في معرض "كونافين". ومن الواضح أنه كان يفتخر بنفسه بالدور الذي لعبه بها، وسرد بكل سرور كيف كان هو وبعض معارفه، مع التاجر الذي كانوا يتحدثون عنه، وأنهم كانوا قد شربوا في وقت من الأوقات في معرض كونافين وقاموا بأداء حيلة مثل هذه الحيلة التي كان عليه أن يقولها بالهمس.

وملأت قهقهات ضحك الكاتب كل أرجاء العربة؛ وضحك الرجل العجوز أيضاً، كاشفاً عن اثنين من الأسنان الصفراء. ولم أكن أتوقع أن أسمع أي شيء مثير للإهتمام، فصعدتُ للتنزه حول رصيف محطة القطار، حتى يبدأ القطار. على باب العربة التقيت المحامي والسيدة اللذين كانا يتحدثان بحيوية أثناء اقترابهما. "لن يكون لديك الوقت"، قال المحامي الإجتماعي، "الجرس الثاني سوف يرن في لحظة". وكان الجرس فعلاً يرن قبل أن أذهب على امتداد القطار. وعندما عدتُ، كان الحوار الحيوي بين السيدة والمحامي يمضي قدماً. وجلس التاجر

العجوز صامتًا في المقعد المواجه لهما، وكان ينظر إليهما بصرامة، وبين الفينة والفينة يتمتم بشيء قاطع من الرفض كما لو كان يمضغ شيئًا ما. "ثم أبلغت زوجها بوضوح، " وكان المحامي يبتسم عندما مررتُ به قائلاً:

"أنها غير قادرة، وأيضاً غير راغبة، في العيش معه منذ... "

وتابع حديثه يقول شيئاً لم استطع أن أسمعه. وجاء العديد من الركاب الآخرون بعدي.

ومرّ الحارس، وهرع الحمّال إلى الداخل، ولبعض من الوقت جعلت الضوضاء أصواتهم غير مسموعة. وعندما أصبح كل شيء هادئًا مرة أخرى، تحولت المحادثة بوضوح من القضية الخاصة الشخصية إلى الإعتبارات العامة. فكان المحامي يقول إن الرأي العام في أوروبا كان مشغولاً بمسألة الطلاق، وأن القضايا من "هذا النوع" كانت تحدث بشكل متزايد في روسيا. وعندما لاحظ أن صوته كان هو الصوت الوحيد المسموع، أوقف حديثه وتحول إلى الرجل المسنّ. "إن هذه الأشياء لم تكن تحدث في الأيام الماضية، هل كانت تحدث؟" تساءل وهو يبتسم بسرور.

وكان الرجل العجوز على وشك الرد، إلا أن القطار تحرك، فخلع قبعته، ورسم على نفسه الصليب للمباركة، وهمس بالصلاة. وابتعد المحامي بعينيه وانتظر بأدب. وبعد أن أنهى صلاته ورسم على نفسه الصليب ثلاث مرات وضع الرجل العجوز قبعته في وضع مستقيم، وسحبها إلى أسفل على جبينه، وغيّر

وضعه، وبدأ في الكلام قائلاً "كانت تحدث في ذلك الحين، سيدي، ولكن في القليل من الأحيان".

"ولكن مع مرور الوقت، يجب ألا تحدث. فلقد حصل الناس على قدر أكبر من التعليم". وتحرك القطار أسرع وأسرع وراح يهتزّ على مفاصل القضبان الحديدية، مما يجعل من الصعب أن تسمع شيئاً، ولكن حيثُ أنني كنتُ مهتماً فقد انتقلتُ أقرب. ومن الواضح أن الرجل العصبي ذو العيون المتلألئة الذي يجلس في مواجهتي، كان مهتماً أيضاً، وراح يستمع دون أن يُغيّر مكانه.

وتساءلت السيدة قائلة:"ما الخطأ في التعليم؟"

ومع ابتسامة لا تكادتكون ملموسة، تابعت حديثها قائلة: "من المؤكد أنه لا يمكن أن يكون من الأفضل الزواج كما اعتادوا في الأيام الخوالي عندما لم تكن العروس والعريس يرون حتى بعضهما البعض قبل الزفاف،" ولم ترد على ما قاله لها المحاور، ولكن ما اعتقدت أنه سوف يقوله، في طريقة العديد من السيدات. قالت :"دون معرفة ما إذا كانوا يحبون، أو ما إذا كانوا يمكن أن يحبون، فقد تزوجوا مجرد أي شخص، وكانوا تعساء طوال حياتهم. وكنتَ أنت تعتقد أن هذا كان أفضل؟"، ومن الواضح أن مخاطبتي أنا والمحامي بشكل رئيسي وعلى الأقل الرجل العجوز الذي كانت تتحدث معه. "لقد حصلوا على قدر كبير جداً من التعليم"، كرر رجل الأعمال مؤكداً، وهو ينظر بازدراء إلى السيدة بدون أن يجيب على سؤالها، "سوف يكون من المثير للإهتمام معرفة كيف تشرح الإرتباط بين التعليم والخلافات الزوجية"، قال المحامي ذلك، بابتسامة لا تكاد تُلاحظ.

كان التاجر على وشك الكلام، لكن السيدة قاطعته قائلة: "لا، لقد انقضت تلك الأوقات." ولكن المحامي أوقفها: "نعم، ولكن اسمحي للسيد للتعبير عن وجهة نظره." فقال الرجل العجوز بشكل قاطع:

"إن الحماقة تأتي من التعليم، إنهم يجعلون الناس الذين لا يحبون بعضهم البعض يتزوجون، ثم يندهشون أنهم يعيشون في تنافر ونزاع، ".. وبينما كانت تستدير وهي ترسل نظراتها إلى المحامي، وإليّ، وحتى إلى الكاتب، الذي نهض وبدأ يتّكيء على ظهر المقعد، وهو يستمع إلى المحادثة مبتسماً، سارعت السيدة إلى القول: "إنها مجرد حيوانات، كما تعلمون، يمكن أن تقترن كما يحب سيدهم، لكن البشر لديهم رغباتهم الخاصة والمودّة"، وقد قالت السيدة ذلك، مع رغبة واضحة في إزعاجالتاجر. فقال الرجل العجوز:

"لا ينبغي أن تتحدثي هكذا، يا سيدتي، فالحيوانات هي ماشية، أما البشر فإن لديهم قانونهم الذي تم صياغته لهم."

ومرة أخرى تسارع السيدة للتعبير عن حجتها، والتي ربما بدت جديدة جداً لها، فقالت:

- نعم، ولكن كيف تعيش المرأة مع رجل عندما لا يكون هناك حب؟"

وعلّق الرجل العجوز على ذلك بنبرة مؤثرة قائلاً:

- لقد اعتادوا ألا يفعلوا ذلك في الماضي، أما الآن فإن كل هذا قد انتشر، فقد أصبحت أقل الأشياء تجعل أحدهم يقول للآخر:" سوف أتركك!"، لقد انتشرت الموضة حتى إلى الفلاحين، فالمرأة تقول للرجل: "تفضّل!، خذ

قمصانك وسراويلك، أما أنا فسوف أذهب مع "فانكا"، لأن شعره مجعّد أكثر من شعرك."

فماذا تستطيع أن تقول؟، إن أول شيء يجب أن يكون مطلوبًا من امرأة هو الخوف!"

نظر الموظف إلى المحامي، ثم انتقل بنظراته إلى السيدة، ومن ثم نظر إلى وجهي، وعلى ما يبدو أنه كان يُخفي ابتسامة ويستعد للسخرية والتهكّم، أو للموافقة على كلمات التاجر، وفقًا للإستقبال الذي التقيا به، وهنا تساءلت السيدة قائلة:

- الخوف من ماذا؟

واستطردتْ تقول بنبرة توحي بالمكر، أو ربما توحي بالشراسة:

- لماذا هذا، لماذا تجعل خوفها هو من زوجها؟ هذا الخوف!، أوه، لقد انتهى وقت ذلك يا سيدي، "

- لا، سيدتي، إن وقت ذلك لا يمكن أن يمرّ وينتهي. فكما كانت، إيفا، قد خُلِقتْ من ضلع رجل، فكذلك سوف تبقى حتى نهاية الزمن، قال الرجل العجوز ذلك، وهو يهز رأسه بقدر كبير من الشدة، وبهذه النظرة المنتصرة التي استنتجها كاتبه آنذاك من أن النصر كان بجانبه، وضحك بصوت عال. وقالت السيدة بقسوة، وهي تستدير تجاهنا:

- أو نعم، هذه هي الطريقة التي تجادلون بها أيها الرجال، لقد منحتم أنفسكم

الحرية ولكنكم تريدون إغلاق البرج على النساء. لا شك أنكم تسمحون لأنفسكم بكل شيء. لا أحد يسمح بشيء، لكن الرجل لا يأتي بنسله إلى المنزل، بينما كانت المرأة – الزوجة – سفينة مثقوبة، يتسرّب منها الماء.

وراح التاجر يتابع حديثه بإصرار، وكانت نبرته مؤثرة للغاية لدرجة أنه من الواضح أنها هزمت مستمعيه، وحتى السيدة شعرت بالإنسحاق، ولكنها لم تستسلم بعد، وقالت:

- نعم، ولكنني أعتقد أنكم سوف تتفقون على أن المرأة إنما هي بشر، ولديها من المشاعر مثل ما للرجل. ماذا عليها أن تفعل إذاً، إذا كانت لا تحب زوجها؟

قال التاجر بشدّة وهو يحرّك حواجبه وشفتيه:

- لا تحبّ!

واسترسل بشدة، بل إنها سوف تحب، ولا خوف!

وأبهج هذا الجدال غير المتوقع، الكاتب بصفة خاصة، فبعث من أصابعه صوتاً يفيد بالموافقة، وبدأت السيدة حديثها مرة أخرى، فقالت:

- أوه، لا، هي لن تفعل!، وعندما لا يكون هناك حب، فإنه لا يمكنك أن تفرضه بالقوة.

وهنا تساءل المحامي قائلاً:

- حسناً، وبافتراض أن الزوجة كانت غير مخلصة، فماذا يحدث عندئذ؟

وقال الرجل العجوز:

- هذا ليس مقبولاً. على المرء أن يعرف ذلك.

ولكن إذا حدث ذلك، فماذا بعد؟ أنتم تعرفون أن هذا يجري. إنه يحدث بين البعض، لكن ليس بيننا، كان الجميع صامتون. وتحرك الكاتب، وأصبح أقرب إلى حد ما، ومن الواضح أنه لم يكن راغباً في أن يكون وراءه في المؤخرة، وبدأ يقول مبتسماً:

- نعم، كان لدينا زميل شاب لديه فضيحة. كانت قضية صعبة التعامل معها. إنها كانت أيضاً حالة امرأة كانت سيئة للغاية. لقد بدأت تلعب دور الشيطان، وزميلنا الشاب كان محترماً ومثقفاً. في البداية كان ذلك مع أحد موظفي المكتب. وحاول الزوج أن يقنعها بلطف. إلا أنها لم تكن لتتوقف، بل لعبت كل أنواع الحيل القذرة. ثم بدأت تسرق أمواله. فضربها، لكنها ازدادت سوءًا.ونفذت المكيدة، إذا جاز لي أن أذكر ذلك، مع يهودي غير معمّد. ماذا كان عليه أن يفعل؟ لقد جعلها تخرج تماماً ويعيش كأعزب، بينما هي تتسكّع، وتسير دون أن تدري إلى أين وجهتها.. قال الرجل العجوز:

- لأنه أحمق.

واسترسل الرجل العجوز.. قائلاً:

- إذا كان قد جذبها بشكل صحيح من البداية، وكمحَ جماحها، ولم يسمح لها بالخروج، لكانت عاشت معه، بلا خوف! إن هذا يُفسح المجال في البداية لتلك التُهم. لا تثق بحصانك في الحقل، أو زوجتك في المنزل.

وفي تلك اللحظة، دخل الحارس لجمع التذاكر للمحطة التالية. وسلّم الرجل العجوز تذكرته له.

- نعم، يجب لجْم الجنس في الأنثى في الوقت المناسب، وإلا انتهى الأمر وضاع كل شيء! نعم، ولكنك أنت بنفسك الآن حالاً كنتَ تتحدث عن الطريقة التي يُسلّي بها الرجال المتزوجون أنفسهم في معرض كونافين.. ولم أتمكن من أن أقول شيئاً في ذلك، إلا أن الرجل العجوز قال:
- إن هذا شيئاً مختلفاً.

ثم غرق في الصمت..

وعندما صفرت الصافرة، نهض التاجر، ومن ثم أخرج حقيبته من تحت المقعد، وزرّرْ معطفه، ورفع قبّعته قليلاً، ثم غادر العربة.

***

الفصل الثاني

بمجرد أن ذهب الرجل العجوز ارتفعت عدة أصوات. وكان "أحد الآباء من الطراز القديم!" قد لاحظ الكاتب. قالت السيدة:

- قصة حياة حية!، (بنّاء المنازل، من دليل القرن السادس عشر، بواسطة الراهب سيلفستر، في العقيدة وإدارة شئون المنازل.) وقال المحامي:
- يالها من وجهات نظر بربرية عن المرأة والزواج!، نعم، كم نحن بعيدون عن الفهم الأوروبي للزواج. وأضافت السيدة مسترسلة:
- الشيء الرئيسي الذي لا يفهمه مثل هؤلاء الناس، هو أن الزواج بدون حب ليس زواجاً؛ ذلك لأن الحب يقدّس الزواج، وأن الزواج الحقيقي هو فقط ذلك الذي يقدّسه الحب. وكان الكاتب يستمع مبتسماً، في محاولة منه لتخزين هذه الكلمات والمعاني في هذه المحادثة الذكية لاستخدامها قدر استطاعته في المستقبل. وفي خضم ملاحظات السيدة، سمعنا، من خلفي، صوتًا مثل صوت الضحك المتقطع أو صوت كمن يشهق بالبكاء، أو ينتحب. وعندما استدرنا لجلاء الأمر، فإذا به جاري، الرجل الوحيد ذو الشعر الرمادي والعيون المتلألئة، الذي كان قد اقترب دون أن يلاحظه أحد خلال محادثتنا، والتي كان من الواضح أنه مهتمًا بها. فقد كان واقفاً وقد أسند ذراعيه على ظهر المقعد، ومن الواضح أنه كان متحمّساً جداً. فقد كان وجهه أحمر وعضلة مُرتَعِشة تختلج في خده. وفي تردّد واضح تساءل:

- ما هو نوع الحب... الحب... هل هو هذا الذي يقدّس الزواج؟.

وعندما لاحظتْ الإثارة والإنفعال بادية على وجه المتحدث، حاولت السيدة أن تجيب عليه بلطف تماماً بقدر ما أمكنها، فقالت:

- الحب الحقيقي... عندما يوجد مثل هذا الحب بين رجل وامرأة، يكون الزواج ممكناً.

وهنا تدخل الرجل المهذب ذو العيون المتلألئة بحياء وبشكل خجول ومع ابتسامة تشي بالإحراج، فقال:

- نعم، ولكن كيف يمكن للمرء أن يفهم معنى " الحب الحقيقي"؟

- الجميع يعرف ما هو الحب.

هكذا أجابته السيدة، ومن الواضح أنها كانت ترغب في إنهاء محادثتها معه.

فقال الرجل مندهشاً:

- ولكنني حقيقة لا أعرف، وعليكِ أن تعرّفي ما تفهمينه...

قالت، ويبدو أنها توقفت عن أن تفكر:

- لماذا؟ إن الأمر بسيط للغاية، الحب؟، الحب هو تفضيل حصري، وبصفة خاصة، لشخص فوق الجميع، فوق أي شخص آخر.

فضحك الرجل ذو الشعر الرمادي وقال:

- الأفضلية إلى متى؟ لمدة شهر، يومين، أو نصف ساعة؟. وبدأ يضحك، ثم أردف قائلاً:

- عفواً، فمن الواضح أننا لا نتحدث عن نفس الشيء.

- أوه، نعم! بالضبط، إنه نفس الشيء الذي قصدته السيدة.

هكذا قاطعه المحامي مُعترضاً، مُبدياً ملاحظاته، وهو يشير إلى السيدة، واسترسل قائلاً:

- إنه في المقام الأول، يجب أن يكون الزواج هو نتيجة التعلُّق - أو الحب، إذا سمحتَ لي - وفقط حيث يوجد الزواج فهو مقدّس، إذا جاز التعبير.

وثانياً، أن الزواج عندما لا يقوم على التعلق الطبيعي - الحب، إذا كنت تفضل الكلمة – يفتقد العنصر الذي يجعله إلتزاماً أخلاقياً، ثم تابع حديثه متوجهاً إلى السيدة، قائلاً:

- هل أفهمك بشكل صحيح؟

فابتسمت السيدة بدورها وأشارت إلى موافقتها على تفسيره من خلال إيماءة من رأسها، فأومأ لها بابتسامة شكر، ونظرة إمتنان، وتابع حديثه قائلاً:

- قد يتبع ذلك...

ولكن الرجل العصبي الذي تتوهج عيناه الآن كما لو كانتا ملتهبتان، والذي كان من الواضح أنه يكبح جماح نفسه بصعوبة، بدأ يتحدث دون أن يترك المحامي ينتهي من حديثه، وقال:

- نعم، إنني أعني بالضبط نفس الشيء، التفضيل لشخص واحد على الجميع، وأنا فقط أسأل: الأفضلية إلى متى؟

فأجابته السيدة ببساطة، وهي تهزّ كتفيها في استهجان:

- إلى متى؟ لوقت طويل؛ طوال الحياة في بعض الأحيان.

فقال ولا زالت عيناه تتوهجان:

- أوه، ولكن هذا لا يحدث إلا في الروايات، ولا يمكن أن يحدث في الحياة الحقيقية، ففي الحياة الحقيقية، قد يستمر هذا التفضيل لشخص واحد بعينه لسنوات (وهو أمر نادر الحدوث)، إلا أنه قد يحدث في أغلب الأحيان لأشهر، أو ربما لأسابيع أو حتى لأيام أو ساعات.

قال ذلك، بينما كان من الواضح أنه يعرف أن الجميع مندهشون من وجهات نظره، فكان مسروراً أن الأمر كان كذلك.

- أو، ماذا تقول؟ لكن لا...

وفي لحظة واحدة، انطلقنا بالحديث مرة واحدة ثلاثتنا، حتى الكاتب، أطلق صوتاً غير واضح بالرفض، وعدم الموافقة.

- لا، إسمح لي...

وصاح الرجل ذو الشعر الرمادي بصوت يعلو أصواتنا:

- نعم، أعرف، إنكم تتحدثون عما يُفترض أن يكون، ولكنني أتحدث عما هو كائن، وما هو موجود، كل رجل يجرّب ما تسمونه الحب لكل امرأة جميلة.

- أوه، إن ما تقوله لهو شيء فظيع! ولكن المشاعر التي تُسمّى بالحب، إنما هي موجودة بالفعل بين الناس، ولكنها لا تُمنح لأشهر أو لسنوات، بل لمدى الحياة!

- لا، إن ذلك لا يحدث! حتى إذا كان علينا أن نفترض جدلاً أن الرجل قد يفضّل امرأة معينة طوال حياته، فإن المرأة حسب كل الإحتمالات، كانت لتفضل شخصًا آخر، وهكذا كانت دائمًا، وما زالت هكذا، في كل العالم.

وأخرج صندوق السجائر الخاص به، وبدأ في التدخين.

وعلّق المحامي على حديثه بقوله:

- ولكن المشاعر قد تكون متبادلة.

- لا يا سيدي، إنها لا يمكن أن تكون كذلك!

وانضم الآخر للحديث:

- تماماً كما لا يمكن أن يكون ذلك في حمولة سيارة من البازلاء، هناك نوعان من البازلاء المُعَلّمَة جنباً إلى جنب، بالإضافة إلى ذلك، وليس لمجرّد هذه الاستحالة، ولكنه الشبع المحتوم. أن تحب شخصًا واحدًا لكامل العمر مثل أن تقول أن شمعة واحدة "سوف تضيء مدى الحياة.

قال ذلك وهو يستنشق الدخان بشراهة. وتساءلت السيدة بسؤال تعجّبي:

- ولكنك تتحدث طوال الوقت عن الحب الجسدي. ألا تُقرّ وتعترف بالحب القائم على تماثل أو تجانس المُثُل العليا، وعلى الإنجذاب والألفة الروحية؟

فكرر هذا المقطع من حديثها، وهو يبعث صوته الغريب:

- الإنجذاب الروحي! وتجانس المُثُل العليا!

- لكن في هذه الحالة، لماذا نذهب معاً إلى الفراش؟ (عفواً عن فظاظتي!)

أم أن الناس يذهبون إلى الفراش معاً بسبب تجانس مُثُلهم؟

قال ذلك، ثم انفجر في موجة عصبية من الضحك.

وقال المحامي:

- لكن اِسمح لي، إن الحقائق مناقضة لحديثك، فنحن نرى أن النكاح موجود، وأن

جميع البشر، أو الجزء الأكبر منه، يعيش في إطار الزواج، وأن الكثير من الناس يعيشون حياة زوجية شريفة طويلة.

ضحك الرجل ذو الشعر الرمادي مرة أخرى.

- أولاً تقول أن الزواج يقوم على الحب، وعندما أعبّر أنا عن شكّي في وجود حب آخر غير شهواني، فإنك تثبت وجود الحب من حقيقة أن الزواج موجود. لكن الزيجات في أيامنا هي مجرد خداع! واعترض المحامي على هذا القول:

- لا، إسمح لي! أنا أقول فقط أن الزيجات وجِدَتْ، وهي موجودة بالفعل.

- إنهم يتزوجون! لكن لماذا؟

لقد وجِدَتْ الزيجات، وهي موجودة بالفعل بين الناس الذين يرون في الزواج شيئاً مقدّساً، أي سرّ مُلزم لهم ويربطهم في عيني الله. فيما بينهم هي زيجات موجودة بالفعل. أما بيننا، فإن الناس يتزوجون مُعتبرين الزواج على أنه لا شيء سوى الجماع، والنتيجة هي إما الخداع أو الإكراه. عندما يكون الأمر خداعاً فمن الأسهل تحمّله. فالزوج والزوجة فقط يكتفيان بخداع الناس من خلال التظاهر بالزواج الأحادي، وهو ما يعني إيمانهم بالزوج الواحد، والزوجة الواحدة، بينما يعيشان بشكل متعدّد الزوجات. إن هذا سيء، ولكنه لا يزال محتملاً. ولكن عندما يحدث، كما يحدث في أغلب الأحيان، يضطلع الزوج والزوجة بالواجب الخارجي المتمثل في العيش معاً طوال حياتهما، ويبدأ في كره أحدهما الآخر، ويكرهان بعضهما بعضاً بعد شهر، ويرغبان في أن ينفصلا، ولكنهما ما زالا يواصلان العيش معاً، وهو ما يؤدي إلى ذلك الجحيم الرهيب، الذي يجعل

الناس يتناولون الشراب أو يطلقون النار على أنفسهم، أو يقتلون أنفسهم أو يسمّمون أنفسهم أو يقتلون بعضهم بعضاً... وتابع حديثه، يتكلم أكثر فأكثر وبسرعة، ولا يسمح لأي شخص أن يتكلم كلمة، ويصبح متحمسًا أكثر فأكثر.

لقد شعرنا جميعًا بالحرج.

وقال المحامي، وقد بدا راغباً في إنهاء هذه المحادثة الساخنة والتي تبعث على القلق:

- نعم، بلا شك يوجد هناك نوبات حرجة في الحياة الزوجية.

فقال الرجل ذو الشعر الرمادي بنعومة، وبهدوء واضح:

- أرى أنك قد اكتشفت من أنا!

- لا، ليس لديّ هذه التجربة السارة.

- إنها ليست تجربة سارة عظيمة، إنني ذلك ال"بوزدنيشيف" الذي وقعت حياته في تلك النوبات الحرجة التي ألمحتَ أنتَ إليها، الحلقة التي قتل فيها زوجته.

قال ذلك، وهو يجول بعينيه في لمحات سريعة لكل واحد منا، ولا أحد منّا يعرف ماذا عليه أن يقول، بل ظللنا جميعاً صامتين، وخرج بنا من دائرة الصمت الثقيل، فقال مسترسلاً بنفس نبرة صوته الغريبة:

- حسناً، لا مانع، على أي حال، أنا آسف، آه!... أنا لن أتطفّل عليك.

- أوه، لا، من فضلك...

قال المحامي ذلك، وقد بدا هو نفسه لا يعرف "من فضلك "ماذا !، ولكن "بوزدنيشيف"، وبدون الإستماع إليه، استدار بسرعة وذهب إلى الخلف عائداً إلى

مقعده، وتهامس المحامي والسيدة معًا، بينما جلستُ أنا بجانب "بوزدنيشيف" في صمت، غير قادر على التفكير في أي شيء عليّ أن أقوله، وكان الظلام دامساً جدًا فلم تكن القراءة ممكنة، لذلك فقد أغلقتُ عيناي متظاهرًا بأنني أريد أن أذهب للنوم، وهكذا سافرنا في صمت إلى المحطة التالية، وفي تلك المحطة انتقل المحامي والسيدة إلى عربة أخرى، حيث كان لديهما بعض الوقت مُسبقاً لاستشارة الحارس بهذا الخصوص، واستلقى الموظف على المقعد وسقط في النوم. أما "بوزدنيشيف" فقد ظلّ يدخّن، ويتناول الشاي الذي كان قد صنعه في المحطة الأخيرة. وعندما فتحتُ عينَيّ ونظرتُ إليه، فإذا به فجأة يخاطبني بعصبية وبصورة غاضبة صائحاً:

- ربما يكون من غير السار بالنسبة لك أن تجلس معي، إذا علمتَ من أنا؟ في هذه الحالة سوف أذهب بعيداً.
- أوه لا، إطلاقاً.
- حسناً إذن، ألا ترغب في تناول بعض الشاي؟ إنه فقط قوي جداً.

وصبّ بعض الشاي من أجلي، ثم علّق ببعض الملاحظات، حيث قال:

- إنهم يتحدثون، وهم يكذبون دائماً...
- عمّا تتحدث؟

- دائماً عن نفس الشيء. إنني أتحدث حول حبهم وما هو عليه! ألا تريد أن تنام؟
- على الاطلاق.
- إذن، ألا تريدني

أن أخبرك كيف أن هذا الحب يؤدى إلى ما حدث لي؟

- نعم، إذا لم يكن ذلك مؤلماً بالنسبة لك.
- كلّا، إنه من المؤلم أن يكون مكبوتاً. إشرب الشاي... أو هل هو قوي جدًا؟

وكان الشاي يشبه الجعة حقاً، لكنني شربتُ كأساً منه. وفي الحال دخل الحارس. وتبعه "بوزدنيشيف" بعيون غاضبة، وبدأ يتحدث فقط بعد رحيله.

***

الفصل الثالث

- حسناً إذن، سوف أخبرك، ولكن هل تريد حقاً سماع ذلك؟

فكررتُ له أنني أتمنّى ذلك كثيراً. وتوقّف قليلاً، وفرك وجهه بيديه، وبدأ حديثه قائلاً:

- إذا كان لي أن أقول ذلك، فيجب أن أقول كل شيء من البداية: يجب أن أقول كيف، ولماذا تزوجتُ، وأيّ نوع من الرجال الذي كنتُ عليه قبل زواجي. حتى زواجي كنتُ أعيش كما كان يفعل الجميع، وهكذا كان الجميع في الطبقة التي أنتمي إليها. إنّني من مالكي الأراضي، وخرّيج إحدىالجامعات، وكنتُ مُديراً للمراسم لطبقة النبلاء. وقبل زواجي كنتُ أعيش كما يفعل كل شخص، أيّ مُنغَمس في الملذات. وبينما كنتُ أعيشهكذا، كنتُ مقتنعاً، مثل أيّ شخص آخر في طبقتنا، بأنّني أعيش كما يجب أن يعيش المرء. ظننتُ أنّني زميل ساحر ورجل أخلاق إلى حدّ بعيد. لم أكن مغويًا، كما لم يكن لديّ ميول أو تصرفات غير طبيعية، ولم أسعَ إلى تحقيق الهدف الرئيسي من حياتي كما فعل العديد من زملائي، ولكنّني مارستُ الإغواء بطريقة هادئة ومحتشمة من أجل الصحة. لقد تجنبتُ النساء اللواتي قد يقيّدْن يدي من خلال إنجاب طفل أو عن طريق الارتباط بي. ومع ذلك، قد يكون هناك أطفال وارتباطات، ولكنّني تصرفتُ كما لو لم يكن ذلك موجوداً. و لم أكن اعتبر ذلك أخلاقياً فقط، بل كنتُ أفخر به أيضًا.

وتوقف مؤقتًا، وأعطى تنفيسًا لصوته الغريب، كما كان واضحًا عندما خطرت في باله فكرة جديدة. ثم صاح بقوة قائلاً:

- وأنت تعرف، هذا هو العمل البغيض الرئيسي!
- إن الفجور لا يكمن في أيّ شيء مادي – ليس أيّ نوع من سوء السلوك الجسدي هو الفجور، فالفجور الحقيقي يكمن على وجه التحديد في تحرير النفس من العلاقات الأخلاقية مع امرأة لك معها علاقة حميمة جسدية. ومثل هذا التحرّر الذي اعتبره ميزة. أتذكر كيف شعرتُ بالقلقذات مرة لأنّني لم تُتَحْ لي الفرصة لأن أدفع بعض المال لامرأة وهبتْ نفسها لي (ربما كانت نزوة بالنسبة لي) وكيف أصبحتُ هادئاً فقط بعد أن أرسلتُ لها بعض المال – مما يوحي أنني لم اعتبر نفسي على أيّ حال مُلتزماً تجاهها أخلاقياً...

وفجأة وجدته يصرخ في وجهي:

- لا تومىء برأسك كما لو أنك توافقني الرأي. ثم واصل حديثه:
- ألا أعرف هذه الأشياء؟ نحن جميعاً، وأنت أيضاً، إلا إذا كنتَ استثناءً نادراً، نحمل هذه الآراء نفسها، تماماً كما اعتدتُ أنا أن أحملها. لا تشغل بالك وأرجو أن تقبل اعتذاري، ولكن الحقيقة هي أنه أمر فظيع، رهيب، رهيب!
- ما هو الشيء الرهيب؟
- تلك الهوّة من الخطأ التي نعيش فيها فيما يتعلق بالنساء وعلاقاتنا بهن. لا، لا أستطيعُ أن أتكلم بهدوء عن ذلك، ليس بسبب تلك" الحلقة "، كما أسماها هو، في حياتي، ولكن لأنه منذُ أن حدثتْ تلك" الحلقة "، تفتّحتْ عيناي، ورأيتُ كل

شيءٍ في ضوء مختلف تماماً. كل شيء كان قد انعكس، كل شيء انعكس!

وتوقف عن الحديث، وأخرج سيجارة، ومال بمرفقيه على ركبتيه، بعد أن أشعل سيجارته، ومن ثمّ بدأ يتحدث، وكان ما حولنا مُظلماً جداً أن أرى وجهه، ولكن، فوق ارتجاج القطار، كنتُ أسمع صوته المثير للإعجاب والممتع.

***

الفصل الرابع

- نعم، فقط بعد كل هذه المعاناة التي عانيتُ منها، فقط بوسائلهم، هل أنا فهمت أين تكمن جذور المسألة – هل أنا فهمتُ ما يجب أن يكون، وبالتالي شاهدتُ كل الرعب في ما هو هذا الأمر. ولهذا سوف ترى كيف ومتى هذا الذي أدّى إلى حدوث "الحلقة" الخاصة بي. لقد بدأتْ تحدث بينما لم أكن قد تجاوزتُ السادسة عشرة. لقد حدثتْ عندما كنتُ لا أزال أذهب إلى المدرسة النحوية وكان أخي الأكبر طالبًا في السنة الأولى في الجامعة. ولم أكن أعرف بعد أيّ امرأة، ولكن، مثل جميع الأطفال غير المحظوظين في صفنا، لم أعد طفلاً بريئًا. حيث كنتُ قد انحرفتُ قبل ذلك بسنتين بسبب الأولاد الآخرين. بالفعل امرأة، وليست امرأة معينة، لكن امرأة مرغوب فيها؛ كشيء ما مطلوب، امرأة، كل امرأة، عري المرأة، عذبتني. عزلتي لم تكن تامة. كنتُ مُعذّباً، كما كان تسعة وتسعين بالمائة من أولادنا مُعذّبون. لقد شعرتُ بالرعب، وعانيتُ، وصليتُ، وسقطتُ. كنتُ بالفعل منحرفاً في الخيال وفي الحقيقة، ولكنّني لم أضع يدي على إنسان آخر. ولكن في يوم من الأيام قام أحد رفاق أخي، وكان طالباً جامحاً، والذي يُطلَق عليه زميل جيد، وهذا هو، أسوأ نوع من الجيد لعمل لا شيء، وهو الذي علّمنا أن نشرب ونلعب الورق، كما أقنعنا بعد احتفال صاخب مخمور أن نذهب إلى هناك. ولقد ذهبنا. وكان أخي أيضاً لا يزال بريئاً، وسقط في تلك الليلة نفسها. وأنا، الصبي في الخامسة عشرة من عمره، دنّستُ نفسي وشاركتُ في تدنيس

امرأة، دون أن أفهم مطلقاً ما كنتُ أفعله. لم أسمع قط من أيّ مِنْ مَنْ يكبرونني سناً أن ما كنتُ أفعله كان خطأ، كما تعلم. وبالفعل لا أحد يسمعها الآن. صحيح أنه جاء في الوصايا، ولكن حينئذ يكون هناك حاجة للوصايا فقط للإجابة على الكاهن في امتحان الكتاب المقدس، وحتى ذلك الحين هي ليست ضرورية للغاية، وليست على نحو وثيق ضرورية بقدر أهمية الوصايا بخصوص استخدام الحرفين "ut" في الجمل الشرطية في اللغة اللاتينية. وهكذا لم أسمع أبداً أولئك الأشخاص الأكبر سناً الذين احترمتُ آراءهم، يقولون إنها كانت شيطانًا. على العكس، لقد سمعتُ أشخاصاً احترمتهم، يقولون أنها جيدة. لقد سمعتُ أن نضالاتي ومعاناتي سوف تخفّ بعد ذلك. لقد سمعتُ هذا وقرأته، وسمعتُ شيوخ بلدي يقولون أنها ستكون جيدة من أجل صحتي، بينما سمعتُ من رفاقي أنه كان بالأحرى شيئًا مُفعمًا بالحيوية، إنه شيءٌ روحيٌّ عليك أن تفعله، لذا وبصفة عامة، لم أتوقع شيئًا جيدًا من وراء ذلك. خطر المرض؟ لكن ذلك كان متوقعاً أيضاً، فقد رأت الحكومة الأبوية ذلك، وهي ترى العمل الصحيح لبيوت الدعارة، وتجعل الفجور مأموناً بالنسبة إلى تلاميذ المدارس، والأطباء أيضاً يتعاملون معه من أجل الأبحاث، وهذا صحيح، فهم يؤكدون أن الفجور هو شيء جيد للصحة، وينظمون الفسق المنسق تنسيقاً جيداً. إنني أعرف بعض الأمهات اللواتي يحضرن لصحة أبنائهن بهذا المعنى. والعِلم يرسلهم إلى بيوت الدعارة.

- لماذا تقول "العلم"؟

- لماذا، من هم الأطباء؟ إنهم كهنة العلم. من يُفسد الشباب بالحفاظ على هذا كشيء ضروري لصحتهم؟ إنهم يفعلون. ومع ذلك، إذا كان جزء من مائة جزء من الجهود المكرّسة لعلاج مرض الزهري قد كُرّس للقضاء على الفجور، فلم يكن هناك منذ وقت طويل أي أثر لمرض الزهري. ولكن كما هي الحال، تُبذل الجهود ليس للقضاء على الفجور بل لكي تشجعه، وتحثّ عليه، وتجعله آمناً، ولكن ليس هذا هو الهدف على أيّ حال، إن الهدف هو هذا الذي معي — ومع تسعة أعشار، إن لم يكن أكثر، وليس من طبقتنا فقط، بل من جميع الطبقات، حتى الفلاحين — إن هذا الشيء الفظيع يُحدث ما حدث لي؛ إنني لم أسقط لأنني استسلمتُ للإغراء الطبيعي لسحر امرأة معينة – لا، فأنا لم أكن مغويًا من قِبل امرأة – ولكنّني سقطتُ بسبب، وطبقاً للمجموعة المحيطة بي، ما كان البعض يعتبره السقوط الحقيقي، وهو أهم وظيفة مشروعة جيدة من أجل صحة الإنسان، والبعض الآخر يراها كشيء طبيعي جداً وليست فقط شيئاً يُمكن اغتفاره، بل وحتى يعتبرونه لهو وتسلية بريئة بالنسبة لشاب، ولم أكن أفهم أن ذلك كان سقوطًا، ولكنه ببساطة انغماسًا في نصف المتعة، نصف الاحتياج، والتي، وكما اقترحَ لي، كانت طبيعية في عمر معين. لقد بدأتُ في الانغماس في الفجور عندما بدأتُ أشرب وأدخّن. لكن في ذلك الوقت المبكر من السقوط كان هناك شيءٌ ما خاصٌ ومثيرٌ للشفقة. إنني أتذكره في الحال، وفي اللحظة التي هممتُ فيها أن أغادر الغرفة، فقد شعرتُ بالحزن، ووجدتّني حزيناً لدرجة أنّني أردتُ أن أبكي – أبكي على فقدان براءتي ولعلاقتى بالمرأة، التي لطخت الآن إلى

الأبد.نعم، كانت علاقتي الطبيعية والبسيطة مع النساء فاسدة إلى الأبد. ومنذ ذلك الوقت لم يكن لديّ، ولا يمكن أن يكون، علاقات نقية مع النساء. لقد أصبحتُ ما يُسمّى فاجراً. وأن تكون فاجراً هي حالة جسدية مثل حالة مُدمن المورفين أو السكّير أو مُدمن التدخين. وكرجل مُدمن المورفين، مُدمن الشرب، أو مُدمن التدخين لم أعُدْ طبيعياً، كذلك أيضاً كنتُ الرجل الذي عرف العديد من النساء لمتعته ليس طبيعياً بل هو رجل منحرف جنسياً إلى الأبد، فاجر. وكمُدمن مورفين ومُدمن شرب فإنه يمكن التعرف عليّ في الحال من وجهي وسلوكي، وذلك هو الحال مع الفاجر.فإن الفاجر قد يحاول أن يكبح نفسه، قد يقاوم، ولكنه لن يحصل أبداً على تلك العلاقات النقية، البسيطة، النظيفة، والأخوية مع امرأة. فمن خلال الطريقة التي ينظر بها إلى امرأة شابة ويتفحصها، يمكن دائماً التعرف على الفاجر. ولقد أصبحتُ، وظللتُ فاجراً، وكان هذا هو الذي قادني إلى الدمار.

***

الفصل الخامس

- آه، نعم! بعد ذلك سارت الأمور من سيء إلى أسوأ، وكانت هناك كل أنواع الانحرافات الأخلاقية. أوه، يا إلهي! وعندما أتذكّر الفواحش التي ارتكبتها في هذا الصدد، فإنني أنكمش على نفسي من الهلع! وهذه هيحقيقتي، فأنا أتذكر أصحابي الذين كانوا يسخرون من براءتي المزعومة، وعندما يسمع المرء عن "الشباب ذوي المظاهر الجذابة"، ضباط، من الباريسيين... وعندما يكون جميع هؤلاء السادة، وأنا – الذين لديهم في ضمائرهم مئات من الجرائم الأكثر تنوعاً وفظاعة ضد النساء – عندما نبلغ الثلاثين عامًا من الفسق والمجون، نظيفون بعناية فائقة، حليقون، متعطرون، ويرتدون الثياب الكتّانية وملابس السهرة أو الأزياء الرسمية، ويدخلون إلى غرفة الرسم أو قاعة الرقص، فإنهم يمثلون رموز النقاء، والجاذبية! فقط فكر في ما يجب أن يكون، وما هو كائن!

عندما يأتي مثل هذا الرجل المهذب في المجتمع إلى أختي أو ابنتي، أنا، وأنا أعلم حياته، يجب أن أذهب إليه، وآخذه جانباً، وأقول له بهدوء، "زميلي العزيز، إنني أعرف الحياة التي تحياها، وكيف ومع من تقضي الليالي. إن هذا ليس مكانك. حيث يوجد هنا فتيات نقيات بريئات. وعليك الذهاب من هنا! وهذا هو ما يجب أن يكون؛ ولكن ما يحدث فعلياً هو أنه عندما يأتي مثل هذا الرجل المهذب، ويرقص، ويحضن ويعانق شقيقتنا أو ابنتنا، فنحن سوف نكون مبتهجون، إذا كان غنياً ولديه اتصالات جيدة. وربما بعد "ريجولبوش"، الراقصة الفرنسية،

سوف يشرّف ابنتي!، حتى لو كانت آثار المرض لا زالت باقية، فلا يهم! فهم أذكياء في علاج ذلك في الوقت الحاضر.

أوه، نعم، إنني أعرف العديد من الفتيات في أفضل مجتمع، حيث يقدمهن آباؤهن بحماس للزواج من الرجال الذين يعانون من مرض معين. أوه، أوه... ياللعمل البغيض!

ولكن سوف يأتي الوقت الذي ينكشف فيه هذا الزيف وتلك البغضاء!

وقام بإحداث ضجيجه الغريب عدة مرات، وشرب الشاي مرة أخرى. وكان الشاي قوياً على نحو مخيف، كما لم يكن هناك ماء لتخفيفه. فشعرتُ بأنني كنتُ متحمساً كثيراً بعد أن تناولت منه كأسين. من المحتمل أن الشاي قد أثر عليه أيضاً، لأنه أصبح أكثر إثارة. فقد أصبح صوته شجياً ومُعبّراًعلى نحو متزايد. ولقد كان يغيّر باستمرار من موضعه، فمرة يخلع قبعته، ويرتديها مرة أخرى، ويتغير وجهه بشكل غريب في شبه الظلمة التي كنا نجلس فيها. وتابع قائلاً:

- حسناً، هكذا عشتُ حتى أصبحتُ في الثلاثين من عمري، ولم أتخلّ للحظة عن نية الزواج وترتيب أفضل وأنقى حياة عائلية لنفسي، ولهذا الغرض، فقد بدأتُ ألاحظ الفتيات المناسبات لهذا الهدف. لقد تمرّغتُ في مستنقع من الفجور، وفي نفس الوقت، كنتُ أبحث عن فتاة نقية بما يكفي لأن تكون مستحقة لي.

ورفضتُ العديدات منهنّ، لمجرد أنهنّ لم تكنّ محترمات بما يكفي لأن يتناسبنَ معي، إلا أنني في النهاية وجدتُ واحدةً منهنّ وكانت هي التي اعتبرتها جديرة

بي. وكانت هي إحدى ابنتين، لأحد الأثرياء من مالكي الأراضي في قرية "بنزا" الروسية، من الأثرياء الذين دُمّروا. وفي إحدى الليالي، وبعد أن خرجنا في قارب، وعدنا مع أول ضوء للقمر، وكنتُ أجلس إلى جانبها مُعجباً بمؤخرتها وقوامها الرشيق في قميص ضيق، وقررتُ فجأة أنها كانت هي! لقد بدا لي في ذلك المساء أنها فهمتْ كل ما شعرتُ به وفكرتُ فيه، وأن ما شعرتُ به وفكرتُ فيه كان شامخاً للغاية. في الواقع، كان الأمر فقط هو أن القميص والضفائر كانوا بصفة خاصة مناسبين لها، وأنه بعد أن قضيتُ يوماً بالقرب منها، أردتُ أن أظل بالقرب منها أكثر. "إنه شيء مدهش، كم هي مكتملة الوهم، فكرة أن الجمال هو الخير. إن امرأة جميلة تتحدث بالحماقات، إذا استمعتَ إليها فإنك لا تستمع إلى حماقات؛ بل ذكاء وحذق، وهي تقول وتفعل أشياءً فظيعة، ولكنك ترى فيها السحر والجمال فقط. وإذا كانت المرأة الجميلة لا تقول أشياء غبية أو فظيعة، فإنك تقنع نفسك في الحال بأنها ذكية ومخلصة بشكل رائع.

عدتُ إلى المنزل في نشوة الطرب، وقررتُ أنها كانت ذروة الكمال الأخلاقي، ولذلك كانت تستحق أن تكون زوجتي، وطلبتُ يدها للزواج في اليوم التالي. ويا له من تشويش! من أصل ألف رجل يتزوجون (ليس فقط من بيننا ولكن لسوء الحظ أيضاً من بين الجماهير) لا يكاد يكون واحد لم يتزوج بالفعل، عشرة أو مئة أو حتى مثل دون جوان، ألف مرة قبل زفافه. إنه صحيح كما سمعتُ ولاحظتُ بنفسي، أن هناك في أيامنا هذه بعض الشباب العفيفة الذين يشعرون ويعرفون أن هذا الشيء ليس مزحة بل مسألة مهمة. ليكن الله في عونهم! ولكن

في أيامنا لم يكن هناك واحد مثل هؤلاء من بين عشرة آلاف. والجميع يعرف هذا ويتظاهر بعدم معرفته. في كل الروايات يصفون بالتفصيل مشاعر الأبطال والبحيرات والشجيرات التي يسيرون بجوارها، ولكن عندما يتم وصف حبهم الكبير لبعض العذارى، لا يقولون شيئاً عن ما حدث لهؤلاء الأبطال المثيرين من قبل: ولا كلمة واحدة عن ارتياد منازل معينة، أو عن الفتيات الخادمات والطهاة وزوجات الآخرين! إذا كانت هناك مثل هذه الروايات غير اللائقة فإنه لا يتم وضعها في أيدي هؤلاء الذين هم في أَمَسّ الحاجة إلى هذه المعلومات – الفتيات غير المتزوجات. نحن في البداية نتظاهر لأولئك الفتيات أن الفجور والخلاعة التي تملأ نصف حياة مدننا، وحتى القرى، لا وجود لها على الإطلاق. ثم اعتدنا على هذا التظاهر بأننا في النهاية، مثل الإنجليز، نحن أنفسنا حقاً نبدأ في تصديق هذا على محمل الجد. وكذلك فعلت زوجتي سيئة الحظ أيضاً. إنني أتذكر، عندما كنا مخطوبين، كيف أريتها يومياتي، والتي من خلالها يمكنها أن تتعلم شيئًا، ولو قليلاً، من ماضيَّ، لا سيما عن علاقاتي الغرامية السابقة، والتي ربما كانت قد سمعتها من الآخرين، والتي من أجلها شعرتُ أنه من الضروري إبلاغها بها. أتذكر رعبها، ويأسها، وارتباكها، عندما علمتْ بها وفهمتها. ورأيتُ أنها حينئذ تريد أن تضجر أو تيأس مني. ولماذا لا تفعل ذلك؟...

ومرة أخرى راح يأتي بنفس هذا الصوت الغريب، وابتلع جرعة أخرى من الشاي ملء فمه، وظل ساكناً لفترة من الوقت.

***

الفصل السادس

- كلا، بعد كل شيء، إنها أفضل، أفضل من ذلك! صاح. إنها تخدمني بشكل صحيح! ولكن هذا ليس هو بيت القصيد - كنتُ أقصد أن أقول إنه فقط هؤلاء الفتيات سيئات الحظ اللاتي خُدِعن. والأمهات يعرفن ذلك، وخاصة الأمهات اللاتي تعلّمن من خلال أزواجهن - فهن يعرفن ذلك جيداً. بينما يتظاهرن بالإيمان بنقاء الرجال، فإنهن يتصرفن بشكل مختلف تمامًا. يعرفن بأي نوع من الطُعم يمكنهن صيد الرجال لأنفسهن ولبناتهن. أنت ترى أننا فقط نحن الرجال الذين لا يعرفون (لأننا لا نريد أن نعرف) ما تعرفه النساء جيداً، أن الحبّ الشاعري الأكثر سمواً، كما نسميه، لا يعتمد على الصفات الأخلاقية بل على القُربْ الجسدي، وعلى تسريحة الشعر، ولون وموديل الفستان، اِسأل خبيرة في الغنج والعبث بالحبّ، والتي تضع لنفسها وعلى عاتقها مهمة أسر الرجل الذي تفضل أن تخاطر: أن تُدان في حضوره بالكذب، بالقسوة، حتى بالفجور والخلاعة، أم أن تمثُل أمامه في ثوب قبيح ومفعم بالسوء، فإنها سوف تفضّل دائماً الخيار الأول، فهي تعلم أننا نكذب باستمرار حول المشاعر العالية ورِقّة الشعور، ولكن في الحقيقة لا نريد سوى جسدها، وبالتالي سوف نغفر أيّ عمل بغيض إلا قُبح فستان عديم الذوق، والذي يكون سيء الموديل. إن المرأة المغناج التي تعبث بالحبّ تعرف ذلك بوعي وإدراك، وكل فتاة بريئة تعرفه بدون وعي ولا إدراك، تماماً كما تفعل الحيوانات. وهذا هو السبب في وجود تلك القمصان البغيضة،

والأرداف المستعارة، والأكتاف العارية، والأذرع، والأثداء العارية تقريباً. إن امرأة، وخاصة إذا كانت قد تخرجت في مدرسة الذكور، تعرف جيداً أن كل الكلام حول المواضيع رفيعة المستوى، هو مجرد كلام، ولكن ما يريده الرجل هو جسدها، وأن كل ما يقدمه في أكثر الأضواء هو خداعًا ولكنه جذّاب، وهي تتصرف وفقًا لذلك، فإذا كنا فقط نضع جانباً حميميتنا بهذا الفُحش، الذي أصبح هوطبيعتنا الثانية، وننظر إلى حياة طبقاتنا العليا، كما هو الحال، بكل وقاحتها، لماذا هو ببساطة بيت دعارة... أنت لا توافق على ذلك؟

ثم أردف وقال مقاطعاً قبل أن أقول شيئاً:

- أنت تقول إن نساء مجتمعنا لديهن اهتمامات أخرى في الحياة أكثر مما لدى البغايا، ولكنني أقول لا، وسوف أثبت ذلك. إذا كان الناس يختلفون في أهداف حياتهم، من خلال المحتوى الداخلي لحياتهم، فإن هذا الإختلاف سوف ينعكس بالضرورة في الظواهر الخارجية وستكون ظواهرهم مختلفة. لكن أنظر إلى أولئك النساء اللاتي يعانين من سوء الحظ والازدراء، وإلى السيدات في أعلى طبقات المجتمع: نفس الأزياء، وموديلاتها هي نفسها، والعطور نفسها، وتعرية الذراعين، والكتفين، والثديين، ونفس التنانير الضيقة على الأرداف البارزة، والشغف نفسه للحجارة الكريمة الصغيرة، وللأشياء الثمينة، اللامعة المتلألئة، والملاهي نفسها، والرقصات، والموسيقى، والغناء. كما تستخدم سالفات الذكر كل الوسائل للإغراء، هكذا تفعل هؤلاء الأخريات.

***

الفصل السابع

- حسناً، إذن لقد اصطادتني هذه القمصان والضفائر والأرداف! لقد كان من السهل جداً عليها أن تصطادني، لأنني نشأتُ في الظروف التي يُدفع فيها الشباب الشهوانيين بالقوة في السرير الساخن مثل الخيار. إنك ترى منشطاتنا الوفيرة جداً في الغذاء، إلى جانب الكسل الجسدي الكامل، ليست سوى إثارة منتظمة للرغبة. وسواء كان هذا يدهشك أم لا، فهو فعلاً كذلك. لماذا؟، حتى الهدوء في الآونة الأخيرة، لم أكن أرى أي شيء من هذا بنفسي، ولكن الآن قد رأيت ذلك. هذا هو السبب في أنه يعذبني أن لا أحد يعرف هذا، ويتحدث الناس مثل هذا الهراء مثلما فعلت تلك السيدة. نعم، في الربيع الماضي، كان بعض الفلاحين يعملون في ضاحيتنا على جسر للسكك الحديدية. الطعام المعتاد للفلاح الشاب هو خبز الأذرة، والبصل، ويبقى على قيد الحياة وهو قوي وصحي، وعمله هو العمل الزراعي الخفيف.

وعندما يذهب إلى العمل في السكك الحديدية، فإن طعامه هو عصيدة الحنطة السوداء و رطل من اللحم في اليوم، إلا أنه يعمل على هذا القدر من اللحم على مدار 16 ساعة وهو ينقل ركام من التراب ما وزنه نصف طن، لذلك فهذا يكفيه تماماً. ولكننا نحن الذين نستهلك في كل يوم رطلين من الطعام، والمربى، والسمك وجميع أنواع الأطعمة الساخنة والمشروبات– إلى أين يذهب كل ذلك؟ إلى الإفراط في الشهوانية، وإذا ذهب كل ذلك إلى هناك، وكان صمام الأمان

مفتوحاً، فإن كل شيء على ما يرام، ولكن حاول أن تغلق صمام الأمان، كما أغلقته أنا مؤقتًا، فإنه في الحال سوف ينشأ حافز، يعبرُ من خلال منظور حياتنا الزائفة، ويعبّر عن نفسه في إفتتان تام، وحتى أحياناً افتتان أفلاطوني. ولقد قعتُ أنا في الحب، كما يفعل الجميع. كان كل شيء هناك في متناول اليد: نشوة الطرب، والحنان، والشِعر. في واقع الأمر، كان حبّي هو النتيجة، من جهة نشاط أمها وصانعي الثياب، ومن جهة أخرى من الوفرة الفائقة في الغذاء الذي استهلكتُه وأنا أعيش حياة خاملة بلا عمل.

إذا كان من جهة ليس هناك نزهات تبعث على الإرتياح، ولا صانعة الملابس، بخصرها وما إلى ذلك، وكانت زوجتي تجلس في المنزل في ثوب النوم المكشوف البشع، وكنتُ من ناحية أخرى في ظروف طبيعية لرجل – يستهلك فقط ما يكفي من الطعام الذي يفي بالغرض للعمل الذي قمتُ به، وكان صمام الأمان مفتوحًا – لقد حدث أن أُغلق في الوقت المناسب الذي لم يكن من المفروض أن أقع في الحب وعليه فلم يكن لأي شيء من كل هذا أن يحدث.

***

الفصل الثامن

- حسناً، والآن أصبح من المحتمل أن كل شيء متجمّع – حالتي، ولبسها اللائق، والنزهات التي تبعث على الارتياح. لقد فشل الأمر عشرين مرة، ولكنه الآن نجح. تماماً مثل الفخ! أنا لا أمزح. فأنت ترى في الوقت الحاضر الزيجات قد رُتِّبَتْ بهذه الطريقة – مثل الفخاخ. ما هي الطريقة الطبيعية ؟

إن الفتاة المعشوقة الناضجة، يجب أن تُعطى بالزواج، ويبدو الأمر بسيطاً جداً إذا لم تكن الفتاة خائفة، ويوجد هناك رجال يرغبون في الزواج. بمثل هذه الكيفية يجب أن تحدث الأمور في سابق العهد، لقد كبُرت الفتاة ونضجت، وقام والديها بترتيب الزواج، هكذا كان يتم الأمر، وهكذا تم إنجازه بين جميع البشر – الصينيون، الهندوس، المسلمون، وبين طبقاتنا العاملة، وهكذا يتم إنجاز هذا الأمر بين على الأقل تسعة وتسعين بالمائة من الجنس البشري، فقط بين واحد بالمائة أو أقل، بيننا نحن الفاسقين، فقد تم اكتشاف أن هذا ليس صحيحًا، وقد تم اختراع شيء جديد، وما هي هذه البدعة؟ فهي أن تجلس البنات العذارى ومن حولها يسير الرجال، كما هو الحال في البازار، يختارون، بينما تنتظر الفتيات تفكرن، ولكنهن لا يجرؤن أن يقلن:

"أنا، من فضلك!"، "لا أنا!"، "ليست هي، بل أنا!"، "انظر، يا لها من أكتاف وأشياء أخرى لديّ!"،

ونحن الرجال نتجول حولهن ونشاهدهن، ونحن سعداء للغاية.

"نعم، أعلم!، أنا لا أرغب في أن يتم اصطيادي!"، ويتجولون وينظرون ويسعدون جداً أن كل شيء مرتب بمثل هذه الطريقة من أجلهم، ثم في لحظة لا يكون فيها حراسة – قرار مفاجيء! لقد تم اصطياده!

وهنا سألته مستوضحاً، مندهشاً:

- إذن كيف ينبغي القيام بذلك؟، هل يجب على الفتاة أن تطلب يده للزواج؟
- أوه، أنا لا أعرف كيف، ولكن إذا كانت هناك مساواة، دعها تكون ذات جودة.

فإذا اكتشفوا أن المباريات التي تم ترتيبها مسبقاً مُهينة، لماذا يكون هذا أسوأ ألف مرة! حينئذ تكون الحقوق والفرص متساوية، ولكن هنا تكون المرأة بمثابة العبد في البازار، أو مثل الطُعم في الفخ. أخبر أيّ أم، أو حتى الفتاة نفسها، الحقيقة، إنها معنية ومشغولة فقط، بأن تصطاد الزوج... أوه يا عزيزي! يا لها من إهانة! ما هو الشيء الذي يمكنهم أن يفعلوه، ولا يفعلون شيئاً غيره، ما هذه الفظاعة أن نرى في بعض الأحيان فتيات يافعات مساكين بريئات تماماً، يتورطن في ذلك، ومرة أخرى، إذا كان ذلك يتم ولكن بشكل مفتوح، إلا أن ذلك يتم دائماً بشكل خادع. آه، أصل الجنس البشري، كم هذا مثير للاهتمام!، أوه، إن "ليلي" لديها مثل هذا الاهتمام بالرسم! فهل سوف تذهب إلى المعرض؟ كم هي فكرة تثقيفية!" وعروض الترويكا الروسية، بالمركبة التي تجرها ثلاثة جياد حيث يجرونها طبقاً لنظام محدد جنباً إلى جنب، وأيضاً العروض، والسيمفونيات!، أوه! كم هو رائع!، إن حبيبتي ليلي مجنونة بالموسيقى. ولماذا لا تشارك هذه القناعات؟ النزهات... لكن فكرتهم الوحيدة هي: خذني، خذني! خذ ليلي!، أو حاول –

على الأقل! أوه، يا له من عمل بغيض، يا له من زيف!

وختم، منتهياً من تناول الشاي، وبدء في إعادة الأدوات الخاصة بالشاي بعيداً في أماكنها في حقيبته.

***

الفصل التاسع

بينما كان يحزم الشاي والسكر في حقيبته، بادرني قائلاً:

- هل تعلم، إن هيمنة النساء التي يعاني منها العالم، كلها تنشأ من هذا.
- ماذا تعني بقولك هيمنة النساء؟ إن الحقوق، والامتيازات القانونية، كلها في صالح الرجل..وقاطعني قبل أن أكمل حديثي:
- نعم، نعم! هذا هو الأمر، هذا هو تماماً ما أريد أن أقوله. وهو ما يفسر الظاهرة غير العادية التي من ناحية، قامت المرأة بتقليصها إلى أدنى مرحلة من الإذلال، بينما هي من الناحية الأخرى تهيمن. تماماً مثل اليهود؛ هم يدفعون لنا مقابل اضطهادهم، بهيمنتهم المالية، وهكذا هو الحال مع النساء؛ "آه، أنتم تريدون منا أن نكون تجاراً فقط – حسناً، باعتبارنا تجاراً، سوف نسيطر عليكم!" هذا هو ما يقوله اليهود. وهو تماماً ما تقول النساء: "آه، أنتم تريدوننا أن نكون مجرد كائنات شهوانية – حسناً، كأشياء شهوانية سوف نستعبدكم".

إن إفتقار المرأة للحقوق، لا ينبع من حقيقة أنها لا يجب أن تدلي بصوتها، أو أن تكون قاضية – لأن انشغالها بمثل هذه الأمور ليس مزية، بل أن هذا الافتقار ينبع من حقيقة أنها ليست متساوية مع الرجل في العلاقات الجنسية، وليس لها الحق في استخدام رجل أو الامتناع عنه والزُهد فيه كما يحلو لها – كما أنها غير مسموح لها باختيار رجلاً لمتعتها الشخصية، بدلاً من أن يختارها هو بنفسه. ربما تقول أنت أن هذه هي وحشية. ممتاز! إذن يجب ألا يملك الرجل هذه الحقوق

أيضاً. أما كما هو الحال في الوقت الحاضر، فإنه يتم حرمان المرأة من هذا الحق في حين أن الرجل يتمتع به. ولتعويضها عن هذا الحق، فإنها تعمل على شهوانية الرجل، ومن خلال شهوته تقمعه وتكبح جماحه، بحيث يختار الأمر بشكل رسمي، بينما في الواقع، إنها هي التي تختار. وبمجرد حصولها على هذه الوسائل، فإنها تسيء استخدامهم، وتكتسب سلطة رهيبة على الناس.

- ولكن أين هي هذه القوة الخاصة؟
- أين هي؟ لماذا في كل مكان، في كل شيء! إذهب إلى المحلات التجارية في أي مدينة كبيرة. هناك سلع تساوي الملايين، ولا يمكنك تقدير حجم العمالة البشرية التي أنفقتْ عليهم، وابحث عما إذا كان هناك في تسعة أعشار هذه المحلات يوجد أي شيء لاستخدام الرجال. إن جميع الكماليات للحياة مطلوبة ويتم المحافظة عليها من قِبَل النساء. أحصوا جميع المصانع. سوف تجدوا أن نسبة مئوية كبيرة منهم تنتج زخارف عديمة الفائدة، عربات، أثاث، وحلي، كلها من أجل النساء. ملايين من الأشخاص، أجيال من العبيد، يهلكون في الأشغال الشاقة في المصانع لمجرد إشباع نزوة المرأة. إن النساء، مثل المِلكات، يُبقين تسعة أعشار البشرية في عبودية العمل الثقيل، وكل ذلك، بسبب أنهن قد تم إقصائهن، وحرمانهن من حقوق متساوية مع الرجال، وهن ينتقمن لأنفسهن من خلال العمل على شهواتنا، ويصطدننا في شباكهن، نعم، إن كل شيء يأتي من وراء ذلك. لقد جعلت النساء من أنفسهن أداة كهذه للتأثير على شهواتنا وذلك لأن الرجل لا يستطيع أن ينسجم بطمأنينة مع امرأة.

وحالما يقترب رجل من امرأة، فإنه يخضع ويستسلم لتأثيراتها المذهلة، ويصبح ثملاً ومجنوناً. لقد اعتدتُ في السابق على الشعور بالانزعاج وعدم الارتياح، عندما كنتُ أرى سيدة ترتدي زيّها من أجل حفلة راقصة، أو نزهة، ولكنني الآن ببساطة خائف، وبصراحة، وبدون لفّ ودوران، فأنا أراها كشيء خطير وغير شرعي. أريد أن أتصل بشرطي وأن أطلب الحماية من الخطر، وأن أطلب إزالة هذا الشيء الخطير ووضعه بعيداً عني..

ووجدتني أبتسم لحديثه، إلا أنه لاحظ ابتسامتي، فصاح في وجهي:

- آه، أنت تضحك! ولكنها ليست مُزحة على الإطلاق. بل إنني متأكد من أن الوقت سوف يأتي، وربما في وقت قريب جداً، عندما يفهم الناس ذلك، وسوف يتساءلون كيف يمكن لمجتمع أن يوجد يُسمح فيه لأعمال بها ما يُزعج راحة البال المجتمعية والهدوء، مثل تلك الزخارف في الجسم والتي تثير الشهوانية مباشرة، والتي نتحملها من أجل النساء في مجتمعنا، لماذا، إنه مثل إعداد كل أنواع الفخاخ على طول الطرق والمنتزهات - بل هو أسوأ من ذلك!

لماذا نُحرّم القمار، بينما النساء في أزيائهن التي تثير الشهوة الجنسية ليست مُحرّمة؟، إنها أخطر ألف مرة!.

***

الفصل العاشر

- حسناً، كما ترى، لقد تم اصطيادي على هذا النحو. وكنتُ ما يُسمّونه يعيش الحب. لم أكن أتخيّلها أن تكون هي فقط قمّة الكمال، ولكن خلال فترة خطوبتي، كنتُ اعتبر نفسي أيضاً بمثابة قمة الكمال. أنت تعلم أنه ليس هناك الوغد الذي لا يستطيع، إذا حاول، أن يجد الأوغاد في بعض الجوانب أسوأ منه هو نفسه، والذي، بالتالي، لا يستطيع أن يجد أسباباً للفخر والرضى الذاتي، وهكذا كان الأمر معي:

فلم أكن أتزوج من أجل المال – والطمع لم يكن له علاقة بذلك – على عكس غالبية معارفي الذين تزوجوا من أجل المال أو الإتصالات - كنتُ غنياً، وكانت هي فقيرة، وكان ذلك هو أول شيء، والشيء الآخر هو أنني أزهو وأفتخر بنفسي في حين أن آخرين تزوجوا من أجل الإستمرار في المستقبل على نفس الحياة متعدّدة الزوجات التي عاشوا بها قبل الزواج، كنتُ قد عقدتُ العزم على أن أكون أحادي الزوجة بعد الزواج، ولم يكن هناك حد لافتخاري بهذه الدرجة، نعم، كنتُ خنزيرًا مُرعبًا وتخيّلتُ نفسي أن أكون ملاكًا. ولم تدُم فترة خطوبتنا طويلاً. ولا أستطيعُ الآن التفكير في ذلك الوقت بدون خجل!

يا للوقاحة! يُفترض أن يكون الحب روحياً، وليس حسيّاً.

حسنًا، إذا كان الحب روحانيًا، مشاركة روحية، إذن يجب على تلك المشاركة الروحية أن تجد التعبير في الكلمات، في الأحاديث، في الخطاب.

لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. لقد كان من الصعب جداً أن نتحدث عندما أصبحنا وحدنا. لقد كان من عمل "سيزيف" في حواره مع "سقراط"، وكان سيزيف يعتقد أن الحوارات تسمح للمرء بأن يجد أفضل مسار للعمل، أما سقراط فكان مُحيّراً بسبب حواراته.

بمجرد أن فكرنا في شيء ما نقوله وقلناه، كان علينا أن نكون صامتين مرة أخرى، ونبتكر شيئًا آخر. لم يكن هناك ما يمكن الحديث عنه. كل ما يمكن قوله عن الحياة التي كانت تنتظرنا وترتيباتنا وخططنا قد قيل، وماذا كان هناك أكثر من ذلك؟ والآن لو كنا حيوانات كنا يجب أن نعرف أن الكلام لم يكن ضرورياً. ولكن على العكس من ذلك، فقد كان من الضروري أن نتحدث، إلا أنه لم يكن هناك شيئاً نقوله، لأننا لم نكن مشغولين بما يوجد لنا منافذ في الحوار.

وعلاوة على ذلك، كانت هناك تلك السخافات المألوفة من تقديم الحلويات، والالتهام الفظ للحلويات، وجميع تلك التحضيرات البغيضة لحفل الزفاف: من ملاحظات حول المنزل، وغرفة النوم، والأسرّة، والأغطية، وفساتين الفرح، والملابس الداخلية، والأزياء. ويجب أن تتذكر أنه إذا تزوج أحدهم وفقاً لأوامر أو وصايا "دوموستوري"، وهي مجموعة من القواعد المنزلية والتعليمات والمشورة الروسية في القرن السادس عشر، كما يقول ذلك الزميل القديم، فإن السرير من الريش، و جهاز العروس، و هيكل السرير، كلها مجرد تفاصيل مناسبة للسرّ المُقدّس. ولكن فيما بيننا، عندما يكون هناك عشرة أشخاص يتزوجون، فإن هناك بالتأكيد تسعة منهم ليس فقط لا يؤمنون بالسرّ المُقدّس،

ولكنهم لا يعتقدون حتى أن ما يفعلونه ينطوي على التزامات مُعيّنة - حيث بالكاد يوجد رجل واحد من المائة لم يتزوج من قبل، ومن خمسين رجل، بالكاد واحد لا يستعد مقدماً ليكون غير مخلص لزوجته في كل فرصة مناسبة - عندما تعتبر الأغلبية أن الذهاب إلى الكنيسة مجرد شرط خاص للحصول على ملكية امرأة معينة – فكر ملياً في الدلالة الرهيبة التي تكتسبها كل هذه التفاصيل. إنها تُظهر أن العمل كله هو مجرد أنها تُظهر أنه نوع من المزاد.

وفيه تُباع فتاة بريئة إلى فاسق، ويصاحب المزاد بعض الشكليات.

***

الفصل الحادي عشر

- هذه هي الطريقة التي يتزوج بها الجميع، وهذه هي الطريقة التي تزوجتُ أنا أيضاً بها، وبدأ شهر العسل الذي يتبجح به الكثيرون. وأما لماذا، فإن اسمها تافه وجدير بالإزدراء..

وكان يهمس بهذه الجملة الأخيرة بشراسة..

- في باريس، ذهبت ذات يوم لمشاهدة المعالم، وعندما لاحظت امرأة ملتحية وكلب الماء على لوحة تسجيل، دخلت العرض. وتبين أنه ليس سوى رجل يرتدي فستانًا منخفض العنق، وكلب، انتهى به الأمر في جلد حصان البحر، ويسبح في الحمّام، وكان الأمر بعيدًا جدًا عن أن يكون مُمتعاً، أو مثيرًا للإهتمام، ولكن أثناء مغادرتي، رآني الرجل المسؤول عن العرض بكياسة وخاطب الجمهور عند المدخل، وهو يشير ناحيتي قائلاً: "اسألوا هذا الرجل المهذّب إذا كان العرض لا يستحق المشاهدة! تعال، تعال، فرنكًا واحدًا! لكل واحد،" وشعرتُ بالخجل من القول بأن الأمر لا يستحق المشاهدة، والرجل المسؤول عن العرض ربما كان يعتمد على ذلك، ويجب أن يكون الأمر هو نفسه مع أولئك الذين عانوا من كراهية شهر العسل والذين لا يخيبون آمال الآخرين، ولم أقم أنا بالتسبب في خيبة أمل أي شخص، ولكنني لا أفهم الآن لماذا لا يجب أن أقول الحقيقة، في الواقع، أعتقد أنه من الضروري قول الحقيقة عنها. فقد يشعر المرء بالقلق، بالخجل، بالرفض، بالأسف، وفوق كل ذلك الضجر، إنه ضجر لا يُطاق! إنه إلى حد ما

نفس الشعور الذي شعرتُ به عندما تعلّمتُ التدخين، عندما شعرتُ بالتقزّز وتجمّع اللعاب في فمي وابتلعته وتظاهرتُ بأنه كان مُمتعاً للغاية، فالسعادة من التدخين، تماماً كما هي من ذلك العرض، إذا جاء الأمر على الإطلاق، فإنه يأتي بعد ذلك. ويجب على الزوج أن يزرع تلك الرذيلة في زوجته من أجل أن يستمدّ منها المتعة. وشعرتُ بمرارة في حديثه، فسألته:

- لماذا هي رزيلة؟، أنت تتحدث عن أكثر الوظائف البشرية طبيعية.

- طبيعي؟، طبيعي؟ لا، قد أقول لك أنني قد توصّلتُ إلى استنتاج مفاده أنه، على العكس، غير طبيعي. نعم، غير طبيعي بالمرة. كطفل، كفتاة غير منحرفة. "أنت تقول طبيعي، !" إنه من الطبيعي أن تأكل. ولكي تأكل، معناهامنذ البداية شيء مُمتع، سهل، مُبهج، وليس مُشين؛ ولكن هذا فظيع ومُخجل ومؤلم. لا، إنه غير طبيعي! وفتاة غير ملوثة، كما أقنعتُ نفسي، دائماً تكرهها..

- ولكن كيف سيستمر الجنس البشري؟

فأجابني بانفعال وتهكّم، كما لو أنه كان يتوقع هذا الاعتراض المألوف وغير المخلص:

- نعم، ألا يَفنى الجنس البشري؟ عَلّمْ الامتناع عن الإنجاب إلى أن يلتهم الأمراء الإنجليز أنفسهم دائمًا – وهكذا يكون كل شيء على ما يُرام. إنصح بها من أجل المزيد من المتعة – هكذا يكون كل شيء على ما يرام؛ ولكن فقط أُلَمّحْ بها حين الامتناع عن الإنجاب باسم الأخلاق – ويا إلهي، يا لها من فوضى...! أليس

هناك خطر من أن البشر قد يموتون لأنهم يريدون أن يتوقفوا عن أن يكونوا أوغاد؟ لكن اغفر لي! هذا المصباح مزعج، هل يمكنني أن أغطيه بالكمّة؟

قال ذلك مشيراً إلى المصباح..

قلتُ له أنني لا أمانع، وبالسرعة التي يفعل بها كل شيء، نهض على المقعد وسحب كمّة المصباح الصوفية فوق المصباح.. فقلتُ له:

- كل الأمور تبدو نفس الشيء، فإذا كان الجميع يعتقدون أن هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله، فإن الجنس البشري سوف يتوقف عن الوجود.

ولم يردّ على الفور. وعاد مرة أخرى، وإتخذ مكانه على المقعد المواجه لي، ومدّد قدميه، ثم إتّكأ بمرفقيه على ركبتيه، وبعد القليل من التفكير، بادر بسؤالي:

- أنت تسألني، كيف سيستمر الجنس البشري في الوجود. ولماذا يجب أن يستمر؟ لماذا؟ لأنه إن لم يستمر فلن نكون موجودين. ولماذا يجب أن نوجد؟ لماذا؟ من أجل أن نعيش، بالطبع. ولكن لماذا نعيش؟ لأنه إذا لم يكن للحياة هدف، وإذا كانت الحياة قد أعطيتْ لنا من أجل الحياة، فلا يوجد سبب للعيش. وإذا كان الأمر كذلك، فإن أتباع الفيلسوف الألماني"شوبنهاور"، الذي كان يرى أن العالم الهائل هو نتاج إرادة ميتافيزيائية عمياء ونهائية، والفيلسوف الألماني "هارتمان"، الذي يبحث في اللاوعي، ويرى أن الإرادة وليس العقل هو الجانب الأساسي في اللاوعي، وجميع البوذيين كذلك، هم على حق تماماً. ولكن إذا كان للحياة هدف، فمن الواضح أنه يجب أن تنتهي عندما يتم تحقيق هذا الهدف.

وهكذا يتضح الأمر..

قال ذلك مع شيء من الإثارة الملحوظة، ومن الواضح أنه يُقدّر أفكاره بصورة عالية جداً.. ويسترسل قائلاً:

- وهكذا يتضح الأمر، فقط فكّر: إذا كان هدف الإنسانية هو الخير، البر، المحبة – سَمِّها ما شئت – أي إذا كانت كما قاله الأنبياء، أن البشرية كلها يجب أن تكون متحدة في الحب، وأن أوراق العشب الجديدة يجب أن تُضرب بمنجل التشذيب وما إلى ذلك، ما الذي يمكنه أن يعوق تحقيق هذا الهدف؟ أنا أقول لك، الشهوة تعوقها. من بين كل المشاعر، الأقوى، والأقسى، والأكثر جموحاً، هو الشغف الجنسي، والحب الجسدي. ولذلك فإنه إذا ما تم تدمير الشهوات، بما في ذلك الأقوى من بينها – الحب الجسدي – فإن النبوءات سوف تتحقق، وسوف تتحد البشرية ، وسيتم تحقيق الهدف من وجود البشرية، ولن يكون هناك شيء آخر للعيش من أجله. وطالما أن البشرية موجودة، فإن الأهداف والمثل العليا قد وجدت قبلها، وبالطبع ليست أهداف الأرانب والخنازير في مجرد التكاثر في أسرع وقت ممكن، ولا القرود أو الباريسيين – للتمتّع بالشغف الجنسي بالطريقة الأكثر تهذيباً، ولكن مثالية الخير التي تحققت من خلال كبح الشهوة والنقاء، نحو هؤلاء الناس الذين دائماً يناضلون، ومازالوا يجاهدون. وأنت تعرف ما يتبع ذلك. إن ما يترتب على ذلك هو أن الحب الجسدي هو صمام أمان. وإذا لم يحقق الجيل الحالي هدفه، فإنه لم يحققه بسبب شهوته، والذي يكون شغفه الجنسي هو الشغف الأقوى.

أما إذا استمر الشغف الجنسي، فسوف يكون هناك جيل جديد وبالتالي إمكانية

تحقيق الهدف في الجيل القادم. وإذا لم يحققها الجيل التالي، فإن الجيل القادم بعد ذلك قد يحققها، وهكذا، حتى يتحقق الهدف، وتتحقق النبوءات، ويحقق الإنسان الوحدة. أما إذا لم يحدث ذلك، فماذا ستكون النتيجة؟، إذا اعترف المرء أن الله قد خلق الرجال من أجل تحقيق هدفاً معيناً، وخلقهم بشرًا يموتون، ولكن بدون جنس، أو خلقهم خالدين، فماذا يمكن أن تكون النتيجة؟ لماذا، لو كانوا بشراً فانين، ولكن بدون الشغف الجنسي، وماتوا بدون أن يحققوا الهدف، كان على الله أن يخلق شعبًا جديدًا لتحقيق هدفه. وإذا كانوا خالدين، فلتدعنا نمنح ذلك (على الرغم من أنه سيكون من الأصعب على نفس الأشخاص تصحيح أخطائهم والاقتراب من الكمال منها بالنسبة لهؤلاء من الجيل الآخر)، فقد يحققون هذا الهدف بعد عدة آلاف من السنين، ولكن حينئذ، ماذا سوف تكون الفائدة منهم بعد ذلك؟ ما الذي يمكن عمله معهم؟ إنه هو من الأفضل أن تكون كما هي..... ولكن ربما لا تعجبك هذه الطريقة في صياغتها؟ ربما تكون تطوري، تؤمن بمذهب النشوء؟ إنها تؤدي إلى نفس الشيء.

إن أعلى سلالة من الحيوانات، الجنس البشري، من أجل الحفاظ على نفسها في النضال مع الحيوانات الأخرى، يجب عليها أن تتحد في وحدة واحدة مثل سرب من النحل، وليس عليها أن تتكاثر باستمرار، يجب أن تُعد أعضاءً عديمي الشهوة الجنسية، مثلما يفعل النحل. ومرة أخرى، يجب عليها أن تسعى جاهدة نحو كبح الشهوة، وليس من أجل تأجيج الرغبة - والتي يتم الآن توجيه نظام حياتنا بالكامل إليها.

وتوقف لبعض الوقت.. ثم تابع حديثه قائلاً:

- ولكن هل سوف يتوقف الجنس البشري؟

وهل يمكن لأي شخص أن يشك في ذلك، مهما كانت نظرته للحياة؟ لماذا، إنه شيء مؤكد قدر تأكيد الموت. حسب كل تعاليم الكنيسة، فإن نهاية العالم سوف تأتي، وبحسب كل تعاليم العلم، فإن النتيجة نفسها لا مفر منها.

***

الفصل الثاني عشر

- إن الأمر في عالمنا هو عكس ذلك تماماً: حتى إذا كان الرجل يفكر في كبح شهوته عندما يكون أعزباً، فبمجرد أن يتزوج، من المؤكد أنه يعتقد أن كبح شهواته لم يعد ضرورياً.

أنت ترى الآن جولات الزفاف تلك- الخُلوة التي فيها، والتي تتم بموافقة الوالدين، حيث تجد الفتاة والشاب يذهبان، وقد تم الترخيص لهما بالفجور، لكن القانون الأخلاقي ينتقم لنفسه عندما يتم انتهاكه.

كان الأمر صعباً كلما حاولتُ أن أحقق نجاحًا في شهر العسل، ولم يحدث شيء من ذلك. وبدأت أشعر بتجربة فظيعة، مخجلة، ومُملّة، طوال الوقت. وبسرعة بدأتُ أيضاً أعاني شعوراً جائراً، ومؤلماً. وقد حدث ذلك بمنتهى السرعة. وأعتقد أنه كان اليوم الثالث أو الرابع عندما وجدتُ زوجتي مُكتئبة، فبدأتُ أسألها عن سبب هذا الإكتئاب وأحضنها وأعانقها، وهذا هو كل ما كانت ترغب فيه، من وجهة نظري، ولكنها انسلّت من بين ذراعيّ، وانخرطت في البكاء. وماذا كان السبب؟ لم تستطع أن تخبرني، ولكنها شعرتْ أنها حزينة وبائسة. من المحتمل أن أعصابَها المُنهَكة أوحت لها بحقيقة اللؤم فيما يتعلق بنوع علاقتنا، ولكنها لم تكن تعرف كيفية التعبير عنها. وبدأتُ أستجوبها، فقالت شيئاً عن شعورها بالحزن لعدم وجود والدتها. وبدا لي أن هذا كان شيئاً زائفاً، وبدأتُ

أواسيها، ولكن بدون أن ألمّح بالإشارة إلى أمها. ولم أفهم أنها كانت مكتئبة ببساطة وأن أمها كانت مجرد ذريعة. ولكنها على الفور شعرت بالإستياء والغضب لأنني لم أذكر والدتها، كما لو أنها اعتقدت أنني لم أصدقها. فأخبرتني أنها تعتقد أنني لا أحبها. لقد وبّختها بكونها متقلبة وغريبة الأطوار، وفجأة تغير لون وجهها وتعبيراته بالكامل، وبدلاً من الحزن، أعرب عن غضبها وحنقها، وبأقسى كلمات الحقد والضغينة راحت تتهمني بالأنانية والقسوة، . فنظرتُ إليها مُحدّقاً. وقد أظهر كل ما في وجهها فتور كامل وعداء، كراهية على ما أعتقد. وأتذكر كم كان الرعب الذي أصابني عندما رأيتُ هذا.

كيف هذا؟، ماهذا؟، رحتُ أفكر. إن الحب هو اتحاد الأرواح - وبدلاً من ذلك أجد هناك كل هذه الكراهية!، مستحيل، هذه ليست زوجتي! حاولت أن ألطّف منها حتى تلين، لكنني صادمتُ جداراً لا يُقهر من العداء قاسي القلب الخبيث، وكان ذلك قبل أن أحصل على بعض الوقت لأنقلب أنا أيضاً، فقد استولى عليّ الغضب وقلنا لبعضنا البعض أشياءً كثيرة غير سارة. وكان الانطباع عن هذا الشجار الأول مروعًا. أنا أسميها مشاجرة، لكنها لم تكن مشاجرة، بل مجرد الكشف عن الهاوية التي وُجِدَتْ فعلاً بيننا.

لقد تم استنزاف العشق والغرام عن طريق إرضاء شهواتنا، وجعلنا أنفسنا في مواجهة بعضنا البعض في علاقتنا الحقيقية: والتي يمكن توصيفها في علاقة بين إثنين من الأنانيين المغرورين جداً والغرباء عن بعضهما البعض، حيث يرغب كلاهما في الحصول على أكبر قدر ممكن من المتعة من الآخر. إنني اعتبر ما حدث

بيننا مشاجرة، فقط نتيجة لوقف الشهوة - لكشف علاقاتنا الحقيقية مع بعضنا البعض. لم أكن أفهم أن هذه العلاقة الباردة والعدائية كانت هي حالتنا الطبيعية، لم أفهمها لأنه في البداية سرعان ما اختفى هذا الموقف العدائي عنّا بتجديد شهوتنا المعهودة، أي عن طريق ممارسة الجنس. لقد ظننتُ أننا كنا نتشاجر، ثم كررناها مرة أخرى، لكننا لن نعود إليها أو نكررها، ولكن خلال نفس هذا الشهر الأول من شهر العسل، سرعان ما عادت فترة الشبع الجنسي، فتوقفنا مرة أخرى عن احتياج أحدنا للآخر، ووقع شجار آخر. هذا الشجار الثاني كان قد صدمني بشكل مؤلم حتى أكثر مما آلمني الشجار الأول. لذا لم يكن الشجار الأول مصادفة، ولكن كان من المحتم أن يحدث وسوف يحدث مرة أخرى، لقد فكرتُ في ذلك. لقد ذُهِلتُ وتأثرتُ أكثر بهذا الشجار الثاني، لأنه نشأ من مثل هذه الذريعة المستحيلة.

لقد كان له علاقة بالمال، والذي لم أشكُ أو أتذمر أبداً لافتقاده، ومن المؤكد أنني لم أكن قد شكوت منه لزوجتي، إنني فقط أتذكر أنها إنما قد أعطت الأمر مثل هذا المُنعطف لدرجة أن بعض تصريحاتي كانت تعبيرًا عن رغبة من جانبي لكي أهيمن عليها من خلال المال، الذي كان من المفترض لي أن أؤكد لها بإنفاقه أن لي عليها حقًا حصريًا – لقد كان شيئًا غبيًا بشكل مستحيل، قذر، وليس طبيعيًا أيضاً، سواء بالنسبة لي أو لها، وأصبحتُ مُستاءً غاضباً، ووبّختها بسبب عدم الاهتمام بي، إلا أنها اتهمتني بنفس الشيء، ومن ثم بدأ كل شيء مرة أخرى. في كلماتها وفي تعبير وجهها وعينيها، لاحظتُ مرة أخرى العداء البارد القاسي الذي

كان قد هاجمني وأذهلني من قبل. وكنتُ قد تشاجرت في السابق مع أخي، وأصدقائي، ووالدي، إلا أنني لا أتذكر أبداً، أنني قد رأيتُ مثل هذا الحقد الخبيث، وتَعَمُّد الأذى، الذي كان موجوداً هنا. ولكن بعد فترة من الزمن، تم حجب هذه الكراهية المتبادلة، وذلك عن طريق العشق والميل إلى الحب، وهذا هو الشغف، وما زلتُ أواسي نفسي وأتسلّى بالتفكير في أن هاتين المشاجرتين كانتا أخطاء يمكن معالجتها، ولكن حدث بعد ذلك أن تبعهما شجار ثالث ورابع، وأدركتُ حينها أن ما يحدث هذا ليس من قبيل الصدفة، ولكن كان ذلك من المحتم أن يحدث، وسوف يحدث هكذا، وقد شعرتُ بالرعب من تخيّل المشهد يحدث أمامي. وفي الوقت ذاته، كنتُ أتعذّب بسبب الفكر الرهيب الذي كنتُ أعيشه بمفردي في مثل هذه الفترات السيئة مع زوجتي، ولذا، وعلى عكس ما توقعته، في حين أن هذا لم يحدث بين الأزواج الآخرين. لم أكن أعرف حينها أن ذلك هو مصيرنا المشترك، ولكن كل شخص يتخيّل ذلك، مثلما فعلتُ أنا تماماً، أن هذا هو سوء حظهم الخاص، والجميع يُخفون هذه المحنة الإستثنائية والمُخجلة، ليس فقط من الآخرين بل أيضاً من أنفسهم ولا يعترف بها حتى لنفسه. لقد بدأ ذلك خلال الأيام الأولى، وإستمر طوال الوقت، وتزايدتْ ونَمتْ أكثر عنداً وفظاظة. في أعماق روحي شعرتُ من الأسابيع الأولى بأنني ضعتُ، وأن الأمور لن تعود كما كنتُ أتوقع، وأن الزواج لن يكون فقط بلا سعادة، بل إنه عبءٌ ثقيلٌ جداً؛ ولكن مثل أي شخص آخر، لم أكن أرغب في الاعتراف بذلك لنفسي (لم يكن لي أن أعترف بذلك حتى الآن ولكن من أجل

النهاية التي تلت ذلك)، وأخفيتها، ليس فقط من الآخرين، ولكن من نفسي أيضاً، والآن أنا مندهش لأنني فشلتُ في رؤية موقفي الحقيقي، وربما كان واضحاً من حقيقة أن المشاجرات بدأت بسبب ذرائع كان من المستحيل تذكرها بعد أن انتهت، وكان السبب في ذلك ليس بالسرعة الكافية لاستنباط ما يكفي من الأعذار، للعداء الذي كان موجودًا بيننا دائمًا، لكن الأكثر إثارة للإنتباه، كان هو عدم كفاية الأعذار لُمصالحاتنا ولتسوية الخلافات، في بعض الأحيان، كانت هناك بعض الكلمات، والتفسيرات، وحتى الدموع، ولكن في بعض الأحيان... أوه!، إنه أمر يثير الإشمئزاز، حتى الآن، لمجرد التفكير فيه - بعد أكثر الكلمات قسوة لبعضنا البعض، تأتي النظرات الصامتة والمفاجئة، ثم يتبعها ابتسامات، وقبلات، وأحضان... يا لها من فظاعة! كيف يكون ذلك، إنني لم أفهم حينها كل هذه الدناءة والضعّة في ذلك؟

***

الفصل الثالث عشر

دخل اثنان من الركاب الجُدُد واستقرا على المقاعد الأبعد.

وكان صامتاً بينما كانا يجدان مقاعد لنفسيهما، ولكن بمجرد أن استقرا، واصل حديثه، من الواضح أنه لم يكن يرغب في أن يُضيع لحظة حتى لا يفقد خيط فكرته. سألني:

- هل تعرف ما هو أسوأ ما في ذلك، هو أن الحب من الناحية النظرية هو شيء مثالي وجليل، ولكن في الممارسة العملية هو شيء بغيض، حقير، وهو شيء فظيع ومُخجِل أن أذكره أو أتذكّره. إن الطبيعة لم تجعله مقزّزاً ومُخجِلاً عَبَثاً، ومن أجل لا شيء، وإذا كان مُثيراً للإشمئزاز ومُخجِلاً، فإنه يجب على المرء أن يفهم أنه كذلك، لكن انتظر، فعلى العكس من ذلك، إن الناس يتظاهرون بأن ما هو مُثير للإشمئزاز والخزي إنما هو جميل ونبيل. ماذا كانت الأعراض الأولى لحُبّي، لماذا أفسحتُ المجال أمام التجاوزات الحيوانية؟، ليس فقط من دون خَجَلْ، بل أيضًا فخورًا إلى حدِّ ما بإمكانية حدوث هذه التجاوزات الجسدية، وبدون أدنى اعتبار إما لحياتها الروحية أو حتى حياتها الجسدية.

إنني أندهش وأتساءل، ماذا يُغضبنا ويثير غيظنا، بعضنا ضد بعض، ومع ذلك كان الأمر بسيطًا للغاية: فإن ذلك العداء لم يكن إلا احتجاجًا على طبيعتنا البشرية ضد الطبيعة الحيوانية التي تغلبت عليها. لقد فوجئتُ بعدائنا وخصومتنا بعضنا لبعض؛ ومع ذلك لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. لم تكن تلك

الكراهية سوى الكراهية المتبادلة بين المتواطئين في الجريمة - سواء بالنسبة للتحريض على الجريمة، أو على الطرف الذي نفّذها فعلياً. أيّ ما كانت، ولكنها جريمة عندما أصبحت زوجتي في حالة سيئة، حاملاً في الشهر الأول واستمر اتصالنا الدنيء؟

هل تعتقد أنني طائش، ضللتُ عن موضوعي؟ على الإطلاق! إنني أخبرك كيف قتلتُ زوجتي. لقد سألوني في المحاكمة، بماذا وكيف قتلتها؟. الحمقى!

إنهم يعتقدون أنني قتلتها بسكين، لقد كان ذلك في الخامس من أكتوبر. ولم أكن قد قتلتها بعد، ولكن قبل ذلك بكثير. تماماً مثلما هم جميعاً يقتلون الآن، الكل، الجميع....

ووجدتني أسأله:

- لكن بماذا قتلتها؟
- هذا تماماً هو ما يثير الدهشة، أن لا أحد يريد أن يعرف ما هو واضح جداً وجلي، ماذا يجب على الأطباء أن يعرفوا وينصحوا به، ولكنهم يصمتون عنه. لكن الأمر بسيط للغاية. لقد خُلِق الرجال والنساء مثل الحيوانات، بحيث أن الحب الجسدي يترتب عليه الحمل، ومن ثم الرضاعة – وهي ظروف يكون فيها الحب الجسدي شيئاً سيئًا للمرأة ولطفلها. وهناك عدد متساو من الرجال والنساء. ما الذي يترتب على ذلك؟ إن الأمر يبدو واضحاً، ولا يحتاج الأمر إلى وجود قدر كبير من الحكمة لاستخلاص الاستنتاج أن الحيوانات تفعل، أعني، الحاجة إلى كبح الشهوة.

لكن لا. لقد تمكن العلم من اكتشاف نوع من الكريات البيضاء في الدم التي تدور في الدم، وكل أنواع الهراء والحماقات غير المجدية، ولكن لا يمكنها فهم ذلك. واحد على الأقل لا يسمع من العلم يعلِّم ذلك!

وهكذا فإن المرأة لديها طريقان فقط للخروج من هذا: الأول هو أن تجعل من نفسها وحشاً، لتدمر وتستمر في التدمير داخل نفسها إلى أبعد درجة قد تكون ضرورية، تدمر قدرتها على أن تكون امرأة، أي أم، من أجل أن يحصل الرجل على متعته بهدوء وباستمرار؛ وأما الطريق الثاني للخروج – وهو ليس حتى طريق للخروج، بل إنه انتهاك بسيط، وفظ، ومباشر، لقوانين الطبيعة – يُمارَسْ في كل ما يُسَمّى بالعائلات المحترمة – على العكس من طبيعتها، أنه يجب على المرأة أن تكون عشيقة لزوجها، حتى أثناء حملها، أو أثناء رضاعتها لطفلها، يجب حتى أن تكون في وضع لا ينزل إليه حيوان ما، والتي لا تكفي قوتها على القيام به، وهذا هو ما يسبب مشاكل الأعصاب والهستيريا في طبقتنا، وبين الفلاحين تسبب ما يسمونه "مَسَّه الشيطان" – أو الصرع. وسوف تلاحظ أنه ليس هناك أي عذارى أنقياء قد "مَسَّهم الشيطان" أبداً، ولكن فقط النساء المتزوجات اللواتي يعشن مع أزواجهن.

وهكذا هو الأمر هنا، وهو تماماً نفس الأمر في أوروبا، جميع مستشفيات النساء الهستيريات هي مليئة بأولئك اللاتي انتهكن قانون الطبيعة. إن مرضى الصرع ومرضى "كاركوت" الطبيب الفرنسي، مؤسس علم الأعصاب، هولاء المرضى هم حطام كامل، كما تعلم، لكن العالم مليء بالنساء المصابات بالشلل النصفي.

فقط فكر في الأمر، ما هو العمل العظيم الذي يحدث داخل المرأة عندما تكون حاملاً، أو عندما تقوم برعاية رضيع. هذا هو النمو الذي سوف يجعلنا نبقى، ويأتي بمن يخلفنا ويحل محلنا. وهذا العمل المقدس – قد تم انتهاكه، من خلال ماذا؟ إنه لأمر رهيب أن تفكر في ذلك! وهم يثرثرون عن حرية وحقوق المرأة! إن الأمر يبدو كما لو أن أكلة لحوم البشر قد سَمَّنوا أسراهم لكي يأكلونهم، وفي الوقت نفسه أعلنوا أنهم كانوا قلقون، ومعنيون بشأن حقوق وحرية سجناءهم. وكل هذا كان جديدًا بالنسبة لي وأذهلني.

- وما الذي يجب على المرء فعله؟ إذا كان الأمر كذلك. إن هذا يعني أن المرء قد يحب زوجته لمدة سنتين، ولكن الرجال...

ولم يدعني أكمل حديثي، مُقاطعاً :

- يجب على الرجال!، مرة أخرى هؤلاء الكهنة الضليعون في العلوم الذين أقنعوا الجميع بذلك. إن غرس أفكار في نفس وذُهن رجل بفكرة أنه يحتاج الفودكا، والتبغ، أو الأفيون، وكل هذه الأشياء لا غنى عنها له. إنهم يُصورون بذلك أنه يبدو أن الله لم يفهم ما هو ضروري وحيوي، وبالتالي، أهمل استشارة هؤلاء السحرة، ورتب الأمور بشكل سيء.

إنك لا ترى الأمور تتطابق. لقد قرروا أنه من الضروري للرجل أن يُرضي رغباته، وأن الحمل وإرضاع الأطفال يأتي ويتدخل ويعيق إرضاء تلك الحاجة. ما الذي يجب على المرء القيام به بعد ذلك؟ استشر السحرة! سوف يقومون بترتيبها. وقد ابتكروا شيئًا. أوه! متى سيتم التخلص من هؤلاء السحرة مع

خدعهم؟ لقد حان الوقت منذ زمن، لقد وصل الأمر إلى درجة أن الناس يصابون بالجنون ويطلقون النار على أنفسهم وكل ذلك بسبب هذا.

كيف يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ حتى الحيوانات يبدو أنها تعرف أن ذريتها تواصل سباقها، وأنها تحافظ على قانون معين يحكم هذه المسألة. الرجل وحده لا يعرف ذلك ولا يريد أن يعرف، ولكن كل ما يهمه هو الحصول على كل ما في وسعه من المتعة. ومن يفعل ذلك؟ رب الطبيعة – الرجل! فالحيوانات، كما ترى، تتجمع فقط في أوقات تكون فيها قادرة على إنتاج ذرية، ولكن رب الطبيعة القذر يتدخل في ذلك في أي وقت إذا كان يرضيه فقط ! وفي حال ما يكون ذلك ليس كافياً، فإنه يُمَجّد هذا العمل المبتذل إلى أثمن لؤلؤة في عملية الخلق، ألا وهي الحُبّ. وباسم هذا الحب، يتم هذا الأمر، هذه القذارة، إنه يُدَمّر – ماذا؟ ولماذا، نصف الجنس البشري! جميع النساء اللاتي قد يساعدن في تقدم البشرية نحو الحقيقة والخير، إنه يحولهن، من أجل سعادته، إلى أعداء بدلاً من مساعدة الرفقاء. انظر إلى ما هو عليه، إنه في كل مكان يعوق حركة البشرية إلى الأمام. النساء! ولماذا هن ما هن عليه؟ فقط بسبب ذلك.

نعم، نعم...

وكرر هذه الكلمة عدة مرات، ومن ثم بدأ يتحرك، وأخرج سجائره وراح يدخن، من الواضح أنه كان يحاول أن يهديء من نفسه.

***

الفصل الرابع عشر

- أنا أيضاً أعيش مثل خنزير من هذا النوع، وتابع حديثه بنبرته السابقة:

إن أسوأ ما في الأمر، هو أنني بينما كنتُ أعيش تلك الحياة الفظيعة، تخيّلتُ ذلك، لأنني لم أذهب لملاحقة نساء أخريات، كنتُ أعيش حياة أسرية نزيهة، وأنني كنتُ رجل أخلاقي، ولم أكن محل لوم بأيّ حال من الأحوال، وإذا حدثتْ مشاجرات، كان ذلك بسبب خطأها ونتيجة لشخصيتها، بالطبع لم يكن الخطأ خطأها، فقد كانت مثل أي شخص آخر - مثل غالبية النساء. لقد تمت تربيتها حيث يتطلب وضع المرأة في مجتمعنا، وهكذا نشأت جميع النساء من الطبقات المرفهة، وبدون استثناء، وليس بيدها أن تمّتْ تربيتها على ذلك، إن الناس يتحدثون عن نوع جديد من التعليم للنساء. إنها كلها عبارة عن كلمات فارغة: إن تعليمهن بالضبط هو ما يجب أن يكون عليه من وجهة نظر صدقنا، واقعنا، والرأي العام الجمعي عن المرأة، إن تعليم المرأة سوف ينسجم ويتوافق دائماً مع رأي الرجال بشأنهم. ألا نعرف كيف ينظر الرجال إلى النساء: في كورال فالس فينيسي، بعوان "وين، والمرأة، والأغنية"، حيث تقول الأغنية: "من لا يحب النبيذ، والنساء، والأغنية، يظل أحمق طوال حياته، "

وماذا يقول الشعراء في أشعارهم؟ خذ كل الشعر، كل الصور والنحت، بدءاً من قصائد الحُبّ، وتماثيل فينوس العارية، و"فرينيس"، التي ألهمت الرسام "أبيليس" في رسم صورة "إفروديت"، أول تمثال لإمرأة عارية في اليونان

القديمة، وسترى أن تلك المرأة هي أداة للتمتع بها؛ والمرأة هكذا أداة للاستمتاع بها مثل "الترويا"، وهي آلة نفخ موسيقية في الريف الروسي، تُشبه "الناي"، وأيضا في كُرات الملاعب. ولاحظ مكر الشيطان: إذا كانوا هنا من أجل التمتع والسرور، فليكن معلومًا أنها متعة، وأن المرأة هي لقمة حلوة. ولكن لا، أولاً، يعلن الفارس المُنقذ أنهم يعبدون النساء (يعبدونها هنا، ومع ذلك ينظرون إليها كأداة للتمتع بها)، والآن يؤكد لنا الناس أنهم يحترمون النساء.

البعض يتخلون عن أماكنهم من أجلها، ويلتقطون منديلها، يعترف الآخرون بحقها في شغل جميع المناصب، والمشاركة في الحكومة، وهكذا. إنهم يفعلون كل ذلك، لكن نظرتهم إليها تبقى كما هي. إنها وسيلة للتمتع. جسدها هو وسيلة للتمتع. وهي تعرف هذا. هو تماماً كما هو الحال في العبودية. إن العبودية، كما تعلم، لا شيء سوى السخرة بواسطة بعض الكادحون العنيدون للآخرين. لذلك، وللتخلص من العبودية، من الضروري ألا يرغب الناس في الربح من العمل القسري للآخرين، وأن يعتبروه خطيئة وخزي. لكنهم يذهبون ويزيلون الشكل الخارجي للعبودية، ويرتبون الأمر بحيث لا يستطيع المرء بعد الآن شراء وبيع العبيد، وهم يتخيلون، بل ويؤكدون لأنفسهم، أن العبودية لم تعد موجودة، ولا يرونها، ولا يودّون معرفة أنها موجودة، لأن الناس لا يزالون يريدونها، بل يعتبرون أنه شيء جيد و صحيح أن يستغلوا عمل الآخرين.

وطالما أنهم يعتبرون ذلك شيء جيد، سيكون هناك دائمًا أشخاص أقوى أو أكثر

دهاءًا ومكراً من الآخرين، الذين سوف ينجحون في القيام بذلك. لذا فإن الأمر يتعلق بتحرير المرأة: إن استعباد المرأة يكمن ببساطة في حقيقة أن الناس يرغبون ويرون أنه من الجيد أن يستغلونها، وأن يستفيدوا منها لأنفسهم كأداة للتمتع بها. حسناً، وهم يحررون المرأة، ويعطونها كل أنواع الحقوق المساوية لحقوق الرجل، لكنهم يستمرون في اعتبارها وسيلة للتمتع بها، وبالتالي يُعلّمونها في طفولتها، وبعدها من قِبَلْ الرأي العام. وهي لا تزال هناك، نفس العبد الذليل الفاسد، ويظل الرجل هو صاحب الرقيق المنحل. إنهم يحررون المرأة في الجامعات والمحاكم ولكنهم يواصلون النظر إليهن كأداة للتمتع. يُعلّمونها، كما لو أنها قد تعلّمت بيننا، لكي تنظر إلى نفسها على هذا النحو، وستبقى دائماً دونية. إما بمساعدة هؤلاء الأوغاد من الأطباء سوف تمنع فكرة النسل – وهذا هو ما سوف يجعل منهاعاهرة كاملة، والتدني بنفسها ليس فقط إلى مستوى الحيوان، ولكن إلى مستوى شيء، – أو أنها سوف تكون على ما هن عليه، أغلبية النساء، مريضات العقل، وهستيريات، وغير سعيدات، وتفتقرن إلى القدرة على التطور الروحي. إن المدارس الثانوية والجامعات لا يمكنها تغيير ذلك. ولا يمكن تغييره إلا من خلال تغيير نظرة الرجال إلى النساء، وطريقة النساء فيما يتعلق بأنفسهن. سيتغير فقط عندما تعتبر المرأة أن العذرية هي أعلى حالات الفخر والإفتخار، وأنها ليست كما هي عليه في الوقت الحاضر، حيث تُعتبر أعلى حالات الإنسان من العار والخزي. وفي حين أن الأمر ليس كذلك، فإن المثل الأعلى لكل فتاة، مهما كان مستوى تعليمها، سوف يستمر في اجتذاب أكبر عدد

ممكن من الرجال، مثل أكبر عدد ممكن من الذكور، حتى يتسنى لهم إمكانية الاختيار. ولكن حقيقة أن أحدهم يعرف المزيد عن الرياضيات، والآخر يستطيع أن يعزف على القيثارة، لا فرق. إن المرأة تكون سعيدة وتصل إلى كل ما يمكن أن ترغب به عندما تكون قد سحرت رجلاً. لذلك فإن الهدف الرئيسي للمرأة هو أن تكون قادرة أن تفتنه، وهكذا كانت المرأة، وهكذا سوف تبقى، وهكذا هي في حياتها العُذرية في مجتمعنا، وهكذا تستمر في حياتها الزوجية. بالنسبة للعذراء، فإن هذا يكون ضرورياً، حتى يكون لديها فرصة الاختيار، أما بالنسبة للمرأة المتزوجة، فإن هذا يكون ضرورياً من أجل الحصول على السلطة على زوجها، إن الشيء الوحيد الذي يوقف هذا أو على أي حال يكبحه لفترة من الوقت، هم الأطفال، وحينها فقط، إذا لم تكن الأم وحشية، فإن هذا هو الوضع، إذا كانت تُرضعهم بنفسها. ولكن هنا يأتي دور الأطباء مرة أخرى. زوجتي، التي أرادت أن تُرضع، وأرضعتْ الأطفال الأربعة اللاحقين بنفسها، حدث أن كانت ليست على ما يرام، بعد ولادة طفلها الأول. وهؤلاء الأطباء الذين قاموا بصورة تهكمية بخلع ملابسها، وشعروا بأنها قد قُضيَ أمرها – وكان عليّ من أجل ذلك أن أشكرهم و أدفع لهم المال – هؤلاء الأطباء الأعزاء رأوا أنها لا يجب أن تُرضع الطفل؛ و في هذه المرة الأولى تم حرمانها من الوسيلة الوحيدة التي ربما كانت تحميها من العبث بالحبّ، والتدلّل، وارتبطنا بالرضاعة الطازجة، أي أننا قد استفدنا من حالة الفقر، والعوز، وجهل المرأة، وجذبناها

بعيدًا عن طفلها إلينا، وفي المقابل قدمنا لها غطاء رأس رائعًا بشريط ذهبي. لكن ليس هذا هو بيت القصيد، فالنقطة الأساسية هنا هي أنه خلال تلك الفترة التي كانت فيها زوجتي خالية من الحمل والرضاعة، كان التدلل الأنثوي، والغنج الرقيق، والذي كان كامناً بداخلها ظهر بقوة خاصة. وتزامن ذلك مع عذاب الغيرة التي نشأت بداخلي بقوة خاصة. فقد عذبوني طوال حياتي الزوجية، كما لم يمكنهم أن يُعذّبوا كل الأزواج، الذين يعيشون مع زوجاتهم، وقد عشتُ أنا مع زوجتي، إن هذا، غير أخلاقي.

***

الفصل الخامس عشر

- خلال حياتي الزوجية كلها لم أتوقف أبداً عن التعذُّب بسبب الغيرة، ولكن كانت هناك فترات عانيت فيها من الغيرة بشكل خاص.

كانت إحدى هذه الفترات عندما قام الأطباء، بعد ولادة طفلنا الأول، بمنع زوجتي من الرضاعة. لقد كنتُ غيورًا بشكل خاص في ذلك الوقت، في المقام الأول، لأن زوجتي كانت تعاني من هذا الاضطراب الطبيعي للأم والذي من المؤكد أنه سوف يستيقظ عندما يُنتهك مسار حياتها الطبيعية بلا داع؛ وثانياً، لأن رؤية مدى سهولة تخليها عن التزاماتها الأخلاقية كأم، فقد فكرتُ بصورة صحيحة واستنتجتُ بدون وعي منّي، أنها سوف تتجاهل واجباتها كزوجة، بنفس القدر من السهولة، خاصة أنها كانت على ما يرام، وعلى الرغم من الحظر القوي من الأطباء، تمكنتْ من رعاية أطفالها اللاحقين بصورة رائعة.

ومع ابتسامة ذات مغزى، قلت له – مشيراً إلى نغمة خبيثة غريبة في صوته كلما ألمح إلى الأطباء:

- أراك لا تُحِبّ الأطباء!
- إنها ليست حالة حُبّ أو كراهية. لقد دمّروا حياتي، كما دمّروا ولا زالوا يدمّرون حياة الآلاف، ومئات الآلاف من البشر، ولا أستطيعُ أن أربط التأثير كنتيجة، مع السبب. إنني أفهم أنهم يريدون كسب المال مثل المحامين وغيرهم، وأودّ عن

طيب خاطر أن أقدم لهم نصف دخلي، وكل من يدرك ما يفعلونه سوف يمنحهم عن طيب خاطر نصف ممتلكاتهم، فقط إذا كانوا لن يتدخلوا في حياتنا العائلية، ولن يقتربوا أبداً منّا، إنني لم أجمع الأدلة، إلا أنني أعرف العشرات من الحالات (هناك أي عدد منها!) حيث قتلوا طفلاً في رحم أمه، ويؤكدون أنه لم يكن بإمكانها أن تلده، على الرغم من أنها أنجبت أطفالاً بأمان تام في وقت لاحق، أو حيثُ قتلوا الأم نفسها، بحجة القيام بعملية ما، لم يعُد أحد يحسب هذه الجرائم أكثر من أنهم يحسبون جرائم القتل في التحقيقات القضائية، لأنه من المفترض أنها تتم لصالح البشرية. إنه من المستحيل إحصاء جميع الجرائم التي يرتكبونها. ولكن كل تلك الجرائم، لا تعتبر شيئًا مقارنة بالفساد الأخلاقي للمادية التي يُقدّمونها إلى العالم، وبصفة خاصة من خلال النساء. إنني لا ألقي اللوم على حقيقة أنه، إذا كان على المرء أن يتبع تعليماتهم، فعندئذ و بسبب العدوى الموجودة في كل مكان، وفي كل شيء، فإن الناس لن يتقدموا نحو إتحاد أكبر، ولكن باتجاه الإنفصال؛ لأنهم بحسب تعليمهم يجب علينا جميعاً أن نجلس بعيداً عن بعضنا، ولا نزيل المرذاذات المُشَبّعة بحمض الكربوليك، من على أفواهنا، (على الرغم من أنهم اكتشفوا الآن أنه حتى هذا ليس له جدوى)، ولكن هذا لا يهم أيضاً، فالسم الرئيسي يكمن في إحباط معنويات العالم، وبصفة خاصة النساء.

لم يعُد المرء بعد اليوم بإمكانه أن يقول: " أنت لا تعيش بشكل صحيح، عليك أن تعيش بشكل أفضل. " لا يمكن للمرء أن يقول ذلك، سواء لنفسه، أو لأي شخص آخر. فإذا كنتَ تعيش حياة سيئة، فإن سبب ذلك يرجع إلى العمل غير

الطبيعي لأعصابك، إلخ. لذا يجب عليك أن تذهب إليهم، وسوف يصفون لك ثمانية من الأدوية الممكن شراؤها من الصيدلية والتي يجب أن تتناولها! لقد أصبحتَ أسوأ حالاً: ثم يأتي دور الطبيب مرة أخرى، وهو ما يعني المزيد من الأدوية، يا لها من خدعة ممتازة!" وعلى أي حال، فليس هذا هو الهدف. فكل ما أودّ قوله هو أنها قد أرضعتْ أطفالها بشكل ممتاز، وأن حملها فقط ورعاية أطفالها أنقذوني من عذاب الغيرة. لو لم يكن الأمر كذلك لحدث كل ذلك في وقت أقرب. لقد أنقذني الأطفال كما أنقذوها، في ثماني سنوات، كان لديها خمسة أطفال وقد إهتمت برعايتهم جميعهم باستثناءها هي نفسها.

- وأين هم أطفالك الآن؟
- الأطفال؟

كررها بصوت مُرتجف، فقلتُ له معتذراً:

- سامحني، ربما كان مؤلمًا بالنسبة لك أن أذكّرك بهم.
- لا، لا يهم. فقد أخذتهم أخت زوجتي وأخوها. حيث أنهم لم يسمحوا لي بالاحتفاظ بهم، لقد تنازلتُ لهم عن أملاكي، ولكنهم لم يتنازلوا عن الأطفال من أجلي، أنت تعرف أنني نوع من المختلين عقلياً. والآن، لقد تركتهم وسوف أمضي بعيداً. لقد رأيتهم، لكنهم لم يكونوا ليسمحوا لي بأخذهم، لأنني يجب عليّ أن أربيهم بحيث لا يُصبحون مثل والديهم، في حين أنهم يجب أن يكونوا مثلهم تمامًا. أوه حسناً، ما الذي ينبغي عمله؟ بالطبع لن يسمحوا لي باستلامهم، كما أنهم لن يثقوا بي.

إلى جانب ذلك، فإنني لا أعرف ما إذا كان يُمكنني أن أتمكن من تربيتهم.

لا أعتقد أنه يُمكنني ذلك. إنني حُطام، مشلول. إلا أنه لا يزال هناك شيء واحد لديّ في داخلي. أنا أعلم! نعم، هذا صحيح، أعرف ما هو أبعد ما يكون عن معرفة الآخرين. نعم، إن أطفالي يعيشون ويترعرعون تماماً مثل هؤلاء المتوحشين مثل كل من حولهم. لقد رأيتهم، رأيتهم ثلاث مرات. ولا أستطيعُ أن فعل شيئاً لهم، لا شيء. أنا الآن سوف أذهب إلى مكاني في الجنوب. حيثُ لديّ بيت صغير وحديقة صغيرة هناك. نعم، سوف يمر وقت طويل قبل أن يعلم الناس ما أعرفه. كم يوجد في الشمس والنجوم من الحديد والمعادن الأخرى، من السهل اكتشاف ذلك، ولكن أي شيء يفضح وقاحتنا فإنه من الصعب اكتشافه، صعب للغاية! أنت على الأقل تستمع لي، وأنا مُمْتن لذلك.

***

الفصل السادس عشر

- لقد ذكرتَ أطفالي. مرة أخرى، ما هي الأكاذيب الفظيعة التي تدور حول الأطفال! إن الأطفال نعمة من الله، فرحة! كل هذا أكاذيب. لقد كان ذلك صحيحاً في يوم من الأيام، ولكن الآن ليس الأمر كذلك على الإطلاق. فالأطفال هم عذاب، ولا شيء غير ذلك، إن معظم الأمهات يشعرن بذلك بشكل واضح، وأحياناً يقُلنَ ذلك بشكل غير مقصود.

سَلْ معظم الأمهات من مُلّاك طبقاتنا الاجتماعية، وسوف يخبرنك أنهن لا يرغبن في إنجاب الأطفال خوفاً من أن يمرضنَ ويمُتنَ. إنهنّ لا تُردنَ أن تُرضعنَهم إذا كُنّ قد رُزِقنَ بهم، خوفًا من أن يُصبِحْنَ مرتبطات بهم أكثر من اللازم ويعانين.

فالسعادة التي يمنحها لهنّ الطفل من خلال رقته وجماله، وأيديه الصغيرة وأقدامه، وجسمه كله، كل هذا ليس عظيماً بقدر المعاناة التي يسببها الخوف الشديد من احتمال مرضهن أو موتهن، ولا يتحدّثنَ عن مرضهن الفعلي أو وفاتهن، بعد وزن المزايا والعيوب فإنه يبدو غير ملائم، وبالتالي غير مرغوب فيه، أن تنجبن الأطفال. وهن يقُلنَ ذلك بصراحة وجرأة، مُتخيلات أن هذه المشاعر من جانبهن إنما تنشأ من حبهن للأطفال، إن الشعور الجيد والجدير بالثناء الذي هن فخورات به. إنهن لا يلاحظن أنه من خلال هذا الفكر والتأمُّل فهن بوضوح

يُنكرنَ الحُبّ، ويؤكدون أنانيتهن فقط. إنهنّ يحصُلنَ من جمال الطفل على متعة أقل مما يعانين من الخوف على مصلحته، وبالتالي فإن الطفل الذي كنّ سوف يحببنه، غير مرغوب فيه. إنهن لا يضحين بأنفسهن من أجل من كان يمكنهن حبه، ولكنهن يضحين بهذا الكيان الذي ربما يحببنه، من أجل مصلحتهن الخاصة. من الواضح أن هذا ليس حُبًا وإنما أنانية. ولكن ليس لدى المرء القلب الذي يلومهن – الأمهات في العائلات الميسورة الحال – من أجل تلك الأنانية، عندما يتذكر المرء كيف يعانين بشكل مروع بسبب حالة أطفالهن الصحية، مرة أخرى بفضل نفوذ هؤلاء الأطباء أنفسهم من بين الطبقات الثرية، حتى الآن، عندما أتذكر فقط حياة زوجتي، والحالة التي كانت عليها خلال السنوات الأولى، عندما كان لدينا ثلاثة أو أربعة أطفال وكانت تستوعبهم، فإن الذُعر يستولي عليّ! لم نقم بأي حياة على الإطلاق، لكننا كنا في حالة من الخطر المستمر، وحالة من الهروب منه، خطر متواتر ومتكرر، أعقبه صراع يائس، ومحاولة أخرى من الهروب – دائماً كما لو كنا على متن سفينة تغرق، أحياناً كان يبدو لي أن هذا قد حدث عن قصد، وأنها تظاهرت بأنها قلقة بشأن الأطفال من أجل إخضاعي، وقد حلّ هذا كل الخلافات والتساؤلات لصالحها بهذه البساطة المغرية. وفي بعض الأحيان يبدو الأمر كما لو كان كل ما فعلته هي وما قالته، في هذه المناسبات كان مجرد إدّعاء وتظاهر! ولكن لا!، فهي نفسها قد عانت بشكل رهيب، وعذّبتْ نفسها باستمرار بسبب الأطفال وصحتهم وأمراضهم. لقد كان عذاباً لها وعذاباً لي أيضاً. وكان من المستحيل عليها ألا تعاني.

بعد كل شيء، التعلق بأطفالها، حاجة الحيوان إلى ملاطفات ومداعبات التغذية، وحمايتهم، كما هو الحال مع معظم النساء، ولكن لم يكن هناك افتقار إلى الخيال والعقل الذي يوجد في الحيوانات. فالدجاجة لا تخاف مما قد يحدث لفرخها، ولا تعرف كل الأمراض التي قد تصيبها، ولا تعرف كل تلك العلاجات التي يتخيلها الناس أنهم يستطيعون بها حمايتهم من المرض والموت. وبالنسبة للدجاجة، فإن صِغارها ليسوا مصدرًا للعذاب.

إنها تفعل لهم ما هو طبيعي وممتع بالنسبة لها أن تفعله؛ صغارها هم متعة لها. عندما يقع فرخ مريض، فإن واجباتها محددة تمامًا: تدفئها وتغذيها. وهي تفعل ذلك وتعلم أنها تفعل كل ما هو ضروري. إذا ماتت صغارها فإنها لا تسأل نفسها لماذا ماتت، أو إلى أين ذهبت. إنها تقوقيء لفترة من الوقت، ثم تتركها وتذهب للعيش كما كانت تحيا من قبل. لكن بالنسبة إلى نساءنا غير المحظوظات، ومن بينهن زوجتي، لم يكن الأمر كذلك. ناهيك عن الأمراض وكيفية علاجها، كانت دائماً ما تسمع وتقرأ من جميع الجوانب قواعد لا نهاية لها لتربية وتعليم الأطفال، والتي كانت تُستبدل باستمرار من قِبَل الآخرين. هذه هي طريقة إطعام الطفل: أطعميه بهذه الطريقة، على شيء من هذا القبيل؛ لا، ليس على شيء من هذا القبيل، ولكن بهذه الطريقة ؛ الملابس، والمشروبات، والحمامات، ووضعه في السرير، والمشي، والهواء النقي ومن أجل جميع هذه الأشياء، فنحن، وخاصةً هي، سمعنا عن قواعد جديدة كل أسبوع، تماماً كما لو أن الأطفال بدأوا يولدون في العالم منذ الأمس.

وإذا كان الطفل الذي لم يكن قد تغذّى أو إغتسل بالطريقة الصحيحة أو في الوقت المناسب قد أصيب بالمرض، يبدو أننا كنا مسؤولين عن عدم قيامنا بما كان يجب علينا القيام به. كان الأمر كذلك حين كانوا على ما يرام. وقد كان عذاباً حتى ذلك الحين. ولكن إذا حدث أن أصيب أحدهم بالمرض، فقد كان كل شيء يعود إلى: جحيم منتظم! لقد كان من المفترض أن المرض يمكن علاجه وأن هناك علمًا بخصوص هذا الأمر، وأشخاص – وأطباء – يعرفون ذلك، آه، ولكن ليس جميعهم يعلمون – فقط الأفضل هم من يعلمون، عندما يكون الطفل مريضًا، فإنه علينا أن نبعد عنه الأطفال الأصحاء، الطفل الذي ينجو من المرض ويُنقذ، ولكن إذا لم تتحصل على هذا الطبيب، أو إذا كنت لا تعيش في المكان الذي يعيش فيه هذا الطبيب، فسوف تفقد هذا الطفل، ولم يكن هذا يُمثّل عقيدة غريبة بالنسبة لها، بل هي عقيدة كل النساء من طبقتنا، ولم تسمع أي شيء آخر من جميع الجوانب، لقد فقدت السيدة "كاثرين سيميونوفنا" طفلين لأنه لم يتم الاتصال بالسيد "إيفان زخاريش" في الوقت المناسب، لكنه أنقذ الفتاة "ماري" ابنة "إيفانوفنا" البِكر، وقد تحرك "آل بتروف" في الوقت المناسب إلى فنادق مختلفة بناء على نصيحة الطبيب، وبقي الأطفال على قيد الحياة، ولكن إذا لم يكن قد تم عزلهم، لكان الأطفال قد ماتوا. أما الآخرون الذين كان لديهم أطفال رقيقة حساسة، فقد انتقلوا إلى الجنوب بناء على نصيحة الطبيب، وتم إنقاذ الأطفال. كيف يمكن لها أن تساعد رغم تعذيبها وقلقها طوال الوقت، عندما تعتمد حياة الأطفال، الذين ترتبط بهم ارتباطاً حيوانياً، على اكتشافها ما الذي

سوف يقوله "إيفان زاخاريش" في الوقت المناسب! لكن لا أحد يعرف ما سوف يقوله إيفان زخاريش، وهو نفسه أقل من غيره، لأنه يدرك جيداً أنه لا يعرف شيئًا، وبالتالي لا يمكن أن يكون له أي فائدة، ولكنها مجرد لخبطة عشوائية حتى لا يتوقف الناس عن الإعتقاد أنه يعرف شيئاً أو غيره. وها أنت ترى، لو أنها كانت حيوانة بالكامل لما كانت تعاني هكذا، أما إذا كانت إنسانة تماماً، لكان لديها الإيمان بالله، وكانت سوف تقول وتفكر، كما يفعل المؤمن: "لقد أعطى الرب ولقد أخذ الرب. لا يمكن للمرء أن يهرب من الله." إن حياتنا كلها مع الأطفال، بالنسبة لزوجتي، وبالتالي بالنسبة لي، لم تكن متعة، بل عذاب. كيف يمكنها أن تساعد في تعذيب نفسها؟ لقد عذبت نفسها بلا توقف. في بعض الأحيان عندما كنا قد اتفقنا على السلام، بعد حدوث بعض ثورات الغضب بسبب الغيرة، أو ببساطة بعد مشاجرة، واعتقدنا أننا يجب أن نكون قادرين على العيش، والقراءة، والتفكير قليلاً، لم نستطع أن نستقر سريعاً في عمل معين، إلى أن جاءت الأخبار بأن "فاسيا" كانت مريضة، أو أن "ماشا" قد ظهرت لديها أعراض الدوسنتاريا، أما "أندروشا" فقد كان لديها طفح جلدي، ثم كان هناك نهاية للسلام، ولم يعُدْ هناك حياة أكثر من ذلك، فإلى أين كان على المرء أن يذهب؟ وإلى أي طبيب؟ كيف نعزل الطفل؟ ثم إنها حالة من الحقن الشرجية، ودرجات الحرارة، والأدوية، والأطباء. من الصعب أن ينتهي كل ذلك، قبل أن يبدأ شيء آخر، لم نكن نعيش حياة عائلية مستقرة ولكن فقط، كما سبق لي أن قلت، هروب مستمر من الأخطار الخيالية و الحقيقية، وهذا هو الحال في معظم العائلات في أيامنا

هذه، كما تعلم، ولكن في عائلتي كان الأمرحاداً بشكل خاص، فقد كانت زوجتي محبة للأطفال وامرأة ساذجة، وبالتالي فإن وجود الأطفال لم يفشل في تحسين حياتنا فحسب، بل سمّمها أيضاً. علاوة على ذلك، كان الأطفال سببًا جديدًا للشقاق. فبمجرد أن أصبح لدينا أطفال أصبحوا وسيلة وموضوع خلافنا، وكان ذلك يزداد كلما كانوا يكبرون أكثر وأكثر، لم يكونوا فقط هم موضوع الخلاف، بل كانوا أيضاً هم الأسلحة في صراعنا، لقد استخدمنا أبنائنا، هكذا كان الأمر، لمحاربة بعضنا البعض بهم، وكان لكل منا سلاح مفضل بينهم من أجل صراعنا.

لقد اعتدتُ أن أصارعها أساساً من خلال "فاسيا"، إبننا البكر، كما إعتادت هي أن تصارعني، من خلال "ليزا"، بالإضافة إلى ذلك، مع تقدمهم في السن، وقد تشكلت شخصياتهم، فقد نضجوا إلى أن أصبحوا حلفاء، حيث حاول كل واحد منا أن يجذبهم إلى جانبه. لقد عانوا، هؤلاء المساكين، بشكل سيء، من هذا، لكننا، مع صراعنا المتواصل، لم يكن لدينا وقت للتفكير في ذلك. فكانت الفتاة حليفتي، وكان الولد الأكبر، الذي يشبه والدته، وكان مفضلاً لديها، غالبًا ما كان كارهاً لي.

***

الفصل السابع عشر

- حسناً، وهكذا عشنا. نمت علاقاتنا مع بعضنا البعض، عدائية أكثر فأكثر، وفي النهاية وصلت إلى مرحلة لم يكن فيها خلافًا في الرأي قد يسبب العداء، ولكن العداء هو الذي تسبب في الخلافات. وأيّا كان ما قد تقوله، كنتُ أرفضه مُسبقًا، وكان هذا هو تماماً ما يحدث منها، وفي عامنا الرابع معاً، على ما يبدو، توصّلنا إلى نتيجة مفادها أننا لم نكن لنستطيع أن نفهم بعضنا البعض. كما لم نعد نحاول إنهاء أي نزاع. لقد أبقينا دائماً على آرائنا حتى حول أكثر المسائل تفاهة، ولكن خاصة المسائل التي تخص الأطفال. وإذ أذكرهم الآن، فإن الآراء التي حافظتُ عليها لم تكن على الإطلاق عزيزة عليّ لدرجة أنني لم أتمكن من التخلي عنها. لكنها كانت على العكس من ذلك، وكان التنازل يعني التنازل لها، وأنا لا يمكنني أن أفعل ذلك. وكان هذا هو الشيء نفسه معها. ربما كانت تعتبر نفسها في الجانب الصواب تماماً في مواجهتي، وأما بالنسبة لي، لطالما ظننتُ نفسي قديساً تجاهها. وعندما كنا لوحدنا معاً كنا محكومين بالصمت تقريباً، أو محكومين بمحادثات مثل أنا مقتنع أنه يمكن للحيوانات أن تستمر مع بعضها البعض: "كم الساعة الآن؟ لقد حان الوقت للذهاب إلى السرير. ماذا لدينا للعشاء اليوم؟ إلى أين يمكننا أن نذهب؟ ما هي الأخبار الموجودة في الصحف؟ أرسل للطبيب، فإن "ماشا" لديها التهاب في الحلق. كنا في حاجة فقط إلى الذهاب إلى مسافة قصيرة

جداً وراء هذه الدائرة البغيضة والمحدودة من المحادثات لإثارتها لكي تشتعل. وكان بيننا تصادمات وكلمات حادة حول القهوة، مفرش المائدة، حقيبة، قيادة فوق الجسر، وكلها أشياء لا يمكن أن تكون ذات أهمية لأيّ منّا.

في داخلي، على أي حال، هناك في كثير من الأحيان تحتدم الكراهية الرهيبة لها. كنتُ أشاهدها في بعض الأحيان تصُبّ الشاي، تُأرجح ساقها، ترفع الملعقة إلى فمها، وتلعق شفتيها، وتسحب بهما بعضاً من السائل، وكرهتها لهذه الأشياء كما لو كانت أسوأ أعمال ممكنة. لم ألاحظ حينها أن فترات الغضب كانت تتوافق تماماً بشكل منتظم، وبشكل دقيق، مع الفترات التي أطلقنا عليها فترة الحب. فترة من الحب – ثم فترة من العداء. فترة من الحُبّ مفعمة بالحيوية، ثم فترة طويلة من العداء. أضعف مظهر يُعبّرعن الحُبّ، وأقصر فترة من العداء. لم نكن نفهم حينها أن هذا الحُبّ وهذا العداء، كانا يُمثّلان شعوراً واحدًا هو نفس شعور الحيوان على طرفي النقيض. وللعيش على هذا النحو لكان شيئاً مريعاً أن نفهم موقفنا؛ ولكننا لم نفهمه، كما أننا لم نره، إن كل من الخلاص والعقاب للإنسان، كلاهما يكمن في حقيقة أنه إذا كان المرء يعيش بشكل خاطئ، فإنه يمكنه أن يجعل نفسه ضبابياً، حتى لا يرى بؤس موقفه. وهذا هو ما فعلناه. فقد حاولتْ هي أن تنسى نفسها في إنشغال مُكَثّفْ وعاجل دائماً مع الشؤون المنزلية، وتشغل نفسها بترتيبات المنزل، وملابسها الخاصة، وملابس الأطفال، ودروسهم، وصحتهم؛ بينما كان لديّ مشاغلي الخاصة: النبيذ، أعمال وواجبات مكتبي، الصيد، والبطاقات. كنا كلانا مشغولان باستمرار، وكنا نشعر كلانا بأننا كلما انشغلنا

أكثر، كلما تحولنا أكثر إلى كراهية بعضنا لبعض. لقد فكرتُ وقلتُ في نفسي "إن كل شيء جيد جداً بالنسبة لك لأن تُكَشّر بقسمات وجهك، وتفعل به ما يُضحِك الآخرين"، "ولكنكَ قد أزعجتني طوال الليل بغضبك، ولديّ اجتماع، إن كل شيء جيد بالنسبة لك"، لم تفكر فقط، بل قالت ذلك، ولكنني كنتُ مستيقظًا طوال الليل مع الطفل. إن هذه النظريات الجديدة عن التنويم المغناطيسي، والأمراض النفسية، ونوبات الهستيريا، ليست بفكرة حمقاء بسيطة، ولكنها فكرة خطيرة ومثيرة للاشمئزاز.

من المؤكد أن "شاركوت" قد قال إن زوجتي كانت هستيرية، كما قال أيضاً أنني كنت غير طبيعي، وأنه سيحاول بلا شك أن يعالجني. ولكن لم يكن هناك شيئاً يحتاج إلى علاج. وهكذا كنا نعيش في حالة ضبابية دائمة، لا نرى الحالة التي كنا فيها. وإذا لم يحدث ما حدث، كنتُ سوف أستمرُ في طريقة الحياة التي كنتُ أحياها حتى عمر متأخر، وكنتُ سوف أفكر، عندما تحين لحظة الموت، أنني كنتُ قد قضيتُ حياة جيدة، ولم أكن لأدرك هاوية البؤس والزيف الرهيب الذي تمرّغتُ فيه. لقد كنا مثل إثنين من المحكومين، نكره بعضنا بعضاً ومُقَيّدان معاً بعضنا ببعض، كل منا يُسمّم حياة الآخر، ولكنه يحاول ألا يرى ذلك، ولم أكن أعرف حينئذ أن تسعة وتسعين بالمائة من المتزوجين يعيشون في جحيم مماثل لذلك الذي كنت أعيش فيه ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك.

حينها لم أكن أعرف ذلك عن الآخرين أو حتى عن نفسي. إنه من الغريب أن يكون هناك مصادفات منتظمة في الحياة العادية، أو حتى في الحياة غير العادية!

فقط عندما يكتشف الآباء أن الحياة معاً لا تُطاق، فإنه يُصبح من الضروري الانتقال إلى المدينة من أجل تعليم الأطفال.

وتوقف عن مُتابعة حديثه، وأعطى مرة أو مرتين تنفيسًا لأصواته الغريبة، والتي كانت الآن تشبه تمامًا تنهدات مَكتومة. كنا نقترب من محطة. وربما بدافع من إحساسه بالملل أو الإرهاق الذي بدا عليه سألني:

- كم الساعة الآن؟

فنظرتُ إلى ساعتي. وأجبته:

- إنها الثانية.
- ألستَ متعباً؟
- لا، ولكن هل أنت مُتعَب؟
- إنني أختنق. اِسمح لي، سوف أسير في كل اتجاه حتى أشرب بعضَ الماء.

ثم ذهب، ولاحظتُ أنه يمشي بشكل غير مستقر، وكأنه يترنح في مشيته، من خلال العربة. وبقيتُ وحدي أفكر فيما قاله، وكنتُ منهمكاً جداً في التفكير، لدرجة أنني لم ألاحظه عندما دخل من الباب مرة أخرى في الطرف الآخر من العربة.

***

الفصل الثامن عشر

وكان لديه الرغبة في متابعة حديثه، قال:

- نعم، إنني أستمرُ في الاستطراد، لقد فكرتُ كثيراً في تلك الأمور. وأنا الآن أرى أشياء كثيرة بشكل مختلف، وأرغب في التعبير عنها. حسناً، وهكذا عشنا في المدينة. وفي المدينة يُمكن للرجل أن يعيش لمدة مائة عام دون أن يُلاحظ أنه قد مات منذ أمَد بعيد، وأنه قد تعَفَّن. فهو ليس لديه الوقت لكي يهتم بشؤون نفسه، فهو دائم الانشغال. بالشؤون التجارية، العلاقات الإجتماعية، الصحة، الفنون، صحة الأطفال وتعليمهم. أما الآن، فإنه يجب على المرء أن يستقبل ذاك وذاك وذاك وذاك ويذهب لرؤية ذاك وذاك وذاك، الآن على المرء أن يذهب وينظر إلى هذا، ويسمع لهذا الرجل أو لتلك المرأة. في المدينة، وكما تعلم، هناك في أيّ لحظة معينة، واحدة أو إثنتين، أو حتى ثلاثة، من المشاهير الذين يجب على المرء ألا يُقلل من أهمية رؤيتهم. ثم يجب على المرء الخضوع لعلاج نفسه، أو الحصول على شخص آخر للعناية به، ثم أنه يوجد هناك مدرسين، ومعلمين خصوصيين، ومُربيين، ولكن حياة الشخص فارغة تماماً. حسناً، هكذا عشنا، وشعرنا بأقل الآلام من العيش معاً. إلى جانب ذلك، كان لدينا في البداية مشاغل رائعة، فكنا نقوم بترتيب الأشياء في مكان جديد، في أركان جديدة. وكنا مشغولين أيضاً بالذهاب من المدينة إلى الريف، والعودة إلى المدينة مرة أخرى.

لقد عشنا هكذا خلال فصل شتاء واحد، وفي فصل الشتاء التالي، حدث، ودون أن يلاحظه أحد، شيء، كما يبدو في الظاهر، هو ليس شيئاً هاماً، ولكنه كان السبب وراء كل ما حدث بعد ذلك. فهي لم تكن على ما يرام، وقد أبلغها الأطباء بضرورة عدم إنجاب الأطفال، وعلّموها كيفية تجنب الحمل. بالنسبة لي كان الأمر مثيراً للإشمئزاز. وناضلتُ ضد ذلك، إلا أنها بعنادها التافه أصرت على المُضيّ قُدُماً على طريقتها الخاصة، ولكنني استسلمتُ. العذر الأخير لحياتنا الدنيئة - الأطفال - كانوا حينها قد أُخِذوا بعيداً، وأصبحت الحياة تافهة أكثر من أيّ وقت مضى. بالنسبة للفلاح، أيّ إنسان كادح، يكون الأطفال ضروريين، رغم أنه من الصعب عليه إطعامهم، ومع ذلك فهو بحاجة إليهم، ولذلك فإن علاقاته الزوجية لها ما يبررها. ولكن بالنسبة لنا، الذين لدينا أطفال، فإن المزيد من الأطفال يكونون غير ضروريين، بل يكونون رعاية إضافية، ومصروفات زائدة، ومزيد من تقسيم الممتلكات، وعبء، ولذا فإن حياتنا الحقيرة لا مبرر لها، فنحن إما أن نحرم أنفسنا بشكل مصطنع من الأطفال أو نعتبرهم مصيبة، عواقب الإهمال واللا مُبالاة، وهذا لا يزال هو الأسوأ.

في الحقيقة لم يكن لدينا مبرر. لكننا كنا قد انحدرنا من الناحية الأخلاقية إلى الحد الذي جعلنا حتى لا نشعر بالحاجة إلى أيّ مبرر. إن أغلبية العالم المُثَقّفْ الحالي يُكَرّسون أنفسهم لهذا النوع من الفجور دون أدنى حد من وخز الضمير. لا يوجد في الواقع شيء يُمكن أن يشعر بالتأنيب ووخز الضمير، لأن الضمير في مجتمعنا غير موجود أصلاً، ما لم يكن باستطاعة المرء أن يُسَمّي الرأي العام

والقانون الجنائي" ضمير ". في هذه الحالة لا ينتهكه أو يخالفه أيّ واحد أو الآخر: لا يوجد سبب للشعور بالخجل من الرأي العام، لأن الجميع يتصرف بنفس الطريقة – "ماري بافلوفنا" و"إيفان زاخاريش"، والباقون، لماذا يُرَبّون الفقراء المحتاجين، و يحرمون أنفسهم من إمكانية الحياة الاجتماعية؟ لا داعي للخوف أو الشعور بالخجل في مواجهة القانون الجنائي، إن أولئك الفتيات العاهرات، أو زوجات الجنود، يرمين أطفالهن في البِرك والمستنقعات أو الآبار، وهن بالطبع يجب الزجّ بهن في السجون، لكننا نفعل كل ذلك في الوقت المناسب وبطريقة نظيفة. لقد عشنا مثل هذه الحياة، لمدة سنتين أخرِيَيَنْ، من الواضح أن الوسائل التي يستخدمها هؤلاء الأطباء الأوغاد - بدأت تؤتي ثمارها. فلقد أصبحت قوية بدنياً، وأكثر جمالاً، مثل جمال الأيام الأخيرة من فصل الصيف. لقد شَعَرَتْ بهذا واهتمتْ بمظهرها. وأيضاً طورتْ نوعًا مثيرًا من الجمال جعل الناس يشعرون بالإثارة. كانت في كامل نشاطها كامرأة تم تغذيتها جيداً، ومثيرة، في الثلاثين من عمرها، لا تحمل أو تُنجِب الأطفال.

كان مظهرها يزعج الناس. فعندما كانت تمُر بالرجال، كانت تجذب انتباههم. حيثُ كانت تُشبه حصانًا مُشاكساً جيد التغذية، في سرجه. كان قد تم نزع لجامه، فلم يكن هناك لجام، كما هو الحال مع تسعة وتسعين بالمائة من نسائنا. وقد شعرتُ بهذا – وكنتُ مُرتعِباً.

***

الفصل التاسع عشر

فجأة نهض وجلس بالقرب من النافذة. كانت عيناه مُثبتتان على النافذة، وظل صامتاً لمدة ثلاث دقائق تقريبًا. ثم تنهّد بعمق وانتقل إلى المقعد المقابل لي. وقد تغيّر وجهه تماماً، وبدت عيناه تشيان بالحزن، مثيرتان للشفقة، وتغَضّنتْ شفتاه بشكل غريب، كما لو كان يبتسم. وتمتم قائلاً:

- أرجو المعذرة، أنا في الواقع مُتْعَبٌ إلى حد ما لكنني سوف أكمل حديثي. فلا زال لدينا المتسع من الوقت، فلم يبزغ الفجر بعد. آه، نعم..

وأخرج سيجارة من سجائره، وأشعلها، ثم راح ينفث دخانها في الهواء، ومن ثم عاود حديثه قائلاً:

- لقد أصبحتْ بدينة بعد أن توقفتْ عن الحمل والإنجاب، ومرضها- ذلك الذي كان يجعلها قلقة إلى الأبد على الأولاد، بدأ ينتهي، على الأقل ليس في الواقع، لكنها كانت قد استفاقت من التَسَمّم، وعادت إلى نفسها، ورأت أنه كان هناك عالم إلهي كامل وراء سعادتها التي نسيتها، لكن العالم الإلهي لم تكن لتعرف كيف تعيش فيه، ولم تفهمه على الإطلاق، لا يجب عليّ أن أنسى ذلك! فالزمن يمر ولن يعود!، لذا، فإنني أتخيّل، أنها فكرتْ، أو بالأحرى شعرتْ، ولا يمكن أن تفكّر أو تشعر بشكل مختلف: لقد نشأتْ على الاعتقاد بأن هناك شيء واحد فقط في العالم يستحق الإهتمام – هو الحب. لقد تزوجتْ وحصلتْ على شيء من هذا

الحب، ولكن ليس بالقدر الذي وعِدَتْ به، أو الذي كانت تتوقعه. حتى ذلك القدر الضئيل الذي حصلتْ عليه، كان مصحوباً بالعديد من خيبات الأمل والإحباطات والمعاناة، ومن ثم هذا العذاب غير المتوقع: الكثير من الأطفال! العذابات التي استنزفتها. ثم، وبفضل الأطباء الخدومين، عَلِمَتْ أنه من المُمكن تَجَنُّبْ إنجاب الأطفال. وكانت سعيدة للغاية، وحاولت ذلك، وأصبحتْ على قيد الحياة مرة أخرى، من أجل الشيء الوحيد الذي عرفته – من أجل الحب. لكن الحُبّ مع الزوج الذي أزعجته الغيرة وجميع أنواع الغضب، لم يَعُدْ بَعْد هو الحُبّالذي أرادته. فقد كان لديها رؤى عن حُبّ آخر، نظيف، وجديد. على الأقل، أعتقد أنها قد حصلتْ عليه.

وبدأتْ هي تنظر إلى نفسها وحولها، وكأنها كانت تتوقع شيئًا. ولقد رأيتُ أنا هذا، ولم أكن أستطيعُ أن أتجنب الشعور بالقلق. ولقد حدث ذلك مراراً وتكراراً، لدرجة أنه حينما كانت تتحدث معي، كالعادة، كنتُ من خلال أشخاص آخرين – أي شخصاً ثالثاً، كنتُ أخبره عما كانت تعنيه بالنسبة لي – كانت بجرأة، وبدون أن تتذكر هي ذلك، تُعرب عن الرأي المعاكس عما قالته قبل ساعة، فأعلنتْ، ولو أنه كان نصف مزاح، أن رعاية الأم وحنانها، إنما هي عملية خداع، وأن الأمر لا يستحق الوقت الذي تُكَرِّسْ فيه الأمّ حياتها من أجل الأطفال، خاصة عندما تكون لا تزال صغيرة، ويُمكنها أن تستمتع بحياتها، ولقد أعطتْ اهتماماً أقل بالأطفال، وأقل تَوتّراً من ذي قبل، ولكنها أعطتْ المزيد والمزيد من الإهتمام بنفسها، وبمظهرها (على الرغم من أنها حاولت إخفاء هذا)،

والإهتمام بمتعتها وسعادتها، والإهتمام حتى بإنجازاتها. وأخذت مرة أخرى بحماسة البيانو الذي كانت قد هجرته تمامًا، وقد بدأ كل ذلك بعد هذا الحُبّ الجديد.

وهنا، اتجه إلى النافذة مرة أخرى، يجول بعينيه المرهقتين، من خلالها، وكان من الواضح أنه يبذل جهدًا، ولكنه فجأة راح يُكمِل حديثه مرة أخرى..

- نعم، لقد ظهر هذا الرجل في حياتنا...

وتوقف قليلاً، ولسبب ما، أصبح مُرتبكًا مُتَوَتّراً، وراح يُصدِر هذا الصوت الغريب مرة أو مرتين من أنفه. ولقد استطعتُ أن أرى أنه كان من المؤلم له أن يُسَمّي ذلك الرجل، ليتذكره، أو ليتحدث عنه. ولكنه بذل جهداً، كما لو كان قد تَخَطّى العقبة التي كانت تُعيقه، ثم تابع بحزم..

- لقد كان رجلًا لا قيمة له في رأيي ووفقًا لتقديراتي. وليس بسبب الأهمية التي اكتسبها في حياتي، بل لأنه كان كذلك فعلًا.

وعلى أي حال، فإن حقيقة أنه كان من النوع السيء من الأصحاب فقط كانت تُظهر أنها زوجة مُستهترة، غير أهل للمسؤولية، وأنه، إذا لم يكن هو موجوداً، لكان هناك رجل آخر. فلا بُدّ من وجود رجل..

ومرة أخرى، توقف قليلاً، ثم استطرد قائلاً:

- نعم، لقد كان يعمل موسيقياً، عازفاً على الكمان، ليس مُحترِفاً، بل شبه مُحترف. وشبه رجل مجتمع، كان والده، مالك أراضي، وكان جاراً لأراضي والدي. وحدث أن تَدَمّر، أما عن أطفاله - فكان هناك ثلاثة أولاد – وقد حصلوا على

أوضاع مستقرة ؛ فقط هذا الابن، الأصغر، تم تسليمه إلى أمه الروحية في باريس. وهناك تم إرساله إلى معهد الموسيقى، أو الكونسرفتوار، لأنه كان لديه موهبة في عزف الموسيقى، وخرج كعازف كمان وعزف في الحفلات الموسيقية.

كان رجلاً...

وكان من الواضح أنه يعتزم أن يقول شيئاً سيئًا عنه، إلا أن "بوزدنيشيف" كبح جماح نفسه، وسرعان ما قال:

- حسناً، أنا لا أعرف حقاً كيف عاش، أعرف فقط أنه عاد إلى روسيا في تلك السنة، وظهر في منزلي. بعيون رطبة لوزية الشكل، وشفاة حمراء مُبتسمة، وشارب صغير مُشَمّع، وشعر تم تصفيفه طبقاً لأحدث صيحات الموضة، وله وجهاً جميلاً إلا أنه يخلو من الروح ويبدو تافهاً، إنه يبدو ذلك الذي تُسَمّيه النساء" مقبول المظهر"، فقد كان مظهره ضعيفاً على الرغم من أنه لم يكن سيء الشكل، وكان لديه بصفة خاصة مؤخرة كبيرة، مثل مؤخرة النساء، أو مثل قبائل "هوتنتوت" الأفارقة السُمر، فإنهم يُقال عنهم أنهم موسيقيين، وهو يحشر نفسه قدر الإمكان إلى التآلف والمخالطة، ولكنه حساس، ومُستعد دومًا للاستسلام بأضعف مقاومة، وقد حافظ على كرامته في الظواهر السطحية، وارتدى أحذية زاهية ومزينة بالأزرار من الموضة الباريسية الخاصة، وربطات العنق ذات الألوان الزاهية، وغيرها من الأشياء التي يكتسبها الأجانب في باريس، والتي دائماً ما تجذب النساء بحداثتها اللافتة للنظر. وكان هناك تأثير لمرحه الخارجي في أسلوبه وسلوكياته.

وهذا الأسلوب، كما تعلم، من التحدث عن كل شيء في التلميحات والجُمل غير المكتملة، كما لو كنتَ تعرف كل شيء، وتذكرتها، ويمكن أن تكملها بنفسك. لقد كانت شخصيته بالإضافة إلى موسيقاه هما ما تَسَبّبا في كل ما حدث بعد ذلك. وأنت تعرف أنه في المحاكمة كانت القضية قد وضِعَتْ كما لو كانت برمتها ناتجة عن الغيرة. ولا شيء من هذا القبيل؛ وهذا يعني، أنا لا أقصد أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل، فلقد حدث وكان، ومع ذلك، فهو أيضاً لم يكن!. ففي المحاكمة، كان قد تقرر أنني كنتُ زوجًا مظلوماً ولستُ مُذنباً، وأنني قد قتلتُها بينما كنتُ أدافع عن شرفي المُنتَهَك، (وتلك هي العبارة التي يستخدمونها، كما تعلم). وكان هذا هو سبب تبرئتي. وحاولت أن أشرح الأمور في المحاكمة، لكنهم اعتقدوا أنني كنتُ أحاول إعادة ترميم شرف زوجتي. ما كان من علاقات بين زوجتي وبين ذلك الموسيقار ربما لم يكن لها أي معنى بالنسبة لي، أو بالنسبة لها أيضاً. إن ما له معنى هو ما أخبرتك عنه - حقارتي.

إن كل شيء كان نتيجة للهاوية الفظيعة بيننا، والتي أخبرتك بها - هذا التوتر المروع من الكراهية المتبادلة الذي جعل الذريعة الأولى كافية لإحداث الأزمة، فالخلافات بيننا كانت قد أصبحت مخيفة لبعض الوقت، وكانت الأكثر إثارة للفزع على الإطلاق، لأنها تعاقبت مع وجود شهوة حيوانية شديدة مثلها، وإذا لم يظهر حينها، فقد يكون هناك شخص آخر. وإذا لم تكن المناسبة تعود إلى الغيرة، لكان الأمر قد حدث لسبب آخر خلاف الغيرة، إنني أؤكّد على أن جميع الأزواج الذين يعيشون بالظروف التي مرت بي، إما أن يعيشوا فاسقين، أو

منعزلين، أو يقتلون أنفسهم، أو حتى يقتلون زوجاتهم، كما فعلتُ أنا، إذا كان هناك أي شخص لم يفعل ذلك، فهو استثناء نادر. وقبل أن أنهي الأمر كما فعلتُ، كنتُ في فترات متقطعة على حافة الانتحار، كما حاولتْ هي أيضاً مراراً وتكراراً تسميم نفسها ".

***

الفصل العشرون

- حسناً، هكذا كانت الأمور تسير قبل وقت قصير من حدوثها.

كنا نعيش في حالة هدنة ولم يكن لدينا سبب لانتهاكها أو خرقها، ثم صرنا نتحدث عن كلب قلتُ لها أنه حصل على ميدالية في معرض، ولكنها أبدت رأياً، فقالت:"ليست ميدالية، لكنها إشارة إلى تكريمه"، ويستتبع ذلك جدل ونزاع، فننتقل من موضوع إلى آخر، نوبّخ بعضنا بعضاً، أوه، ليس هذا بالشيء الجديد، لقد كان مثل هذا يحدث دائمًا: "لقد قلتَ كذا وكذا..."، "لا، إنني لم أقل شيئاً كهذا"، "إذن فأنا أقول الأكاذيب!..."

إنك تشعر أنه في أي لحظة سوف ينشأ ذلك الشجار المروّع، الذي يجعلك ترغب في أن تقتل نفسك أو تقتلها. أنت تعرف أنه سوف ينشأ على الفور، وتخشاه مثل خشيتك من النار، ولذلك ترغب في كبح جماح نفسك، لكن كيانك بكامله يستولي عليه الغضب الشديد، وحيث أنها هي أيضاً في نفس الحالة، إن لم تكن حالتها هي أسوأ، فإنها تسيء تفسير وفهم كل كلمة أقولها عامدة متعمدة، وتعطيها معنًى خاطئاً، إنها سامّة، كل كلمة من كلماتها، حيث تعرف وحدها وتدرك بنفسها، أنني أكثر حساسية، إنها تطعن، فيزداد الأمر سوءًا فوق سوء، وأصرخ: "اخرسي!"، أو شيئاً من هذا القبيل. فتهرع مُندفعة إلى خارج الغرفة

وتدخل غرفة نوم الأطفال، وأحاول أن أعيدها لكي أكمل ما كنتُ أقوله، لإثبات وجهة نظري، وأنا أمسِكُ بها من ذراعها. فتتظاهر بأنني قد آذيتها وآلمتُ ذراعها، وتبدأ في الصراخ: "يا أطفال، إن أباكم يضربني!" فأصيحُ بها: "لا تكذبي!"، إلا أنها لا تتوقف عن الصراخ قائلة:"ولكنها ليست المرة الأولى!"، أو تقول شيئاً من هذا القبيل. فيهرع الأطفال إليها خائفين، فتضطر إلى تهدئتهم، أقول لها:"ألا تخجلين!"، فترد بعصبية:"إن كل شيء هو مُخجل في عينيك، وسوف تقتل أي شخص، ثم تدّعي أنه كان مخزياً. ولقد فهمتك الآن، هذا فقط ما تريد!"، وأعود إلى الصياح في وجهها:"أوه، أتمنى لو كنتِ ميتة كالكلب!" إنني أتذكر كيف أرعبتني تلك الكلمات المروعة. لم أظن أبداً أنني أستطيعُ أن انطق مثل هذه الكلمات الرهيبة والفظّة، وأنا مندهش من أنهم هربوا مني.

أصرخ فيهم وأندفع إلى مكتبي فأجلس وأدخن. وأسمعها تخرج إلى القاعة تستعد للرحيل. فأسألها:"إلى أين أنتِ ذاهبة؟"، إلا أنها لا ترد. وأقول في نفسي:"حسناً، فليأخذها الشيطان"، وأعود إلى مكتبي، وأستلقي وأدخن.

ألف خطة مختلفة أعدّها لكيفية الإنتقام منها لنفسي، والتخلص منها، وكيفية تحسين الأمور فأستمر، كما لو أن شيئاً لم يحدث، أو يدخل في رأسي. أفكر في كل هذا، وأواصل التدخين، فأدخن وأدخن. وأفكر في الهروب بعيداً عنها، وإخفاء نفسي، والذهاب إلى أمريكا. وكل ما أستطيعُ الحصول عليه هو الحلم بكيف سوف أستطيعُ التخلص منها، وكيف سيكون ذلك رائعاً، وكيف سأرتبط بامرأة

أخرى – مختلفة تماماً. سوف أتخلص منها إما عن طريق موتها، أو بالطلاق، وأخطط لكيفية القيام بذلك. ثم ألاحظ أنني أشعر بالحيرة وبأنني مُشَوّش، وبعدم قدرتي على التفكير في ما هو ضروري، وأن أمنع نفسي من إدراك أن أفكاري ليست في اتجاه الهدف، استمر في التدخين. وتستمر الحياة في المنزل. تأتي المربية وتسألني:" أين سيدتي؟ ومتى ستعود؟"، يسأل الخادم عما إذا كان يُمكنه تقديم الشاي، فأذهب إلى غرفة الطعام، مع الأطفال، خصوصاً ليزا، التي تفهم بالفعل، وتحدِّق في وجهي وهي تستجوبني باستهجان، ونشرب الشاي في صمت، ولا تزال في الخارج، لم تعُد إلى المنزل، وينقضي المساء، وهي لا زالت لم تعُد، وتتناوبني اثنان من المشاعر المختلفة، الغضب، لأنها تعذّبني أنا وجميع الأطفال بغيابها الذي سوف ينتهي بعودتها، ونخشى أنها لن تعود ولكنها سوف تفعل شيئًا ما لتؤذي نفسها. عليّ أن أذهب لكي أحْضِرها، ولكن أين عليّ أن أبحث عنها؟ في منزل أختها؟ ولكن سوف يكون من الغباء جداً أن أذهب وأسأل عنها. وهذا هو الأفضل: فإذا كانت عازمة على تعذيب أو إيلام شخص ما، فلتعذب نفسها. إلى جانب ذلك، هذا هو ما تنتظره، وفي المرة القادمة سوف يكون الأمر أسوأ. ولكن لنفترض أنها ليست مع أختها ولكنها تفعل شيئًا لنفسها، أو أنها قد فعلت ذلك بالفعل! لقد تعَدّت الساعة العاشرة، ثم تَعَدّت الحادية عشرة! أنا لا أذهب إلى غرفة النوم – فسوف يكون من الغباء أن استلقي هناك بمفردي في انتظارها – ولكنني لن استلقي هنا أيضاً. أود أن أشغل ذهني، وأن أكتب رسالة، أو أقرأ، ولكن لا يمكنني أن أفعل أي شيء. أجلس وحدي

في مكتبي، مُعَذّبْ، غاضب، وأستمع إلى دقات الساعة، إنها تُعلن الساعة الثالثة، الساعة الرابعة، ولا زالت لم تعُد، ومع اقتراب الصباح كنتُ صريع النوم. وعندما استيقظتُ، وجدتُ أنها لم تأتِ بعد! كل شيء في المنزل يستمر بالطريقة المعتادة، ولكن الجميع مرتبكون متحيرون، ينظرون إليّ مُستفسرين، يؤنبونني، مُعتبرين أنني السبب في ذلك كله. وفي داخلي لا يزال الصراع نفسه مستمراً: الغضب من أنها تعذّبني، والقلق عليها، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، تصل أختها كمبعوثة لها. ويبدأ الحديث المعتاد:

- إنها في حالة رهيبة. ماذا يعني كل ذلك؟
- بعد كل شيء، لم يحدث شيء.

أتكلم عن شخصيتها المستحيلة وأقول إنني لم أفعل شيئًا. وتقول شقيقتها:

- لكن، أنت تعلم أنه لا يمكن للأمور أن تستمر على هذا المنوال.
- إنها هي من يفعل كل ذلك، وليس أنا، ولن أتخذ الخطوة الأولى. فإذا كان ذلك يعني الانفصال، فليكن الانفصال.

وصمتَ قليلاً، وكأنه يلتقط أنفاسه، ثم راح يُكمل حديثه، فقال:

- وذهبتْ أختي في القانون، بدون أن تحقق أي نتيجة.

لقد قلتُ بجرأة أنني لن أتخذ الخطوة الأولى، ولكن بعد رحيلها، عندما خرجتُ من مكتبي ورأيتُ الأطفال بائسين، مذعورين، وكنتُ على استعداد أن أتخذ الخطوة الأولى، وكان يجب أن أكون سعيداً بأن أفعل ذلك، لكنني لا أعرف كيف، ومرة أخرى، أقوم بخطوات ثابتة، لأعلى ولأسفل، وأدخن، وفي الغداء

أشرب الفودكا والنبيذ، وأحقق ما أرغب فيه دون وعي – لم أعد أرى الغباء والإذلال من موقفي. وفي حوالي الساعة الثالثة عادتْ، عندما تقابلني لا تتحدث. إنني أتخيل أنها قد استسلمتْ، وبدأتْ تقول إنني قد تم استفزازي بسبب توبيخها لي. ولكنها، وبنفس التعبير العابس على وجهها المنزعج بشكل رهيب، تقول إنها لم تأتِ من أجل النقاش، ولكن لكي تأخذ الأطفال، لأننا لا يُمكننا العيش معاً. أبدأ في إخبارها أن الخطأ لم يكن بسببي، وأنها استفزتني أكثر مما أحتمل. إنها تنظر إليّ في قسوة ورصانة مهيبة وتقول:

- لا تقل أكثر من ذلك، سوف تأسف وتندم على ما فعلتْ.

ولسبب لا أعرفه، توقف عن الحديث، وراح ينظر إلى وجهي، وكأنه يسألني إذا كنتُ قد مللتُ حديثه، فابتسمتُ له قائلاً:

- وهل ندِمتَ على ما فعلتْ؟

- لقد أخبرتها أنني لا أستطيعُ أن أتحمّل هكذا مسرحية هزلية، فتنخرط في البكاء لأسباب لا أفهمها، وتندفع إلى غرفتها. والمفتاح يُطقطق في الباب بعد دخولها، لقد أغلقت الباب على نفسها. أطرق الباب وأحاول أن أفتحه، لكنني لا أتلقّى منها أية إجابة، وهو ما يجعلني أذهبُ غاضباً، وبعد مرور نصف ساعة، تندفع "ليزا" نحوي وهي تبكي. فأسألها:

- ما الأمر؟ هل حدث أي شيء؟

- لا يمكننا سماع ماما.

أُهَدّيء من روعها، أصحبها معي تجاه غرفة الأم. أحاول أنا أن أسحب الأبواب المزدوجة بكل قوتي في محاولة لفتحها، لم يكن لسان القفل مؤمناً بقوة، ونصفا الباب كلاهما مفتوحان. اقترب من السرير، الذي كانت تستلقي عليه على نحو أخرق، في تنّورتها الداخلية، والحذاء المرتفع، وهناك زجاجة فارغة من الأفيون على الطاولة، كانت قد أحضرتها لنفسها، تنهمر دموعها، هل أحاول المصالحة وتسوية الخلافات، لا، فليس هناك فرصة للمصالحة: لأنه في قلب كل منّا لا يزال العداء القديم، مع الغضب الإضافي الناتج عن ألم هذا الشجار الذي يعزوه كلّ منّا إلى الآخر، ولكن يجب على المرء بطبيعة الحال أن ينهي الأمر كله بطريقة ما، ومن ثم تستمر الحياة في السير بالطريقة القديمة، وهكذا فإن نفس النوع من الشجار، وحتى الأكثر سوءًا، وقعتْ وبشكل مستمر: مرة في الأسبوع، مرة في الشهر، أو في كل يوم، في بعض الأوقات، وكان هو الأمر نفسه دائمًا، وذات مرة استخرجتُ فعلاً لنفسي جواز سفر، للسفر إلى الخارج، واستمر الشجار هذه المرة لمدة يومين، ولكن كان هناك مرة أخرى نقاش جزئي، مصالحة جزئية، إلا أنني لم أحضرها.

***

الفصل الحادي والعشرون

- وهكذا كانت علاقاتنا عندما ظهر ذلك الرجل. لقد وصل إلى موسكو – إن اسمه هو "تروخشفسكي" – وجاء إلى منزلي. وكان ذلك في الصباح.

لقد استقبلته. فقد كنا يوماً ما، في السابق، رفقاء نفس الفصل المدرسي، وحاول الحفاظ على لهجة مألوفة باستخدام تعبيرات غير مُلزمة، لكنني بالتأكيد اعتمدت النغمة التقليدية المألوفة، وقد خضع لها في الحال، وفي الحقيقة أنه لم يعجبني من النظرة الأولى. لكن ما يثير الفضول أن قوة غريبة ومصيرية دفعتني إلى عدم صدّه، وعدم إبقائه بعيداً عنا، بل على العكس من ذلك، دفعتني إلى دعوته إلى البيت. بعد كل شيء، ماذا كان يمكن أن يكون أبسط من التحدث معه ببرود، ومن ثم أقول له وداعاً، دون أن أقدّمه إلى زوجتي؟، لكن لا، كما لو كان عن قصد، بدأتُ أتحدث عن عزفه، وقلتُ إنني قد أُخْبِرتُ أنه كان قد تخلّى عن الكمان. فأجاب أنه، وعلى العكس من ذلك، أنه يعزف الآن أكثر من أي وقت مضى. وأشار إلى حقيقة أنه كان هناك وقت عزفتُ فيه بنفسي. قلت أنني قد تخلّيتُ عنه ولكن زوجتي عزفت بشكل جيد. إنه لأمر مدهش أنه منذ اليوم الأول، بل من الساعة الأولى من لقائي به، كانت علاقاتي به مثلما كانت يجب أن تكون فقط بعد كل ما حدث لاحقاً. كان هناك شيء ما متوتر فيهم: لقد لاحظتُ كل كلمة، وكل تعبير كان هو أو كنتُ أنا استخدمه، وأعطيتهم الأهمية، عَرّفته

بزوجتي وقَدّمته إليها، فتحولت المحادثة على الفور إلى الموسيقى، وعرض أن يكون تحت أمرها من خلال العزف معها. وكانت زوجتي، كما اعتادت مؤخراً، أنيقة جداً وجذابة وجمالها مُحَيِّر، ولقد كان من الواضح أنه أعجبها من أول نظرة، بالإضافة إلى أنها كانت سعيدة لأنها وجدت من سوف يرافقها للعزف على آلة الكمان التي كانت مولعة بها لدرجة أنها اعتادت أن تناقش عازف كمان من المسرح لهذا الغرض، وكانت سعادتها تنعكس على وجهها. ولكنها تداركتْ الأمرَ عندما نظرتْ إلى وجهي وفهِمتْ حقيقة مشاعري، فسيطرتْ على تعبيراتْ وجهها لكي تُخفي سعادتها التي بدتْ واضحة، وبدأتْ لعبة الخداع المُتبادَل، وابتسمتُ أنا بشكل مُبهِج لكي أبدو كما لو أنني قد أحببتُ ذلك، وهو ينظر إلى زوجتي تماماً كما ينظر كل الرجال السفلة عديمي الأخلاق إلى النساء الجميلات، مُتظاهراً أنه كان مهتمًا فقط بموضوع المحادثة - التي لم تعُدْ تهمه على الإطلاق، بينما حاولتْ هي أن تبدو غير مبالية أو مُكترسة، على الرغم من إبتسامتي الزائفة بسبب الغيرة، التي كانت مألوفة لها، وحملقته الشهوانية، التي من الواضح أنها كانت تثيرها. ولقد رأيتُ هذا من أول لقاء بينهما، حيث كانت عيونها مشرقة بشكل خاص، وربما كان إحساسي هذا نتيجة لغيرتي، ولقد بدا الأمر كما لو أن تيارًا كهربائيًا قد نشأ بينهما، ينفخ فيهما الحياة، ويثيرهما كما لو كانت تعبيراتهما، ونظراتهما، وابتساماتهما، متطابقة، متماثلة. لقد اِحمرّتْ هي خجلاً واحمرّ. ابتسمتْ هي وابتسم. تحدثنا عن الموسيقى، باريس، وجميع أنواع التفاهات.

ثم نهض وهمّ بالذهاب، ووقف مبتسماً، ممسكاً بقبّعته على فخذه المرتعش، وهو ينظر إليها الآن، ثم يتجه بعينيه إليّ، كأنه يتوقع ما يجب علينا فعله. إنني أتذكر تلك اللحظة فقط لأنه لم يكن عليّ أن أدعوه إلى منزلي في تلك اللحظة، وحينئذ لم يكن شيئاً من كل هذا ليحدث. لكنني نظرتُ إليه نظرة سريعة، ونظرتُ إليها أيضاً، وقلتُ في صمت لنفسي: "لا تفترضا أنني غيور"، "أو أنني أخشى منكما"، ثم أضفت مخاطبًا له عقليًا، ودعوته إلى الحضور ذات مساء على أن يُحضر الكمان لكي يعزف عليه مع زوجتي. فنظرتْ زوجتي إليّ مندهشه، وتوردتْ وجنتيها بعد أن شاع الدم في وجهها، ، وكما لو كانت خائفة مذعورة من شيء ما، بدأت في الضعف والذبول تدريجياً، قائلة أنها لم تعزف بشكل جيد بما فيه الكفاية. وقد أزعجني هذا الإنكار أكثر، وأصررتُ أكثر على مجيئه.

إنني أتذكر ذلك الشعور الغريب الذي نظرتُ به إلى مؤخرة رأسه، حيث انشق الشعر الأسود في الوسط الذي يتناقض مع القفا أو مؤخرة عنقه البيضاء، عندما خرج بمشيته الغريبة غير المُحتشمة، والمُثيرة للعواطف، يقفز ويثب، موحياً بنوع من الطيور. لم استطع أن أخفي من نفسي أن وجود ذلك الرجل قد عذبني.

إن الأمر يعتمد عليّ، لقد فكّرتُ مليّاً، في أن أتصرّف كما لو كنتُ لا أرى شيئاً آخر منه. لكن ذلك سوف يكون بمثابة الإعتراف بأني أخاف منه. لا، أنا لستُ خائفاً منه، بل سيكون مُهيناً للغاية، قلت لنفسي.

وهناك في غرفة الجلوس، كنتُ أعلم أن زوجتي سمعتني، أصرّيت أنه ينبغي عليه أن يأتي ذلك المساء مع كمانه. وقد وعدني أن يفعل ذلك، وغادر. في المساء

أحضر كمانه وعزفا.

ولكن الأمر استغرق وقتاً طويلاً لترتيب الأمور - فلم يكن لديهما الموسيقى التي يرغبان في عزفها، ولم تستطع زوجتي أن تعزف ما لديها من موسيقى بدون استعدادات. وكنتُ أنا مولعاً جداً بالموسيقى فتعاطفتُ مع عزفهما، فقد قامت زوجتي بترتيب حامل النوتة الموسيقية من أجله، وتصفحا الصفحات، ثم عزفا قليلاً من الألحان، وموسيقى بعض الأغاني بدون كلمات، وسوناتا صغيرة "لحن صغير" من أعمال الموسيقار الشهير موتسارت، وفي الحقيقة أنهما كانا يعزفان بشكل رائع، وكان له نغمة رائعة بشكل استثنائي. بالإضافة أنه كان له مذاق راقي ورقيق لاينسجم ولا يتوافق على الإطلاق مع شخصيته. ولقد كان بالطبع يعزف أكثر من زوجتي، وساعدها، بينما كان في نفس الوقت يمتدح عزفها ويُثني عليها بأدب. لقد لقد تصرف بشكل جيد جداً.

وبدت زوجتي مهتمة فقط بالموسيقى، وكانت بسيطة جداً وطبيعية. ولكن على الرغم من أنني تظاهرتُ بأنني مهتم بالموسيقى، إلا أن الغيرة كانت تعذبني طوال المساء. فمنذ اللحظة الأولى التي قابلتْ فيها عيناه عيني زوجتي، رأيتُ أن حيواناً يقبع بالداخل في كل منها، بغض النظر عن جميع ظروف وضعهما وظروف مجتمعها، وسألتُ نفسي:

"هل أنا على حق؟"، ولم تكن الإجابة صعبة، فأجبتُ:"أوه، نعم، بالتأكيد".

ورأيتُ أنه لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يجد زوجتي، سيدة من موسكو، جذابة للغاية، وأنه كان سعيدًا للغاية. لأنه لم يكن لديه أي شك بأنها كانت لديها الرغبة،

وكانت النقطة الأساسية هي ما إذا كان الزوج الذي لا يُطاق يمكنه أن يُعيقها. لو كنتُ نقيّاً لم أكن لأفهم ذلك، ولكنني، مثل غالبية الرجال، كنتُ أنا نفسي أتعلّق بامرأة بهذه الطريقة قبل أن أتزوج، ولذلك أستطيعُ أن أقرأ عقله وكأنه مخطوطة مكتوبة باليد. كنتُ مُعَذّباً بشكل خاص، لأنني رأيتُ بلا شك أنه ليس لديها أي شعور آخر تجاهي أكثر من غضب مستمر لا يتوقف إلا في بعض الأحيان عن طريق الشهوة المعتادة. ولكن هذا الرجل - من خلال رقته الخارجية، وحداثته، وأنه ما زال أكثر رقة بسبب موهبته الرائعة في الموسيقى والتي لا تقبل مجالاً للشك، ومن خلال الألفة التي تولد من العزف معاً، ومن تأثير الموسيقى، وخاصة الكمان، والتمارين على التأثر بالطبيعة الحساسة - كان من المؤكد، ليس فقط لإسعاده، ولكن بالتأكيد، وبدون أدنى تردّد لقهرها، وسحقها، وتكبيلها، وجدْلها حول إصبعه الصغير ومن ثم يفعل بها ما يحلو له. لم أتمكن من رؤية هذا وعانيت بشدة. ولكن من أجل كل ذلك، أو ربما بسبب ذلك، أجبرتني قوة ما ضد إرادتي، في أن أكون ليس فقط مهذب، بل ودود معه. سواء فعلتُ ذلك من أجل زوجتي أو من أجله، لكي أثبت أنني لم أكن خائفاً منه، أو ما إذا كنتُ قد فعلتُ ذلك لكي أخدع نفسي - لا أعرف، لكنني أعرف أنه من البداية لم استطع أن أتصرف بشكل طبيعي معه.

لكي لا استسلم لرغبتي في قتله هناك، وحينئذ، كان عليّ أن أجعله يفعل الكثير، لقد أعطيته خمور باهظة الثمن في العشاء، وذهبتُ إلى أقصى حد من النشوة بعزفه، وتحدثتُ معه بابتسامة ودّية للغاية، ودعوته لتناول الطعام والعزف مع

زوجتي مرة أخرى يوم الأحد التالي.

أخبرته أنني سوف أطلب من بعض الأصدقاء الذين كانوا مغرمين بالموسيقى أن يسمعوه. وهكذا انتهى الأمر. وبتأثّر شديد، غيّر "بوزدنيشيف" موقعه وأصدر صوته الغريب، قبل أن يتابع حكايته مع محاولات واضحة أن يحافظ على هدوئه، قال:

- وكان غريباً، كيف كان وجود ذلك الرجل يؤثّر عليّ، عُدتُ من المعرض إلى المنزل بعد ذلك بيوم أو يومين، ودخلتُ غرفة الانتظار، وشعرتُ فجأة بشيء ثقيل، كما لو أن حجرًا قد سقط على قلبي، ولم أكن لأستطيعُ أن أفهم سبب ذلك الشعور. ولقد كان ذلك أثناء مروري من خلال غرفة الانتظار، حيثُ لاحظتُ شيئًا ذكّرني به. لقد أدركتُ فقط في غرفة مكتبي لماذا كان ذلك الشعور، فعُدتُ إلى غرفة الانتظار للتأكّد من ذلك. نعم، لقد اكتشفتُ أنني لم أكُنْ مُخطِئاً، فقد كان هناك معطفه. معطف أنيق، كما تعلم. (على الرغم من أنني لم أتعرّف عليه، إلا أنني لاحظتُ كل شيء له علاقة به باهتمام غير عادي). فأبدأ في البحث: أنا متأكد بما يكفي من أنه هناك. انتقل إلى غرفة الرقص، وليس من خلال غرفة الرسم ولكن من خلال غرفة الدراسة.

هذه هي ابنتي ليزا تجلس هناك، إنها تقرأ كتابًا، بينما تجلس المربية مع الصبي الأصغر إلى الطاولة، إنها تجعل من أحد غلافَي الكتاب دائرياً إلى حد ما. وكان باب غرفة الرقص مُغلَقاً، ولكنني أسمع صوت الأوركسترا الإيقاعي، كما أسمع صوته، وأيضاً صوتها، أنا أستمع، ولكن لا يمكنني أن أتبيّن أيّ شيء.

من الواضح أن صوت البيانو كان المقصود به حجب صوتيهما، وقبلاتهما... ربما. يا إلهي! ماذا أثارني وأيقظ شيئاً ما بداخلي! حتى أن أفكر في الوحش الذي كان يعيش حينها في داخلي ويملأني بالرعب!، وانقبض قلبي فجأة، وتوقف، ومن ثم بدأ في أن يخفق بقوة مثل مطرقة، وكان هذا هو شعوري الرئيسي، المعتاد، كلما كنتُ غاضباً، وكان هذا واحداً من وسائل الشفقة على النفس. في وجود الأطفال! وفي وجود المربية، فكّرتُ في نفسي: من المحتمل أنني بدوتُ مُخيفاً، لأن "ليزا" حملقت في وجهي بنظرات غريبة. "ماذا عليّ أن أفعل؟"، سألتُ نفسي. "هل أدخل؟ لا أستطيعُ، السماء فقط هي من تعرف ما يجب عليّ فعله. ولكنني أيضاً لا أستطيعُ أن أهرب بعيداً. ونظرت المربية إليّ كما لو أنها فهمتْ موقفي. لكن من المستحيل ألا أدخل، قلتُ لنفسي، وسرعان ما فتحتُ الباب. كان يجلس أمام البيانو وهو يعزف تلك المعزوفة بأصابعه البيضاء الكبيرة المقلوبة، وكانت تقف في مُنحنى البيانو، وهي تنثني فوق بعض النوتات الموسيقية المفتوحة، وكانت أول من يراني أو يسمعني، وحملقت في وجهي، وسواء كانت خائفة وتظاهرت بغير ذلك، أو أنها كانت حقاً غير خائفة، على أي حال، فهي لم تبدأ الحديث، كما أنها لم تتحرك، ولكنها فقط احمرّت خجلاً، ولم يكن هذا في الحال، عندما قالت:"كم أنا سعيدة بمجيئك، فلم نقرر بعد ماذا نعزف يوم الأحد، "، وقد لاحظتُ أنها قالت ذلك بلهجة لم تكن لتستخدمها لو كنا بمفردنا، هذا، واستعمالها لكلمة "نحن" في إشارة إلى نفسها وإليه، ملأتني بالسخط. رحبتُ به بصمت.

وضغط على يدي، وفي الحال، مع ابتسامة، اعتقدت أنها تهكّمية بشكل واضح، بدأ يشرح أنه جلب بعض الموسيقى للتدريب على أدائها من أجل يوم الأحد، ولكنهما اختلفا حول ما سوف يعزفان: قطعة كلاسيكية ولكنها أصعب، وهي باسم "سوناتا بيتهوفن" للكمان، أو بضع قطع صغيرة. لقد كانت جميعها من البساطة والطبيعية أنه لم يكن هناك أيّ منها يُمكِن للمرء أن يعترض عليها، لكنني كنتُ على يقين من أن كل هذا غير صحيح، وأنهما قد اتفقا على خداعي.

إن واحدة من أكثر الظروف المؤلمة في الحياة بالنسبة لرجل غيور(وكل رجل هو غيور في عالمنا)، هي بعض التقاليد المجتمعية التي تسمح لرجل وامرأة بأعظم وأخطر اقتراب عن كثب، وسوف تُصبح أضحوكة وموضع سخرية للآخرين، إذا حاولتَ أن تمنع هذا الاقتراب في الحفلات، أو اقتراب الأطباء من مرضاهم من النساء، أو من الأشخاص الذين يشتغلون بالفن، والنحت، وبصفة خاصة الموسيقى. حيثُ يشغل الزوجان أنبل الفنون والموسيقى. وهذا يتطلب قربًا إلى حد معين، ولا يوجد شيء في ذلك يستحق الشجب أو اللوم، ولا يستطيع سوى زوج غيور غبي أن يرى في ذلك أي شيء غير مرغوب فيه. ومع ذلك، يعلم الجميع أنه من خلال انحرافات تلك الممارسات، وخاصة بالنسبة للموسيقى، يحدث الجزء الأكبر من الزنا والخيانة الزوجية في مجتمعنا. ومن الواضح أنني أربكتهما بسبب الارتباك الذي أفشيتُ سرّه: لفترة طويلة لم أتمكن من التحدث. كنتُ مثل قنينة مقلوبة رأساً على عقب لا يتدفق الماء منها لأنها ممتلأة للغاية. أردتُ أن أسيء معاملته وأن أخرجه من منزلي، لكنني شعرتُ

مرة أخرى أنه يجب عليّ أن أتعامل معه بكياسة وبشكل ودّي. وقد فعلتُ ذلك. لقد تصرفتُ كما لو أنني وافقتُ على كل شيء، ومرة أخرى بسبب الشعور الغريب الذي جعلني أتصرف معه على أساس أنه كلما كنتُ ودوداً معه أكثر، كلما كان وجوده يُحزنني أكثر، أخبرته إنني أثق في ذوقه ونصحتها بأن تفعل نفس الشيء حتى تثق هي أيضاً في ذوقه، ولقد بقي الوقت اللازم لكي يمحو الانطباع غير السار الذي سبّبه دخولي المفاجئ – حيثُ بدا مرعوبًا وبقى صامتًا – ثم غادر، مُتظاهرًا أنه قد تقرر الآن ماذا سوف يعزف في اليوم التالي. ومع ذلك، فقد كنتُ مقتنعاً تماماً أنه بالمقارنة مع ما كان يهمهما، أنهما لم يكونا مُباليان بمسألة ما يجب أن يعزفانه. رأيته خارج غرفة الجلوس بتأدب خاص. (كيف يُمكن للمرء أن يفعل أقل من مرافقة رجل كان قد جاء لكي يُفسِد السلام ويُدَمِّر سعادة عائلة بأكملها؟) وضغطتُ على يده البيضاء الناعمة مع إحساس خاص بالدفء.

***

الفصل الثاني والعشرون

- لم أتكلم معها طوال هذا اليوم – لم استطع. لقد أثار قربي منها في داخلي كراهية لها لدرجة أنني كنتُ خائفاً من نفسي. عند تناول العشاء في حضور الأطفال سألتني متى عليّ أن أذهب في سفر، فقد اضطررتُ للذهاب في الأسبوع التالي إلى اجتماعات الحيّ في "زيمستفو"، وكان هذا هو التاريخ الذي أخبرتها به، وحينها سألتني إذا كنتُ لا أريد أي شيء للرحلة. ولم أجبْ، ولكنني جلستُ صامتاً على الطاولة ثم ذهبتُ في صمت إلى غرفة مكتبي، في الآونة الأخيرة، لم تستطع الذهاب إلى غرفتي خاصة في ذلك الوقت من النهار. استلقيتُ في غرفة مكتبي يملأني الغضب. وفجأة سمعتُ وقع خطواتها المألوفة، ودخلتْ رأسي الفكرة الفظيعة والشريرة بأنها، مثل زوجة "يوريا"، إنما كانت ترغب في إخفاء الخطيئة التي ارتكبتها بالفعل، وكان هذا هو السبب في أن تأتي إليّ في مثل هذا الوقت غير المعتاد. "هل يمكنها أن تأتي إليّ؟" فكّرتُ في نفسي، بينما كنتُ أستمع إلى صوت خطواتها تقترب. "إذا كانت قادمة إلى هنا، فأنا على صواب"، وتَمَلّكتني كراهية صريحة لها. وجاء وقع خطواتها أقرب وأقرب. هل من الممكن ألا تمرّ إلى غرفة الرقص؟ لا، إن الباب يُصدرُ صريرًا وفي المدخل يظهر قوامها الطويل الجميل، وعلى وجهها وفي عينيها نظرة تودّد خجولة تحاول أن تخفيها، ولكنني أراها وأعرف ماذا تعني. وكِدتُ أختنق، وطالما حبستُ أنفاسي، وما

زلتُ أنظر إليها وأنا أقبض على صندوق سجائري، ومن ثم بدأتُ في التدخين. جاءت بالقرب منّي وجلستْ على الأريكة، وبينما كانت تميل نحوي، ولا زال وجهها مُبتسماً، قالت في رقة:

- الآن، كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ يأتي المرء ليجلس معك قليلاً، فإذا بك تبدأ في التدخين.

ونظر الرجل إليّ نظرة سريعة وكأنه يتأكد من أنني أتابعه باهتمام، وتابع قائلاً:

- إلا أنني ابتعدتُ عنها حتى لا ألمسها. وتابعتْ حديثها، قالت:
- أرى أنك مُستاء وغير راضٍ عن رغبتي في العزف يوم الأحد.
- أنا لستُ مستاءًا على الإطلاق.
- كما لو أنني لا أرى!
- حسناً، إنني أهنئكِ على الرؤية، ولكنني أرى فقط أنكِ تتصرفين مثل مِغناج.... فأنتِ دائماً ما تجدين المُتعة في كل أنواع الضِعّة والخساسة، أما بالنسبة لي فإن الأمر فظيع!
- أوه، حسناً، إذا كنتَ ستوبّخ مثل سائق السيارة الأجرة فسوف أذهب.
- اذهبي، ولكن عليكِ أن تتذكري أنكِ إذا لم تُقدّري شرف العائلة، فإنني لن أقدّركِ، (وليأخذكِ الشيطان)، إلا شرف العائلة!
- ولكن ما الأمر؟ إلا ماذا؟
- اذهبي بعيداً، من أجل الله! ارحلي.

وتبادل معي نظرة سريعة، قال بعدها:

- وسواء أنها تظاهرت بعدم فهم ما كان حديثي يدور حوله أو لم تفهمه حقاً، على أي حال، فقد تلقّتْ الإهانة، واشتعلتْ غضباً، إلا أنها لم تذهب، بل وقفتْ في منتصف الغرفة، وراحت تحدثني بلهجة حادة غاضبة:
- لقد أصبحتَ حقاً مستحيلاً، ولديك شخصية لا يستطع حتى ملاك أن يتحملها أو يطيقها.

وكالمعتاد، في محاولة منها لأن تجرحني بأقصى ما يكون الألم، ذكّرَتني بتصرّفي مع أختى، (في واقعة، عندما أغضبتني أختي، فقلتُ لها أشياء وقحة)، ولقد عَلِمتْ هي أنني حزنتُ كثيراً بسبب هذا الموضوع، فلدغتني تماماً في مكان هذا الجرح، وضربتْ على الوتر الحسّاس، و قالت لي بتهكّم:

- بعد ذلك، لا شيء يصدر منك سيفاجئني.

ولم أقل لها شيئاً، بل قلتُ في نفسي:"نعم! أهينيني، أذِلّيني، وافضَحيني، ثم ألقي باللوم عليّ"، وفجأة وجدتُني أستشيطُ غَضَباً، حيثُ تملّكني غضب شديد، لم يحدث لي من قبل، ولأول مرة كنتُ أتمنّى أن أضفي على هذا الغضب الشديد تعبيراً جسدياً، فقفزتُ، واتجهتُ نحوها، ولكنني فور أن قفزت، تذكرتُ أنني أصبحتُ واعياً بغضبي، وسألت نفسي:

"هل من الصواب أن تفسح المجال لهذا الشعور"، وفي الحال، أجبتُ نفسي على هذا السؤال، بأن نعم، لقد كان من الصواب أن أفعل، لأن ذلك من شأنه أن يخيفها، وبدلاً من أن أكبح غضبي، بدأتُ على الفور بإشعاله أكثر من ذلك، وكان من دواعي سروري أنه اشتعل بشدة في داخلي، فصرختُ فيها:

- اذهبي بعيداً من هنا وإلا فسوف أقتلك! وقفزتُ نحوها، وأمسكتُ بذراعها، وبوعي منّي كثّفتُ غضبي وجعلته يظهر أكثر حدّة في صوتي، بينما كنتُ أصرخ بها.وأعتقدُ أنني كنتُ مريعاً، لأنها كانت جدّ مرتعبة لدرجة أنها لم تكن لديها القوة حتى تذهب بعيداً، ولكنها قالت فقط وهي تنادي ابننا الأكبر "فازيا":
- أيها المجنون، ما الأمر؟ ماذا حدث معك؟

فصرختُ فيها بصوت أعلى من ذي قبل:

- اذهبي! لا أحد غيرك يمكنه أن يدفعني إلى الغضب. إنني لا أتحدثُ إلى نفسي!

وبعد أن سلّمْتُ مقاليد الأمور إلى غضبي، رحتُ أعربد وأستمتع به، وأردتُ أن أفعل شيئًا أكثر غرابة لإظهار الدرجة القصوى من غضبي، وشعرتُ برغبة فظيعة في أن أضربها، أو أقتلها، لكنني أدركت أن هذا لن يفيد، ومن أجل إعطاء تنفيس لغضبي، أمسكتُ مُثقَلَة الورق من فوق مكتبي، وألقيتُ بها على الأرضية بالقرب من زوجتي التي كنتُ أستهدفها تماماً، وصرختُ فيها مرة أخرى:

- اذهبي!

فغادرتْ الغرفة، ولكنها توقفتْ عند المدخل، وعلى الفور، بينما كانت لا تزال ترى ثُقّالة الورق، (ولقد ألقيتُ بالثُقّالة حتى تراها)، بدأتُ في انتزاع الأشياء من فوق المكتب، - الشمعدانات والحَبّارة – وقذفتهم على الأرض، ولا أزال أصرخ فيها:

- اذهبي! أُخرجي! أنا لا أتحدث مع نفسي!

ذهبتْ بعيداً – وتوقفتُ أنا على الفور. وبعد ساعة جاءت المُربية لتخبرني أن زوجتي كانت في حالة هستيرية. فذهبتُ إليها، كانت تجهش بالبكاء، وتضحك، ولم تستطع أن تتكلم، وكان جسدها كله يتشنج وينتفض، ولم تكن تتظاهر، بل كانت مريضة حقاً. مع اقتراب الصباح صارت هادئة، واتفقنا على السلام تحت تأثير الشعور الذي ندعوه الحب.

وفي الصباح، عندما اعترفتُ لها، بعد مصالحتنا، أنني كنتُ أغار من "تروكاشفيسكي"، لم تعُدْ مُشوشّة على الإطلاق، كما أن ضحكها أصبح طبيعياً، وقالت أنه يبدو لها أنه من الغريب جداً حتى مجرد احتمال الافتتان بمثل هذا الرجل:

- وهل يُمكن لسيدة مُحتشمة أن تشعر أي شعور آخر لمثل هذا الرجل غير الاستمتاع بموسيقاه؟ لماذا؟، وعلى أيّ حال، إذا كنتَ تُحبّ، فإنني مُستعدّة ألا أراه أبداً مرة أخرى... ولا حتى يوم الأحد، وعلى الرغم من أنه قد تم دعوة الجميع. أُكتب له وأخبره بأنني مريضة، وفي هذا نهاية لهذا الموضوع! ولكنه فقط من غير اللائق أن أي شخص، وخاصة هو نفسه، أن يتخيّل أنه رجل خطير. وأنا فخورة جداً بأن أسمح لأيّ أحد أن يفكر في ذلك عني!

ونظر إليّ، كان في عينيه بريق يشي بالثقة فيما يقول، وهو ما أكّده قائلاً:

- هل تعلم، إنها لم تكن تكذب، فلقد آمنتْ بما كانت تقوله، وأعربتْ عن أملها من خلال هذه الكلمات أن تثير في نفسها ازدرائها له، وبالتالي، تدافع عن نفسها وتحمي نفسها منه، ولكنها لم تنجح في القيام بذلك.

فقد كان كل شيء ضدها، وبصفة خاصة تلك الموسيقى اللعينة. ولذا انتهى كل شيء، وفي يوم الأحد تجمّع الضيوف وعزفا معاً مرة أخرى.

***

الفصل الثالث والعشرون

- أعتقد أنه من غير الضروري أن أقول إنني كنتُ مغرورًا جداً: فإذا لم يكن المرء مغروراً، فلا يوجد شيء نعيش من أجله، في أسلوب حياتنا المعتاد. ولذلك ففي يوم الأحد ذاك، قمتُ بترتيب العشاء والأمسية الموسيقية بعناية كبيرة. فقد اشتريتُ المؤن بنفسي، ودعوت الضيوف. وتجمّع نحو ستة من الزوار. أما هو فقد جاء في ثوب المساء المُرصّع بالماس الذي أظهر ذوقاً سيئاً. وتصرّف بطريقة مُتحررة وسهلة، وأجاب على كل شيء على نحو سريع، مع ابتسامة تُعَبّر عن الاتفاق والتفهّم، وكما تعلم، فإنه بهذا التعبير المُتَمَيّز الذي يبدو أنه يقول لك أن كل ما قد تفعله أو تقوله هو تماماً ما كان يتوقعه. كل شيء لم يكن له ذوق جيد بخصوصه، لاحظته بسرور خاص، لأنه كان من المفترض أن يكون له تأثير على تهدئتي وإظهار أنه كان أدنى رُتبة من زوجتي وغير جدير بها، حتى الآن، كما قالت، ولم تستطع أن تنخفض بمستواها أوتتدنّى إلى مستواه، كما لم أسمح لنفسي الآن بالغيرة. في المقام الأول، كنتُ أشعر بالقلق من هذا العذاب وأحتاج إلى الراحة، وثانياً أردتُ أن أصدق تأكيدات زوجتي وفعلاً صَدّقتُها.

ولكن على الرغم من أنني لم أكن غيورًا، إلا أنني لم أكن طبيعياً مع أي منهما، وعلى العشاء وخلال النصف الأول من المساء قبل أن تبدأ الموسيقى، ما زلتُ أتابع تحركاتهما ونظراتهما أحدهما إلى الآخر."كان العشاء عادياً مثلما يكون أيّ

عشاء، مُملاً ومليء بالمظاهر الخادعة والإدّعاءات، وبدأتْ الموسيقى في وقت مبكر جداً. أوه، كيف أتذكر كل التفاصيل التي وقعتْ في ذلك المساء! فإنني أتذكر كيف جلب معه كمانه، ثم فتح حقيبة الكمان، ونزع عنه الغطاء الذي كانت إحدى السيدات قد طَرّزته من أجله، وطرح الكمان، وبدأ يضبط نغماته، وأذكر أيضاً كيف جلستْ زوجتي على البيانو مُدّعيَة عدم الاكتراث، حيث رأيتُ بنفسي أنها كانت تحاول إخفاء تردّد وخوف كبير - بشكل رئيسي بالنسبة لقدراتها الخاصة، - ثم بدأتْ أول نغمة مُعتادة للعزف على البيانو المنفرد لإعداده للعزف، وإعداد طريقة العزف على الكمان، وباقي الترتيبات لعزف الموسيقى، ثم أتذكر كيف نظرا أحدهما إلى الآخر، ثم تَحَوّلا للنظر إلى الجمهور الذين كانوا يُجلسون أنفسهم، يتحدث بعضهم إلى البعض الآخر، ومن ثم بدأ العزف، لقد بدأ بأول الأوتار، وبدأت تظهر على وجهه دلائل الجِدّيَّة، والصرامة والإنسجام، وأصغى إلى الأصوات التي أنتجها بعزفه، فلمس الأوتار بأصابع حَذِره، فاستجاب له البيانو، وبدأتْ الموسيقى...

وفاجأني "بوزدنيشيف" بأن توقف عن رواية أحداث قصته، وبدأ يُحدث تلك الأصوات الغريبة عدة مرات متتالية، كان يحاول أن يتكلم، ولكنه تَنَشّق، ثم توقف قليلاً، وتابع بعدها :

- لقد عزفا "لحن كرياتزر" لبيتهوفن، أو "كرياتزر سوناتا" من تأليف بيتهوفن. هل تعرف المعزوفة الأولى؟ أنت تعرفها؟

وراح يصيح ويهتف باشمئزاز:

- أوو!، أوو!، إنه شيء فظيع، تلك السوناتا. وبالأخص ذلك الجزء الذي قاما بعزفه، والموسيقى بشكل عام هي شيء مروع! ما هو هذا الشيء؟ إنني لا أفهم ذلك. ما هي الموسيقى؟ وماذا تفعل بنا؟ ولماذا تفعل بنا ما تفعله؟، إنهم يقولون أن الموسيقى تُعلي من قيمة الروح، وهذا هراء وحماقة، نعم! إن هذا ليس صحيحاً !، نعم هي لها تأثير، ولكنه تأثير فظيع - إنني أتحدث عن نفسي - ولكن ليس من باب الإشادة. إنها ليست مسألة إشادة وتفخيم لمدى تأثير الموسيقى علينا، ولا مسألة إعتباره تأثير مُخزي ومُذِلّ، ولكنها تُحْدِث تهيُّجاً وإثارة، فكيف يمكنني أن أصوغها؟ فالموسيقى تجعلني أنسى نفسي، وأنسى موقعي الحقيقي، إنها تنقلني إلى موقع آخر ليس مكاني. وتحت تأثير الموسيقى يبدو لي أنني أشعر بما لا أشعر به فعلاً، وأنني أفهم ما لا أفهمه، وأنني أستطيعُ أن أفعل ما لا أستطيعُ القيام به. إنني أشرح ذلك من مُنطلق حقيقة أن الموسيقى تعمل مثل التثاؤب، مثل الضحك: فأنا لستُ نعساناً، ولكنني أتثاءب عندما أرى شخصًا يتثاءب. ولا يوجد شيء بالنسبة لي يجعلني أضحك، ولكنني أضحك عندما أسمع الناس يضحكون. وهكذا تفعل الموسيقى، فهي تحملني في الحال ومباشرة إلى الحالة العقلية أو الذُهنية أو حتى الروحية، التي كان عليها المؤلف الموسيقي الذي قام بتأليفها. وتندمج روحي مع روحه، وأنا نفسي انتقل معه من حالة إلى أخرى، ولكن لماذا يحدث هذا، لا أعرف.وها أنت ترى، دعنا نقول أن من قام بتأليف "كرياتزر سوناتا" — "بيتهوفن"، يعرف بالطبع، لماذا كان في هذه الحالة، وهذه الحالة هي التي جعلته يقوم بأفعال معينة، وبالتالي فقد كان لهذه الحالة معنى

خاصاً بالنسبة له، ولكن بالنسبة لي – لا شيء على الإطلاق، هذا هو السبب في أن الموسيقى تُهيّج فقط، ولا تؤدي إلى نتيجة، حسناً، عندما يتم عزف لحن عسكري فإن الجنود يقومون بالسير على نغمة الموسيقى، وبذلك تكون الموسيقى قد حققت الهدف منها، وهذا هو ما تفعله الرقصة، فالرقص والموسيقى تحققان نفس الهدف، لقد تمّ إنشاد القُدّاس، لقد تلقيت العشاء الإلهي، وهذه الموسيقى أيضًا قد توصّلت إلى نتيجة، وإلا فإن ذلك لا يؤدي إلا إلى التهيّج، وما كان يجب فعله حيال هذا التهيّج غير معروف، ولهذا السبب فإن الموسيقى تعمل أحيانًا بشكل مروع جدًا، فظيع جداً، في الصين، الموسيقى هي شأن من شؤون الدولة، وهذا هو ما يجب أن يكون. كيف يُمكن للمرء أن يسمح لأي شخص يسَرّه أن يقوم بتنويم شخصاً آخر تنويماً مغناطيسياً، أو أشخاصاً آخرين كثيرين، وأن يفعل بهم ما يحلو له؟ وخاصة أن هذا المنوم المغناطيسي هو أول رجل فاسق يجب أن يتحول؟ إنها أداة رهيبة في أيدي أي مُستخدِم محظوظ! خذ كرياتزر سوناتا، على سبيل المثال، كيف يُمكن عزف هذه المعزوفة الأولى في غرفة الجلوس، بين سيدات في فساتين مكشوفة العنق؟، لكي يسمعن هذه المعزوفة، ثم يُصَفّقن قليلاً، ثم يأكلن المثلّجات، ويتحدّثن عن آخر فضيحة؟، مثل هذه الأشياء يجب أن تُعزف فقط في مناسبات مهمة جليلة معينة، وحينها فقط عندما تكون هناك إجراءات معينة تتطلب مثل هذه الموسيقى، قم بعزفها، ثم استجب للحالة التي تنقلك إليها الموسيقى. وإلا فإن إيقاظ الطاقة والشعور غير المناسبين لكل من الزمان والمكان، والتي لن تجد لها منفذاً، ولا يمكن إلا أن تتصرف بشكل مؤذٍ.

على أي حال فإن لهذه القطعة تأثير رهيب عليّ، لقد كان الأمر يبدو وكأن هناك مشاعر جديدة تماماً، وإمكانيات جديدة، والتي حتى ذلك الحين لم أدركها قد تكَشّفت لي، وهذا هو ما عليه الأمر: وليس على الإطلاق كما اعتدتُ على التفكير والعيش، ولكن بهذه الطريقة، حيث يبدو أن شيئاً ما بداخلي يقول ذلك، أما عن ماذا كان هذا الشيء الجديد الذي تم الكشف عنه بالنسبة لي فإنني لم أستطع أن أشرحه لنفسي، لكن إدراك هذه الحالة الجديدة كان مبهجًا للغاية. إن كل هؤلاء الأشخاص أنفسهم، بمن فيهم هو وزوجتي، ظهروا في ضوء جديد. بعد تلك المقطوعة الموسيقية السريعة عزفا المقطوعات الجميلة، وتلك الشائعة والزائفة، وأيضاً المقطوعات والمُنوعات البطيئة، والنهاية الضعيفة للغاية. ثم، بناء على طلب الزائرين، عزفا "مرثية إرنست" وبضع قطع صغيرة. كانوا جميعاً جيدين، ولكنهم لم يؤثروا عليّ جزءًا واحدًا من المائة، من الانطباع الأول للمقطوعة الأولى، فقد شكّل الأثر الأول للمقطوعة الخلفية لهم جميعًا. "لقد شعرتْ بالارتياح والبهجة طوال المساء. لم أر زوجتي أبداً كما كانت في ذلك المساء. تلك العيون المشرقة، تلك التعبيرة الخطيرة والمهمة أثناء عزفها، والإبتسامة السعيدة التي تبدّد الوهن، والضعف، والحزن، بعد انتهائها من العزف. لقد رأيتُ كل ذلك، لكنني لم أنسب إليه أي معنى، إلا أنها شعرتْ بما شعرتُ أنا به، وهذا بالنسبة لها، كما هو بالنسبة لى، مشاعر جديدة، لم يسبق لي تجربتها من قبل، قد تم الكشف عنها على أنها كانت موجودة وتم استدعائها. وانتهى المساء بصورة مُرضية وغادر الزوار. مع العلم أنني كان عليّ أن أذهب بعيداً لحضور اجتماعات

مؤسسة "زيمستوف" بعد يومين في وقت لاحق، وقال"تروكاتشيفسكي" عند مغادرته أنه يأمل في تكرار مُتعة ذلك المساء عند زيارته المُقبلة إلى موسكو. من هذا خلصتُ إلى أنه لا يعتبر أنه من المُمكن أن يأتي إلى بيتي خلال غيابي، ولقد سرّني ذلك.

واتضح أنه كما لا ينبغي أن أعود قبل مغادرته المدينة، لا ينبغي لنا أن نرى بعضنا البعض مرة أخرى. لأول مرة ضغطتُ على يده بسعادة حقيقية، وشكرته على المُتعة التي قدّمها لنا. وبنفس الطريقة قام بتوديع زوجتي وداعًا أخيرًا. وقد بدا هجرهما أكثر طبيعية وسلاسة. لقد كان كل شيء رائعاً، فقد كان كلانا، زوجتي وأنا، راضيان عن حفلتنا المسائية.

***

الفصل الرابع والعشرون

- بعد يومين، غادرتُ لحضور الاجتماع، وفارقتُ زوجتي في أحسن حالات المزاج وأكثرها هدوءًا. في المقاطعة كان هناك دائماً كمّاً هائلاً من الأعمال للقيام بها وحياة خاصة جداً، عالم صغير خاص بنفسه. وقضيتُ يومين، في كل يوم عشر ساعات، في المجلس. واستلمتُ رسالة من زوجتي في اليوم الثاني وقرأتها هناك في الحال. كتبتْ عن أطفالنا، عن العم، عن المربية، عن التسوق، وبين أشياء أخرى ذكرتْها، كحدث طبيعي جداً، أن "تروكاتشيفسكي" كان قد اتصل، وأحضر بعض الموسيقى التي وعد بها، وعرض العزف مرة أخرى، ولكنها رفضتْ، ولكنني لم أكن أتذكّر أنه وعد بأيّة موسيقى، بل ظننته قد أخذ إجازة من أجل صالحه، ولذلك كنتُ مصدوماً بضراوة بهذا الخبر. لكنني كنتُ مشغولاً جداً لدرجة أنني لم أجد الوقت الكافي للتفكير في الأمر، ولم أتمكن من إعادة قراءة رسالتها إلا في المساء عندما عدتُ إلى مسكني.

وبالإضافة إلى حقيقة أن "تروكاتشيفسكي" كان قد اتصل بي في بيتي خلال غيابي، فقد بدتْ لي الرسالة بأكملها غير طبيعية. وبدأ وحش الغيرة المجنون يعوي في بيته، وأراد أن يقفز، لكنني كنت خائفاً من هذا الوحش، وسرعان ما أعدته إلى مكانه وقمتُ بتثبيته في بيته. "كم هو شعور بغيض هذه الغيرة!"،

قلتُ لنفسي. ماذا يمكن أن يكون أكثر طبيعية مما كتبته هي لي؟، ذهبتُ إلى الفراش وبدأتُ أفكر في الشؤون التي تنتظرني في اليوم التالي. خلال تلك الاجتماعات، والنوم في مكان جديد، عادة ما كنتُ أنام بشكل سيء، لكنني الآن نمتُ بسرعة كبيرة. وكما يحدث في بعض الأحيان، كما تعلم، تشعر بنوع من الصدمة الكهربائية والإستيقاظ. لذلك كنتُ استيقظ أفكر فيها، في حبي الجسدي لها، وفي "تروكاتشيفسكي"، وفي كلشيء يحدث بينهما.

إن الرعب والغضب يسحقان قلبي. لكنني بدأتُ في الاستماع إلى صوت العقل بنفسي. "ما هذا الهراء!"، قلتُ لنفسي. "لا توجد أسباب للمضي قدماً، لا يوجد شيء، ولم يكن هناك أيّ شيء. كيف يمكنني أن أهينها وأحط من قدرها ومن قدري، لكي أتخيل مثل هذه الفظائع؟

إنه مجرد شخص من عازفي الكمان المستأجرين، معروف بأنه زميل عديم القيمة، وفجأة إمرأة شريفة، الأم المحترمة في العائلة، * زوجتي أنا*....

ما أسخف هذا الأمر!"، لذلك فقد بدا لي من جهة.

"كيف يمكن أن يساعد لو كان الأمر كذلك؟" ومن الجهة الأخرى."كيف يمكن أن يساعد هذا الشيء الأبسط والأكثر منطقية على أن يحدث – وذلك من أجل الزوجة التي تزوجتها، ومن أجل الإنسانة التي كنتُ أعيش معها، ماذا أردتُ منها هي وحدها، والذي يُمكن للآخرين، بما فيهم هذا الموسيقار، أن يرغبوا فيه؟، فهو أيضاً رجل غير متزوج ويتمتع بصحة جيدة (أتذكّر كيف طحن بأسنانه غضروف ريشة اللحم المشوي بالضلع، وكيف تشبّثتْ شفتاه

الحمراوتان بشراهة بكأس النبيذ)، والذي يتغذّى بشكل جيد، ممتلئ الجسم، وليس مجرد إنسان عديم المباديء، ولكن من الواضح أنه يحولها إلى مباديء لكي يرضى بالمتع الحسية التي يقدمونها لأنفسهم، ولديهم موسيقى، التي هي أروع شهوة في الحواس، كحلقة وصل بينهما، فماذا يمكنه بعد ذلك أن يجعله يُحجم ويمتنع عن ذلك؟ هي؟ ولكن من هي؟، لقد كانت، ولا زالت، لغزاً غامضاً، إنني حتى لا أعرفها. إن ما أعرفه عنها فقط هو أنها حيوان، ولا شيء يمكنه، أو ينبغي عليه، أن يكبح جماح حيوان. "فقط في هذا الحين تذكرتُ وجهيهما في تلك الأمسية عندما، بعد كرياتزر سوناتا، عزفا بعض القطع الصغيرة المُلتهبة العاطفة، لا أتذكر من منهما عزفها، مُتحمّساً لدرجة الفُحش.

" كيف تجرأتُ أذهب بعيداً عن بيتي؟"

سألتُ نفسي، وأنا أتذكّر وجهيهما، ألم يكن كل شيء حدث بينهما واضحاً في ذلك المساء؟، ألم يكن من الواضح فعلاً في ذلك الوقت أنه لم يكن هناك حاجز بينهما فحسب، بل أن كليهما، وهي بشكل رئيسي، شعرا بقدر من الخجل بعد أن حدث ما حدث؟ إنني أتذكر إبتسامتها الحمقاء، والمُثيرة للشفقة، والمُفعَمة بالحيوية، عندما جفّفتْ العرق من وجهها المُتورّد عندما اقتربتُ من البيانو. بعد ذلك تجنّبا النظر إلى بعضهما البعض، وفقط عند تناول العشاء عندما كانت تصُبّ بعض الماء لها، نظرا إلى بعضهما البعض ببقايا ابتسامة. لقد تذكرتُ الآن برعب تلك النظرة الخاطفة والإبتسامة التي لا يكاد يكتشفها أحد إلا بشق الأنفس، لقد

اكتشفتها حينئذ، وقال أحدهم "نعم، لقد انتهى كل شيء"، وعلى الفور قال الصوت الآخر شيئاً مختلفاً تمامًا.

"لقد أصابك شيء ما، لا يمكن أن يكون الأمر هو ما يبدو عليه".

شعرتُ بأنني خارق للطبيعة يكمن في الظلام ولقد أصبتُ إحدى اللمبات، وشعرتُ بنوع من الرعب في تلك الغرفة الصغيرة ذات ورق الحائط الأصفر. أشعلتُ سيجارة، وكما يحدث دائمًا عندما يدور تفكيرالمرء ويدور في دائرة من التناقضات غير القابلة للحل، أو المُستعصية على الحل، قمتُ بالتدخين، ودخّنتُ سجائري الواحدة تلو الأخرى لكي ألفّ نفسي بالضباب حتى لا أرى تلك التناقضات. ولم أكن لأنام طوال الليل، وفي الساعة الخامسة صباحاً، بعد أن قررتُ أنني لن أستطيعُ الاستمرار في مثل هذه الحالة من التوتر، نهضتُ، وأيقظتُ المسؤول الذي اهتم بي، وأحضر الخيول. و أرسلتُ رسالة إلى المجلس أقول فيها أنني قد تم استدعائي إلى موسكو في أعمال طارئة وعاجلة، وأطلب من أحد الأعضاء أن يأخذ مكاني، وعند الساعة الثامنة استقللتُ العربة ذات الدولابين، وبدأتُ رحلة العودة.

***

الفصل الخامس والعشرون

دخل الكمساري، أو قاطع التذاكر، ورأى أن الشمعة التي كانت لدينا قد احترقت، فوضعها جانباً، دون تزويدنا بواحدة جديدة. كان فجر اليوم الجديد ينبلج، أما "بوزدنيشيف" فكان صامتًا، لكنه تنهّد بعمق طوال الوقت الذي كان فيه قاطع التذاكر في العربة. وبدأ يواصل سرد قصته فقط بعد أن خرج الكمساري، وفي شبه الظلام الذي خَيّم على العربة، لم يكن هناك ما يُمكن أن يُسمع إلا صوت الخشخشة والرجرجة الصادرة من النوافذ بسبب حركة العربة، والشخير الإيقاعي للموظف. في نصف ضوء الفجر لم أتمكن من رؤية وجه "بوزدنيشيف" على الإطلاق، ولكنني سمعتُ صوته فقط، وقد أصبح أكثر وأكثر إثارة وكان مُفعَماً بالمعاناة. قال:

- كان عليّ أن أسافر مسافة أربعةٍ وعشرين ميلاً بالطريق البري، وثماني ساعات بالسكك الحديدية. كانت قيادة رائعة. وكان الطقسُ خريفيًا بارداً، كما كان اليومُ مشرقًا ومشمسًا. وكانت الطرق في تلك الحالة عندما تركتْ الإطارات عليها بصماتها الداكنة، كما تعرف، كانت مريحة سلسة، والضوء لامعاً، والهواء مُنعشاً، كانت قيادة لطيفة في التارتان، وعندما أصبحتُ أخفّ وزناً بدأتُ أشعر بأنني أكثر راحة واسترخاء، وبمشاهدة المنازل والحقول والمارة، نسيتُ إلى أين كنتُ ذاهباً، وكنتُ أحياناً أشعر ببساطة بأنني أقوم بنزهة، وأنه لم يحدث أي شيء مما

كان يستدعيني للعودة. كان هذا النسيان ممتعاً بشكل رائع. عندما تذكّرتُ إلى أين أنا ذاهب، قلتُ لنفسي: "سوف نرى عندما يحين الوقت، لا يجب أن أفكّر في ذلك." وعندما كنا في منتصف الطريق، وقع الحادث الذي احتجزني، وما زال يشتّتْ انتباهي وأفكاري. لقد انهارت الطارتان وكان لابد من إصلاحها. وكان لهذا الانهيار أثراً مهماً للغاية، لأنه تسبّبْ في أن أصل إلى موسكو في منتصف الليل، بدلاً من الساعة السابعة كما كنتُ أتوقع، وأعود إلى منزلي بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة، حيث فاتني السفر بالقطار السريع وهو ما اِضطرّني للسفر عن طريق القطار العادي، والذهاب لكي أحْضِر عربة خشبية بدولابين لنقل الأثقال تجرها الخيول، حتى يتم إصلاح الطارتين وضبطهما، ثم تناول الشاي في النزل، والحديث مع الشخص المسؤول فيه، كل ذلك كان قد حَوّل إنتباهي إلى درجة بعيدة، ولقد حلّ وقت الشفق قبل أن يكون كل شيء جاهزاً، وبدأتُ مواصلة رحلتي مرة أخرى، وكان الليلُ قد أرخى سدوله من حولنا فكانت القيادة أكثر مُتعة منها خلال النهار. فقد ظهر هناك قمر جديد، وصقيع خفيف، ولا زالت الطرق جيدة، والخيول نفسها جيدة وقوية، وسائق مُفعم بالحيوية، وطوال الرحلة كنتُ استمتعُ بها، حتى أنني لم أفكر في كل ما كان أمامي من أحداث، أو ربما استمتعتُ بها لمجرد أنني عرفتُ ما كان ينتظرني من مشاكل، وكأنني أُوَدّع مباهج الحياة. ولكن هذا المزاج الهادئ، وتلك القُدرة على قمع مشاعري، كل هذا انتهى بيدي. وبمجرد أن دخلتُ القطار بدأ شيء مُختلف تماماً. فكانت تلك الرحلة التي إمتَدّتْ مُدّتها إلى ثماني ساعات في عربة سكة

حديدية أمرًا مروعًا، ولن أنساها أبدًا طوال حياتي. سواء تعلّق الأمر بمقعدي في عربة النقل، حيثُ كنتُ أتخيّل بشكل واضح أنني قد وصلتُ بالفعل، أو أن السفر باستخدام السكك الحديدية له تأثير مثير على الناس، وعلى أي حال فمنذ أن جلستُ في القطار لم أعد أستطيعُ السيطرة على خيالي، وبحيوية استثنائية أُلهبتْ غيرتي، والتي رسمتْ بشكل متواصل، الواحدة تلو الأخرى، صوراً لما حدث في غيابي، عن زوجتي وكيف كانت كاذبة بل خائنة بالنسبة لي. لقد احترقتُ من السخط والغضب والشعور الغريب بالتسمم بإهانتي، بينما كنتُ أحدّقُ في تلك الصور، ولم أتمكن من أن أنتزع نفسي بعيداً عنها. كما لم أتمكن من النظر إليهما ومشاهدتهما، ولم أتمكن من مواجهتهما، ولم أتمكن من استحضارهما وأن أنفخ فيهما الحياة. "ولم يكن هذا هو كل شيء. فكلما نظرتُ أكثر إلى هذه الصور الخيالية، كلما ازدادت قوة إيماني بواقعيتهما. ويبدو أن الحيوية التي قدما نفسيهما بها لي كانت بمثابة دليل على أن ما تخيلته كان واقعياً وحقيقياً. فكان الأمر كما لو أن شيطان ما، ضد إرادتي، اخترع ووسوس لي بأكثر الأفكار والخواطر فظاعة، حيثُ أثيرتْ في بالي محادثة قديمة كنتُ قد أجريتها مع شقيق "تروكاتشيفسكي"، وفي نوع من الوجد، قمتُ بتمزيق قلبي بسبب تلك المحادثة، التي اعتبرتها تشير إلى "تروكاتشيفسكي" وزوجتي.

"ورغم أن هذا كان قد حدث منذ فترة طويلة، إلا أنني قد تذكرته الآن. فأنا أتذكر أخا "تروكاتشيفسكي"، رداً على سؤال حول ما إذا كان يتردد على منازل سيئة الشهرة، قال أن رجلاً مُحترماً لن يذهب إلى المكان الذي يوجد فيه خطر

التلوث، وأن هذا المكان كان قذراً وبغيضاً، لأنه كان يمكنه دائماً العثور على امرأة مُحترمة.

والآن قد وجد أخوه زوجتي!

"صحيح، أنها ليست في شبابها الأول، وقد فقدتْ واحدة من أسنانها الجانبية، ويوجد بها تجاعيد بسيطة وهالات سوداء، ولكن هذا لا يمنع المرء من أن يستفيد مما يمكن أن يحدث له، "

وتخيلته وأنا أفكر.

"نعم، إنه تنازل منه وتواضع أن يتخذها عشيقة له!" قلت لنفسي. "وهي آمنة...." "لا، هذا مستحيل!" اعتقدت أنني مصدوم رعباً."لا يوجد شيء من هذا القبيل، لا شيء! لا يوجد حتى أيّ سبب للشكّ في مثل هذه الأمور. ألم تخبرني هي أن مجرد التفكير في أنني يمكن أن أكون غيوراً منه يكون مهيناً لها وعدم تقدير؟ نعم، ولكنها تكذب، إنها تكذب دائماً!"، صرختُ وبدأتُ كل شيء من جديد.... لم يكن هناك سوى شخصين آخرين في عربة النقل. امرأة عجوز وزوجها، وكلاهما صموت، قليل الكلام، وحتى خرجا في إحدى المحطات، وكنت وحيدًا تماماً. كنتُ مثل حيوان في قفص: الآن قفزتُ وذهبتُ إلى النافذة، والآن بدأتُ في المشي صعوداً وهبوطاً في محاولة لتسريع عربة النقل. لكن العربة بكل مقاعدها ونوافذها انطلقت تهتزّ وترتجّ، بنفس الطريقة، مثلما كانت تفعل بنا...

وفجأة قفز "بوزدنيشيف"، واتخذ خطوات قليلة، ومن ثم جلس مرة أخرى.

وراح يتابع قصته:

- أوه، إنني خائفٌ، خائفٌ من عربات السكك الحديدية، لقد استولى عليّ الرعب. نعم، إنه مروّع!، قلت لنفسي: "سوف أفكر في شيء آخر. لنفترض أنني أفكر في صاحب الفندق الذي تناولتُ فيه الشاي"، وهناك في عيني ذُهني يظهر صاحب الحانة بلحيته الطويلة وحفيده، وهو صبي في عُمْر ابني فازيا!، سوف يرى كيف يُقَبّل الموسيقار أمّه. ماذا سوف يحدث في روحه البائسة؟

ولكن ماذا يهمها في ذلك؟ إنها تحب... "، ومرة أخرى يقفز بداخلي نفس الشيء. "لا، لا... سوف أفكر في تفتيش مستشفى المنطقة. أوه، نعم، عن المريض الذي اشتكى من الطبيب أمس. إن الطبيب لديه شارب مثل شارب "تروكاتشيفسكي". ويا له من وقِح... لقد خدعاني كلاهما، عندما قال إنه سوف يغادر موسكو، "وها أنا قد بدأتُ من جديد. فكل شيء فكرتُ به كان له بعض الارتباط أو الصلات بها. ولقد عانيتُ معاناة لا تُحتمل، وكان السبب الرئيسي للمعاناة هو جهلي، شكوكي، والتناقضات في داخلي: فقد كانت عدم معرفتي ما إذا كان يجب عليّ أن أحبها أم أكرهها، كانت معاناتي من نوع غريب. شعرتُ بوعي مُفعم بالكراهية من إذلالي، ومن فوزه وانتصاره، ولكن كراهيتي لها كانت فظيعة. فقلتُ لنفسي:

"لن يُفيدني في شيء أن أضع نهاية لنفسي، وأتركها، بل يجب عليها على الأقل أن تعاني إلى أيّ مدى، وعلى الأقل عليها أن تفهم أنني قد عانيتُ".

كنتُ أخرج في كل محطة لتحويل تركيز أفكاري بعيداً وأتطرّق إلى موضوعات أخرى. في إحدى المحطات، رأيتُ بعض الناس يشربون، وشربتُ فوراً بعض الفودكا. وكان يقف إلى جانبي أحد اليهود، وكان يشرب أيضاً. وبدأ يتحدث معي، ولكي أتجنّبْ حقيقة كوني بمفردي في عربتي فقد ذهبتُ معه إلى عربته القذرة في الدرجة الثالثة، التي تفوح منها رائحة العفونة والدخان وقد تزينتْ بتلميعها بقشور بذور عباد الشمس. وجلستُ بجانبه هناك وراح يثرثر حول أمور كثيرة، وأخبرني بالكثير من النوادر والحكايات. ولقد استمعتُ إليه، ولكنني لم استطع أن استوعب ما كان يقوله، لأنني كنتُ مُستمراً في التفكير في شؤوني الخاصة. ولقد لاحظ هو ذلك فطلب منّي أن أنتبه لأحاديثه، ثم نهضتُ وعُدتُ إلى عربتي. وقلتُ لنفسي:

"يجب أن أفكر في الأمر"، "هل ما أشكّ فيه صحيح وحقيقي، وهل هناك أيّ سبب لمعاناتي؟"

وجلستُ، أتمنى أن أفكر في هذا الأمر بهدوء، لكنني على الفور، وبدلاً من التأمل الهادئ، بدأ الشيء نفسه مرة أخرى: بدلاً من التفكير، والصور والأوهام.

"كم مرة عانيتُ مثل هذا"

(وتذكّرتُ الهجمات المماثلة السابقة التي هاجمتني من الغيرة)،

"وبعد ذلك انتهى كل شيء، إلى لا شيء. لذلك ما سوف يكون الآن، ربما، بل نعم بالتأكيد، سوف يكون، أنني سوف أجدها نائمة في هدوء واسترخاء،

وسوف تستيقظ، سعيدة لرؤيتي، وبكلماتها وبنظراتها سوف أعرف أنه لم يكن هناك أيّ شيء وأن كل هذا كلام فارغ وهراء، أوه، كم سوف يكون هذا جيداً!

يبدو أن صوتاً ما يقول:

"ولكن لا، لقد حدث هذا كثيراً، ولن يحدث مرة أخرى الآن"

وبدأتُ من جديد. نعم، وهنا تكمن العقوبة! فلم أكن لأخذ شاباً إلى الحجز بمستشفى، لكي نطرق الأشواق، بعد خروج النساء منه ولكن بداخل روحي، لرؤية الشياطين التي كانت تمزّقه! كم كان فظيعاً، كما تعلم، هذا الذي اعتبرته أنا نفسي أن لديّ حقًا كاملاً في جسدها كما لو كانت ملكي، وفي نفس الوقت، لم أتمكن من السيطرة على هذا الجسد، وإنه لم يكن ملكي، ومن أنها يُمكنها أن تُقرر بخصوصه ما يحلو لها، وما أرادت أن تقرر بخصوصه، لم يكن هو ما كنتُ أتمنّى أن تفعله. ولا يمكنني فعل أيّ شيء لها أو له. هو، مثل "فانكا ستيوارد"، أمكنه أن يُغنّي أغنية، قبل المشنقة، عن كيف قَبّل الشفاة المُحَلّاة بالسكر، وهكذا.

وكان سوف ينتصر. إذا لم تكن قد فعلت ذلك، ولكنها كانت ترغب في أن تفعله - وأنا أعلم أنها فعلاً ترغب في ذلك - إنها لا تزال أسوأ. سوف يكون من الأفضل لو أنها قد فعلت ذلك، وكنتُ أعرف ذلك، حتى يكون هناك نهاية لهذا الغموض والشكّ. ولم أكن أستطيعُ أن أقول ما أريده. كنت أريدها ألا ترغب في أن تفعل ما كانت مُلتزمة بالرغبة في أن تفعله. لقد كان جنوناً مُطلقاً.

***

الفصل السادس والعشرون

- في المحطة الأخيرة لم يكن هناك إلا واحد فقط، هو أنا، عندما جاء الكمساري لتحصيل التذاكر، جمعتُ أشيائي معاً وخرجتُ إلى منصة الفرامل، وكان الوعي بأن الأزمة في متناول اليد لا تزال تزيد من أنفعالي وإثارتي.

شعرتُ بالبرد وارتجف فكّي حتى إصطقت أسناني، وغادرتُ المحطة الأخيرة أوتوماتيكياً مع الحشد، أخذتُ سيارة أجرة، استلقيتُ بها، وانطلقنا، ورحتُ أجيل النظر إلى المارة، والحراس الليليين، وظلال حقائبي التي أُلقيت بواسطة مصابيح الشوارع، فتظهر مرة أمامي ومرة أخرى تظهر خلفي، ولم أفكر في أي شيء، وعندما ذهبنا لمسافة نصف ميل تقريباً، شعرتُ بالبرد في أقدامي، وتذكرتُ أنني قد خلعتُ جواربي الصوفية في القطار ووضعتها في حقيبتي". أين هي الحقيبة؟ هل هي هنا؟ نعم. "وحقيبتي الخيش؟ وتذكّرتُ أنني نسيت تماماً أمتعتي، ولكنّني وجدتُ معي تذكرة الأمتعة، وقررتُ أنها لم تكن تستحق الوقت اللازم للعودة من أجلها، وهكذا واصلتُ طريقي.

"جرب الآن كما سوف أفعل، إنني لا أستطيعُ أن أتذكر حالتي الذهنية في ذلك الوقت. ماذا كنتُ أفكر؟ ماذا كنتُ أريد؟ لا أعرف على الإطلاق. كل ما أتذكّره هو إدراك أن شيئاً مُرعباً ومهمًا جداً في حياتي كان على وشك الحدوث، سواءكان حدثاً هاماً قد وقع، لأنني اعتقدتُ أنه سوف يقع، أو ما إذا كان لديّ نذير شؤم،

أو حس داخلي، بما سوف يحدث، فأنا لا أعرف ذلك، بل حتى ربما كان بعد كل الذي حدث، في كل اللحظات السابقة، قد أحرزه مكان مُظلم مُعيّن في عقلي، واندفعتُ إلى الشرفة الأمامية، وكان ذلك بعد منتصف الليل، وكان بعض سائقي سيارات التاكسي ينتظرون أمام الشرفة متوقعين، من حقيقة أن هناك أضواء في النوافذ، للحصول على رحلات.(كانت الأضواء في شقتنا، في غرفة الرقص وغرفة الرسم.) وبدون التفكير في لماذا كانت لا تزال الأضواء في نوافذنا حتى وقت متأخر، ذهبتُ إلى الطابق العلوي في نفس حالة توقّعي لحدوث شيء مروّع، ورننتُ الجرس. إنه "إيجور"، وهو طيب ونشيط، إلا أنه خادم غبي جداً، فتح الباب، وكان أول شيء وقعت عليه عيناي في الرواق هي عباءة رجل مُعلّقة على الحامل، مع معاطف الخروج الأخرى. كان يجب أن أكون متفاجئًا، ولكنني لم أكن كذلك. لأنني كنتُ قد توقّعتُ ذلك، "هذا هو كل شيء!، لقد انتهى الأمر" قلتُ ذلك لنفسي. وعندما سألتُ إيجور عمّن يكون الزائر، قال إن اسمه هو "تروكاتشيفسكي"، فاستفسرتُ عمّا إذا كان هناك أيّ شخص آخر. وأجاب قائلاً: "لا أحد، يا سيدي".

أتذكر أنه أجاب بنبرة وكأنه يريد أن يهتف لي ويُبدّد شكوكي في وجود أي شخص آخر هناك في البيت. وبدا لي أنني كنتُ أقول لنفسي:

"هكذا هو الأمر إذن، هذا هو الحال، " تمالكتُ نفسي، سألته:

"والأطفال؟"

"إنهم جميعاً بخير، الحمدُ لله. إنهم في السرير، منذ فترة طويلة."

لم أتمكن من التنفس، ولم أتمكن من السيطرة على الرعشة التي حدثت في فَكّي.

نعم، إذن ليس الأمر كما كنتُ أفكر أو أعتقد: لقد إعتدّتُ أن أتوقع حدوث مُصيبة، ولكن الأمور إعتادت أن تكون بخير، وأن تسير بالطريقة المعتادة. أما الآن فليس الأمر كالمعتاد، ولكن كل شيء كما صوّرتُ أنا لنفسي. ولقد اعتقدت أنها كانت مجرّد أوهام، ولكن هنا، كل شيء حقيقي. هنا الأمر هو...!

كِدتُ أن انتحب وأنشج، ولكن الشيطان اقترح لي على الفور:

"اصرخ، انفعل، وسوف يذهبان في هدوء. فلن يكون لديك أيّ دليل، وسوف تستمر في المعاناة والشكّ طوال حياتك."

"واختفت شفقتي على نفسي ورثائي لذاتي على الفور، وأطل بداخلي إحساس غريب بالابتهاج، فقد انتهت عذاباتي الآن، ولأنني الآن فقط يُمكنني أن أعاقبها، كما يُمكنني أن أتخلّص منها، وأيضاً يُمكنني أن أنفّس عن غضبي، ولقد نَفّستُ عن غضبي فعلاً، – لقد أصبحتُ وحشًا، وحشًا قاسيًا وماكرًا.

وهَمّ "إيجور" بالذهاب إلى غرفة الرسم، فصحتُ به :

"لا!، توقف، هذه هي تذكرة الأمتعة الخاصة بي، استقِلّ سيارة أجرة في أسرع وقت ممكن واذهب لكي تُحضِر لي أمتعتي. اذهب!"

وذهب "إيجور" إلى أسفل الدهليز لكي يجلب معطفه. ولأنني كنتُ أخشى أن يُحذّرها أو يُنذرها، فقد ذهبتُ بسرعة إلى غرفته الصغيرة، وانتظرتُ ريثما ارتدى معطفه. ومن غرفة الرسم، وخلف غرفة أخرى، يُمكن للمرء أن يسمع

أصوات قعقعة وارتطامات السكاكين والصحون. كانا يأكلان، ولم يسمعا الجرس.

فكّرتُ: "إذا لم يخرجا الآن، " وارتدى "إيجور" معطفه، وكان له كولة أو ياقة من فرو الحمل الصغير، ، وخرج. وأغلقتُ الباب وراءه، وشعرتُ بالرعب عندما عرفتُ أنني وحدي، ويجب عليّ أن أتصرّف في الحال. كيف أتصرّف، لم أكن أعرف حتى الآن. كنتُ أعرف فقط أن كل شيء قد انتهى الآن، وأنه لا يمكن أن يكون هناك أيّ شك في إثمها وإدانتها، وأنني يجب أن أعاقبها على الفور وأُنهي علاقتي بها. لقد كنتُ أشُك في السابق وكنتُ أفكر:

"ربما، بعد كل ذلك، لا تكون كل شكوكي صحيحة، ربما أكونُ مخطئاً."

ولكن الآن لم يعُد الأمر كذلك. لقد تقرر كل شيء بشكل لا رجعة فيه.

" بدون أن أعرف، هي وحدها معه في الليل! وفي هذا تجاهل واستخفاف تام بكل شيء! أو حتى هو أسوأ من ذلك: هو الوقاحة والجرأة المُتعمّدة على ارتكاب الجريمة، وأن جرأتها قد تكون دليلاً على البراءة. إن كل شيء واضح. ولا يوجد أيّ مجال للشك"

إنني لا أخشى إلا شيئًا واحدًا، هو فراقهما لبعضهما البعض، على نحو مُستعجل، واختراع أو تلفيق كذبة جديدة، وبالتالي حرماني وتجريدي من الأدلة الواضحة ومن إمكانية إثبات الحقيقة. ومن أجل أن يتم الإمساك بهما بسرعة أكبر، فقد ذهبتُ على رؤوس أصابع أقدامي إلى غرفة الرقص حيث كانا، وليس من خلال غرفة الرسم، ولكن من خلال الدهليز وحجرات نوم الأطفال. في أول حجرة

نوم كان الأولاد ينامون. أما في الحجرة الثانية فقد انتقلت إليها المُربية وكانت على وشك الإستيقاظ، وقد تخيّلتُ ما سوف تفكر به عندما تعرف كل شيء. وقد استولتْ عليّ هذه الشفقة على نفسي في ذلك التفكير حتى أنني لم أستطع كبح جماح دموعي، ولكي لا أوقظ الأطفال فقد ركضتُ على رؤوس أصابعي من خلال الرواق، ومنه إلى حجرة مكتبي، حيث رحتُ انتحب، وألقيتُ بجسدي على الأريكة.

"أنا، رجل مُحتشم ونزيه، أنا، ابن والديّ، أنا، الذي حلمتُ طوال حياتي بسعادة الحياة الزوجية؛ أنا، الرجل الذي لم يكن خائناً لها قط، ... والآن!

لدينا خمسة أطفال، وهي تُعانق رجلاً موسيقياً لأنه يملك شفاهاً حمراء!

لا، إنها ليستْ إنسانة. إنها عاهرة، عاهرة بغيضة!

في الغرفة المجاورة لأطفالها، الذين تظاهرتْ طوال حياتها بأنها تحبهم. وتكتب إليّ كما كتبتْ! تُلقي بنفسها بهذه الوقاحة على عنقه، وسألتُ نفسي باستهجان وتهكّم:ولكن ما الذي أعرفه أنا فعلاً؟

فلربما فعلتْ هي ذلك منذ فترة طويلة مع الخدم، وهكذا حملتْ بهؤلاء الأطفال الذين يُعتبرون أطفالي! كان يجب أن أعود غداً، وكانت سوف تقابلني بقصة شعر رائعة، بخصرها الأنيق، وحركاتها الرقيقة الرشيقة..

لقد رأيتُ وجهها الجذاب البغيض، ووحش الغيرة هذا الذي سوف يجلس في قلبي إلى الأبد يُمَزّقه ويُدميه، فيم سوف تفكر المربية؟... وأيضاً إيجور؟ والمسكينة الصغيرة ليزا!، إنها بالفعل تتفهّم شيئًا ما، آه، هذا الطيش والتهَوّر،

تلك الأكاذيب!، وهذه الشهوة الحيوانية، التي أعرفها جيداً.. وحاولتُ النهوض، لكنني لم استطع. فقد كان قلبي ينبض بقوة لدرجة أنني لم استطع الوقوف على قدمي. نعم، سوف أموت من سكتة دماغية. إنها سوف تقتلني. وهذا هو تماماً ما تريده. ما الذي يعنيه القتل من وجهة نظرها؟ ولكن لا، سوف يكون ذلك مفيدًا جدًا لها، ولن أعطيها هذه المتعة. نعم، إنني أجلس هنا، بينما يأكلون ويضحكون و... !

نعم، رغم أنها لم تعُد في نضارتها الأولى، إلا أنه لم يرفضها أو يزدريها، لأنها على الرغم من ذلك، فهي ليست سيئة المظهر، وقبل كل شيء، فهي في أيّ حال لا تشكل خطراً على صحته الثمينة.

وحدّثتُ نفسي مُتسائلاً: "ولماذا لم أخنقها في ذلك الوقت؟"، وتذكّرتُ اللحظة التي أخرجتُها فيها من حجرة مكتبي، في الأسبوع الماضي، حين كنتُ أقذفها بالأشياء المختلفة، لقد تذكّرتُ بشكل واضح الحالة التي كنتُ عليها آنذاك. لم أتذكّر ذلك فقط، ولكنني شعرتُ مرة أخرى بالحاجة إلى الضرب والتدمير التي شعرتُ بها آنذاك. إنني أتذكّر كيف كنتُ أرغب في أن أفعل شيئاً، وكيف أن جميع الاعتبارات والأفكار، باستثناء تلك اللازمة للعمل، خرجت من رأسي.

لقد دخلتُ في هذه الحالة عندما يعمل حيوان أو رجل، تحت تأثير الإثارة الجسدية في وقت الخطر، يعمل بدقة وإحكام دون أن يخسر لحظة ودائماً بهدف واحد محدّد في المشهد.

وكان أول شيء فعلته هو خلع حذائي، ولم أزل أرتدي جواربي، اقتربتُ من الأريكة، وإلى جوارها الجدار الذي تم تعليق البنادق والخناجرعليه. وأخذتُ الخنجر الدمشقي ذو الطرف المُقَوّس، والذي لم يُستخدم قط، وكان حادًا للغاية. وسحبته من غمده.. وأتذكر أن الغمد سقط خلف الأريكة، كما أتذكّر أيضاً أنني كنتُ أفكّر.. "يجب أن أجده بعد ذلك، وإلا فسوف يضيع." ومن ثم خلعتُ معطفي الذي كنتُ لا أزال أرتديه، وبدأتُ أتقدّم بهدوء في جواربي إلى أن وصلتُ إلى هناك.

***

الفصل السابع والعشرون

- بعد أن تسلّلتُ خِلسَة إلى الباب، فتحته فجأة..

إنني أتذكر التعبير الذي ارتسم على وجهيهما. أتذكر ذلك التعبير لأنه أعطاني مُتعة مؤلمة! – فقد كان تعبيراً عن الإرهاب. وهذا هو ما أردته بالضبط.

ولن أنسى أبدًا نظرة الرعب اليائس التي ظهرت على وجهيهما في أول لحظة وقعتْ عيناهما عليّ، وأعتقد أنه كان جالسًا إلى المنضدة، ولكن عند رؤيتي أو سماعي، قفز على قدميه ووقف وكان ظهره إلى الصوان، لم يُعبّر وجهه عن شيء سوى رعب لا لبس فيه، ولا يُخطئه أحد، وكان وجهها أيضاً يُعبّر عن الرعب، ولكن كان هناك شيءٌ آخر غير ذلك، إذا كان يُعبّر عن الرعب فقط، فلربما ما حدث لم يكن ليحدث، ولكن كان هناك على وجهها، أوعلى أيّ حال، بدا لي في اللحظة الأولى، أيضاً تعبيراً عن الأسف والانزعاج من أن نشوة الحب وسعادتها معه قد قوطِعَتْ!، وكان الأمرُ يبدو كما لو أنها لم تكن تريد شيئًا آخر، سوى سعادتها الحالية، التي لم يكن ينبغي لأحد التدخل فيها أو التصادم معها، وظلّت هذه التعبيرات على وجهيهما ولكن للحظة.

وتغيّرت نظرة الرعب على وجهه على الفور إلى نظرة تساؤل، ربما كان يجب عليه، أو ربما لم يكن عليه، أن يبدأ بالكذب؟، إذا كان يجب عليه، فيجب أن يبدأ في الحال، إذا لم يكن عليه أن يفعل، فلا بد من حدوث شيء آخر، ولكن ما هو هذا

الشيء الآخر؟... نظر مُستفسراً إلى وجهها، بينما كانت نظرة الغيظ والحنق والأسف قد تغيّرت على وجهها، بمجرّد أن نظرتْ إليه (أوعلى الأقل قد بدا لي هذا الأمر) إلى نظرة اهتمام به وقلق عليه، "وللحظة، وقفتُ في الممرّ مُمسكاً بالخنجر أُخفيه خلف ظهري. وفي تلك اللحظة ابتسم، وفي نبرة غير مُبالية تبعث على السخرية قال مُبدياً ملحوظة:

"ونحن نؤدّي بعض الموسيقى".. وبنفس النبرة التي تحدّث هو بها، قالت:

"يا لها من مفاجأة!"..

ولكن قبل أن ينتهِي أيّ منهما من حديثه، تغلب عليّ نفس الغضب الذي مررتُ به في الأسبوع السابق، ومرة أخرى شعرتُ بتلك الحاجة إلى الدمار والعنف والتنفيس عن الغضب، فاستسلمتُ لهذا الشعور..

ولم يكن أحدهما قد انتهى بعد مما أراد أن يقوله، حتى بدأ شيء آخر، وهو الشيء الذي كان يخشاه، والذي دمّر على الفور كل ما كانا يقولان، فقد هرعتُ نحوها، ولا أزال أخبئ الخنجر، حتى لا يمنعني من طعنها في جانبها، تحت صدرها، وقد اخترتُ تلك البقعة منذ البداية، ولكن بمجرّد أن اندفعتُ أنا إليها رأى الخنجر، و- حدث شيء ما لم أكن أتوقعه منه أبداً- فقد أمسكني من ذراعي وصرخ:

"فكر في ماذا تفعل!... المساعدة، على أحدهم تقديم المساعدة!...

انتزعتُ منه ذراعي بعيداً، واندفعتُ إليه في صمت. وتلاقت عينانا، وفجأة أصبح وجهه شاحباً كورقة، حتى شفتيه. وكانت عيناه تلمعان بطريقة غريبة، و- ما لم أكن أتوقعه مرة أخرى - أنه اندفع تحت البيانو، وخرج من الباب. كنتُ

سوف أندفع وراءه، لكن شيء ثقيل تعلّق على ذراعي الأيسر. لقد كانت هي، حاولتُ أن أحرر نفسي من بين ذراعيها، لكنها تعلّقتْ أكثر، ولم تدعني أذهب في مُلاحقته، وكان هذا العائق غير المتوقع، والوزن الثقيل، ولمسها لي الذي كان مُقرفاً وكريهاً بالنسبة لي، ولا زال يُلهبني أكثر من ذي قبل، وشعرتُ بأنني مجنون تماماً، وأنه يجب أن أبدو مخيفاً، وهذا ما كان يُبهجني.

أرجحتُ ذراعي اليسرى في الهواء بكل ما أوتيتُ من قوة، وضربها مرفقي في وجهها مباشرة. فصرختْ وتركتْ ذراعي. وكنتُ أرغب في الركض وراءه، ولكنني تذكّرتُ أنه من السخف أن يركض المرء وراء عشيق زوجته مُرتدياً الجوارب!، كما أنني لم أكن أرغب في أن أكون سخيفاً، بل مُرعباً. وعلى الرغم من نوبة الجنون والهياج المخيف الذي كنتُ فيه، فقد كنتُ طوال الوقت على وعي بالانطباع الذي قد أولّده للآخرين، وكنتُ مُنقاداً جزئياً بهذا الانطباع. اِلتفتُّ نحوها. سقطتْ على الأريكة، وقد وضعتْ يدها على الكدمات التي أصابت عينيها، ونظرتْ إليّ. أظهر وجهها الخوف منّي والكراهية لي، أنا العدو، كما يفعل الجرذ عندما يرفع أحد الفخ الذي تم استخدامه للإيقاع به، على أيّ حال، لم أجد شيئًا في تعبيراتها إلا هذا الخوف والكراهية لي. لقد كان مجرد الخوف والكراهية لي التي سيتم استدعائها بالحب لرجل آخر. لكن ما زلتُ ربما أكون قد ضبطتُ نفسي ولم أفعل ما فعلته حتى أنها بقيت صامتة. لكنها بدأت فجأة في الكلام والقبض على يدي التي حملت الخنجر:

"عُد إلى نفسك! ماذا تفعل؟ ما المشكلة؟ لم يكن هناك شيء، لا شيء، لا شيء... أقسم على ذلك!"

ربما كنتُ لا أزال مُتردّداً، لكن تلك الكلمات الأخيرة منها، والتي استخلصتُ منها العكس تماماً – أن كل شيء قد حدث – كان يستدعي ردّاً تصاعدياً. وكان على الردّ أن يتطابق مع المزاج الذي جلبته أنا بنفسي، والذي كان يستمر في الزيادة والتصاعد، وكان لا بد من الإستمرار في التصاعد. والغضب، أيضاً، كان لديه قوانينه. "لا تكذبي، أيتها الحقيرة!" كنتُ أنبح وأعوي، وأمسكتُ بذراعها بيدي اليسرى، ولكنها سحبتْ نفسها بعيداً بقوة، ثم، وبدون أن أترك الخنجر، قبَضتُ على رقبتها من الحنجرة، بيدي اليسرى، وقذفتُ بها إلى الوراء، وبدأتُ في خنقها. ويا لها من رقبة قوية...!، فقد أمسكتْ يدي بكلتا يديها، تُحاول إبعاد يدي عن حنجرتها، وكما لو كنتُ فقط أنتظر منها أن تفعل ذلك، ضربتها بكل ما أوتيتُ من قوة، بالخنجر في الجانب أسفل الضلوع.

"عندما يقول الناس أنهم لا يتذكّرون ما يفعلونه في نوبة من الغضب، فإن ذلك هراء، وكذب. فقد تذكّرتُ كل شيء، ولم أفقد للحظة إدراك ما كنتُ أفعله. وكلما كنتُ شديد الاهتياج، أصبح ضوء إدراكي أكثر إشراقًا، مُشتعلاً في داخلي، حتى أتمكن من معرفة كل شيء فعلته. فكنتُ أعرف ماذا كنتُ أفعل في كل ثانية. لا أستطيعُ أن أقول إنني أعرف مُسبقاً ما الذي سوف أفعله، لكنني أعرف ما كنتُ أفعله عندما فعلتُه، وحتى أنني كنتُ أفكّر قليلاً قبل أن أفعله، كما لو أنني أريد أن أجعل الندم ممكناً، ومن أجل أن أكون قادراً على أن أقول لنفسي بأنه

يُمكنني أن أتوقف. كنتُ أعرف أنني كنت أضرب تحت الأضلاع وأن الخنجر سوف يدخل. وفي اللحظة التي قُمتُ فيها بهذا، كنتُ أعرف أنني أقوم بأمر فظيع كما لم أقم به من قبل، مما كان له عواقب وخيمة. لكن هذه المشاعر مرّتْ مثل وميض البرق، والفعل جاء فوراً عقب المشاعر. وأدركتُ العمل مع وضوح غير عادي. شعرتُ، وتذكرتُ، أن المقاومة السريعة لمشدّ خصرها ومقاومة شيء آخر، ثم انغراز الخنجر في شيء لين. أمسكتْ الخنجر بيديها، فجرحهما، ولكنها لم تستطع اخراجه.

ولفترة طويلة بعد ذلك، في السجن عندما حدث التغيير الروحي أو الأخلاقي في نفسي، فكّرتُ في تلك اللحظة، وتذكّرتُ ما استطعتُ فعله من ذلك، وفكّرتُ فيه. تذكّرتُ ذلك للحظة، فقط لحظة، قبل العمل كان لديّ مشاعر رهيبة بأنني كنتُ أقتل، ولقد قتلتُ، امرأة عزلاء، زوجتي! أتذكر الخوف من هذه المشاعر، وأستنتج من ذلك، وحتى أتذكره بشكل خافت، أنني بعد أن غرزت الخنجر فيها، سحبته على الفور، لعلاج ما تم القيام به وإيقافه، ووقفتُ لمدة ثانية بدون حراك، في انتظار رؤية ما سيحدث، وما إذا كان يُمكن علاجها.

إلا أنها قفزت على قدميها وصرختْ:

"أيتها المُربية! لقد قتلني"

بعد سماع الضجيج كانت المُربية تقف بجانب الباب. أما أنا فقد واصلتُ الوقوف منتظراً، ولم أكن أصدّق حقيقة ما حدث، لكن الدماء اندفعت من تحت مشدّ وسطها. عندها فقط أدركتُ أنه لا يمكن علاجها، وقررتُ على الفور أنه

لم يكن من الضروري أن يحدث ما حدث، وإنني كنتُ قد فعلتُ ما أردته أن يحدث، وكنتُ مُضطراً لأن أفعل ذلك، فانتظرتُ حتى سقطتْ، وركضتْ المُربية مندفعة نحوها، وهي تبكي وتردّد:

"الله الطيب!"،

وفقط في ذلك الحين، رميتُ الخنجر بعيداً، وغادرتُ الغرفة. وأنا أحدّث نفسي، وبدون أن أنظر إليها، ولا إلى المُربية:

"لا يجب أن أكون مُنفعلاً، بل يجب أن أعرف ما أفعله".

وكانت المُربية تعاود الصراخ، داعية للخادم.

وذهبتُ إلى أسفل الرواق، وأرسلتُ الخادم، ودخلتُ حجرة مكتبي، ورحتُ أسأل نفسي: "ماذا عليّ أن أفعل الآن؟"

وأدركتُ على الفور ما يجب أن يكون عليه الأمر.

عندما هممتُ بالدخول إلى حجرة مكتبي، ذهبتُ مباشرة إلى الجدار، وأخذتُ مسدسًا وفحصته – وكان مَحشوّاً – وضعته على المنضدة، ثم التقطتُ الغمْدَ من وراء الأريكة، وجلستُ هناك. جلستُ هكذا لفترة طويلة. لم أفكر في أي شيء، كما لم استدعِ إلى ذُهني أيّ شيء، سمعتُ الأصوات الصاخبة بالخارج، سمعتُ أحدهم يقود سيارته، ثم شخص آخر، ثم سمعتُ ورأيتُ "إيجور"، وقد أحضر لي بغرفتي صندوقي الخيزران الذي أرسلته لإحضاره، كما لو أن أيّ شخص يريد ذلك! فسألته:

"هل سمعت ما حدث؟، اطلب من حارس الباحة أن يُبلغ الشرطة".

لم يَرُدّ، وذهب بعيداً، فنهضتُ، وأقفلتُ الباب، أخرجتُ سجائري، وأعواد الثقاب، وبدأتُ أُدخّن، ولم أكن قد انتهيتُ من تدخين السيجارة قبل أن يقهرني النوم، ولا بدّ أنني كنتُ قد نِمتُ لمدة ساعتين، وأتذكّر أنني كنتُ أحلم أننا، هي وأنا، كنا معاً، وأننا كنا قد تشاجرنا، ولكننا كنا بصدد إصلاح الأمر، ولكن كان هناك شيئاً إضافياً في الطريق، لكننا كنا أصدقاء، واستيقظتُ بسماع أحدهم كان يطرق الباب.. وفكّرتُ:

"هذه هي الشرطة!"

نهضتُ..

"لقد ارتكبتُ جريمة قتل، هكذا كنتُ أفكر وأنا استيقظ، لكن ربما إنها *هي*، ولم يحدث أي شيء، وكان هناك مرة أخرى طرقاً على الباب، لم أرُدّ، ولكنني كُنتُ أحاول فهم الموضوع، سواء ما إذا كان قد حدث شيء أم لم يحدُث. مع ذلك، لقد حدث، وتذكّرتُ مقاومة مِشَدّ خصرها، وانغراز الخنجر، وسَرَتْ رعشة باردة أسفل ظهري. وفكّرتُ:

"نعم، لقد حدث شيء، نعم، والآن يجب أن أتخلص من نفسي أيضاً، "

ولكنني فكّرتُ في ذلك، وأنا أعلم أنّني لا يجب أن أقتل نفسي. لكنّني استيقظتُ وأخذتُ المُسَدّس في يدي، لكن الأمر غريب: إنّني أتذكّر كيف كان لديّ عدة مرات اقتربتُ فيها من الانتحار، كيف كان يبدو هذا سهلاً، حتى في ذلك اليوم، على خط السكة الحديدية، فقط لأنني فكّرتُ في كيفية إرعابها - والآن لم أكن غير قادر على قتل نفسي فحسب، بل حتى غير قادر على التفكير في ذلك الأمر.

وسألتُ نفسي:

"لماذا يجب أن أفعل ذلك؟"، ولم يكن هناك رد، كان هناك طَرق أكثر على الباب.

"أولاً يجب أن أعرف من الذي يطرق الباب. سيكون هناك مُتّسع من الوقت لذلك."وضعتُ المُسدّس وغطيته بصحيفة، وذهبتُ إلى الباب وفتحته بعد أن رفعتُ المزلاج، كانت أخت زوجتي، أرملة غبية ولكن على نحو مؤدب..

بدأت دموعها تنهمر من عينيها، إنها دائماً وأبداً جاهزة لأن تنهمر، "فازيا، ما هذا؟، سألتها بفظاظة: ماذا تريدين؟

إنّني أعرف أنه يجب ألا أكون فظّاً معها، كما أنه ليس لديّ أيّ سبب يجعلني فظّاً معها، ولكنّني لم أفكر في اختيار أيّ نغمة أخرى.

- فازيا، إنها تحتضر!، "إيفان زخاريش" يقول ذلك.
- "إيفان زخاريتش" هو طبيبها ومستشارها، هل هو هنا؟..

سألتها، وكل ما عندي من عداوة ضدها ارتفعت مرة أخرى:

- حسناً، ماذا عن ذلك؟، فازيا، اذهب إليها.
- أوه، كم هو رهيب!.

وسألتُ نفسي:"هل سوف أذهب إليها؟" وقررتُ على الفور أنه يجب أن أذهب إليها. ربما يحدث ذلك دائماً، عندما يقتل زوج زوجته، كما فعلتُ أنا يجب عليه بالتأكيد الذهاب إليها. ولا زلتُ أتحدّث مع نفسي:

"إذا كان هذا هو ما فعلته، إذن يجب عليّ أن أذهب، وإذا لزم الأمر، فسوف أحصل على الوقت دائما"..

هكذا فكّرتُ، مُشيراً إلى إطلاق النار على نفسي.. وذهبتُ إليها.

ولا زلتُ أفكّر:

"الآن سيكون لدينا عبارات وتكشيرات، ولكنّني لن أخضع لها"..

وقلتُ لأختها:

- انتظري، إنه شيء سخيف أن أذهب إليها بدون حذاء، اسمحي لي على الأقل أن أرتدي الخُفّ.

***

الفصل الثامن والعشرون

- رائع أن أقول، عندما غادرتُ حجرة مكتبي، وذهبتُ عبر الغرف المألوفة، كان الأمل في عدم حدوث أي شيء قد استيقظ مرة أخرى في داخلي، ولكن تلك الرائحة الكريهة للدكتور، أعني "اليودوفورم و الفينول أو حمض الكربوليك"، أعادتني إلى الوراء.. إلى الواقع.. "لا، لقد حدث"..

ونزلتُ إلى أسفل الرواق، بعد حجرة نوم الأطفال، ورأيتُ "ليزا" الصغيرة. نظرتْ إليّ بعيون خائفة. حتى أنه قد بدا لي أن جميع الأطفال الخمسة كانوا هناك، وكلهم نظروا إليّ. اقتربتُ من الباب، وفتحته الخادمة لي من الداخل وخرجتْ. وكان أول شيء لفت انتباهي هو ثوبها ذي اللون الرمادي الفاتح، وقد أُلقي على كرسي، وجميعها ملطخة بالدماء. كانت مستلقية على واحدة من الأسرة المزدوجة (على سريري، لأنه كان من الأسهل لها الوصول إليه)، مع امتداد ركبتيها. وقد وضعتْ منبسطة في وضع مائل جداً تدعمه الوسائد، مع سترتها مفكوكة، غير مُزَرّرة، لقد تم وضع شيئاً ما على الجرح. وكان هناك رائحة ثقيلة من اليودوفورم في الغرفة. ما أدهشني أولاً وقبل كل شيء كان وجهها المتورّم والمليء بالكدمات الزرقاء، على جزء من الأنف، وتحت العيون. وكان هذا نتيجة الضربة التي أصابتها بكوعي عندما حاولتْ أن تعيدني وتمنعني من الركض وراءه. لم يكن هناك شيء جميل عنها، ولكنه شيء مثير للإشمئزاز كما بدا لي.

توقفتُ على العتبة.. قالت لي شقيقتها:

"اصعد إليها، هيا"..

رحتُ أفكّر، وأنا أحاول أن أكون شهماً:

"نعم، لا شك أنها تريد أن تعترف، هل عليّ أن أغفر لها؟ نعم، إنها تحتضر، ويجب أن يُغفر لها"، صعدتُ، اقتربتُ منها. رفعتْ عينيها بصعوبة، نظرتْ إليّ، كانت إحداهما سوداء، وبذلتْ جهداً كبيراً لكي تقول لي:

"لقد وجدتَ طريقك، قتلت... "

ومن خلال نظرة المعاناة، وأيضاً لاقتراب الموت، كان وجهها يحمل نفس التعبير القديم عن الكراهية القاسية للحيوانات، والتي عرفتها جيدًا.

وتابعتْ حديثها بصعوبة، وبكلمات جاءت مُتَقَطّعة.. قالت:

"أنا لن أسمح لك... بالأطفال، كلهم... إنها (تعني أختها) سوف تأخذهم..."

أما فيما يخصّني، فكان هو الأمر الأكثر أهمية، هو جُرمها، شعورها بالذنب، خيانتها، فقد بدتْ وكأنها تعتبره أقل من أن تتحدث عنه..

وتابعتْ، بينما كانت تنظر تجاه الباب، وتجهش بالبكاء:

"نعم، انظر، وليعجبك ما قمتَ بفعله"

وعند المدخل وقفتْ أختها مع الأطفال..وكان صوتها يضعف، ونبرتها ترسل كلمات متقطعة:

"نعم، انظر ماذا فعلت"..

نظرتُ إلى الأطفال، وعلى وجهها المصاب بالرضوض والمُشَوّه، ولأول مرة نسيتُ نفسي، حقوقي، كبريائي، ولأول مرة، شاهدتُ إنسانًا في داخلها، وأن شيئاً تافهاً ضئيلاً قد تسبّبْ في كل ما أزعجني، وفي كل غيرتي، يبدو، وكم هو هاماً للغاية، هذا الفعل الذي قمتُ به، أنني كنتُ أريد أن أنكبَّ على وجهي بين يديها، وأقول لها:"سامحيني"

ولكننّي لم أجرؤ على أن أفعل ذلك. كانت تستلقي صامتة، وهي تُغلقُ عينيها، من الواضح أنها ضعيفة أكثر من أن تقول لي المزيد. ثم ارتعد وجهها المشوه، وتَغَضّن. ودفعتني بعيداً بضعف شديد.. مُتَسائلة:

"لماذا حدث كل هذا؟ لماذا؟"..

قلتُ لها:

"سامحيني".

"أسامح!، كل هذا كلام فارغ!... فقط لكي لا تموت!..."

وراحت تبكي، ورفعتْ نفسها قليلاً، وعيناها المتلألئتان كانتا تتجهان نحوي، ترشقانني بنظرات قاسية، وقالت:

"نعم، لقد حصُلتَ على ما تريد!... إنني أكرهك! آه! آه!"

واستمرّتْ في البكاء..

وكان من الواضح أنها قد دخلت بالفعل في نوبة من الهذيان والخوف من شيء ما.. فقد بدأت تصيح:

"اقتلني! إننّي لستُ خائفة!... فقط اقتل الجميع...! لقد ذهب...! ذهب...!"

بعد ذلك استمر الهذيان طوال الوقت، ولم تتعرف على أحد، وماتت قبيل الظهر في نفس اليوم، وقبل ذلك أخذوني إلى مركز الشرطة ومن هناك إلى السجن، وهناك، خلال الأحد عشر شهراً، بقيتُ في انتظار المحاكمة، لقد قمت بمراجعة نفسي وماضيّ، وفهمته..

وقد بدأتُ أفهمه في اليوم الثالث: ففي اليوم الثالث أخذوني إلى *هناك* ...

لقد كان مستمراً في سرد قصّته، ولكنه لم يستطع أن يكتم نحيبه ونشيجه، فتوقف، غير قادر على كبح تنهداته، وعندما استعاد نفسه، قال:

- بدأت أفهم فقط عندما رأيتها في نعشها...

وهنا توقف لكي يتنهّد تنهيدة، لكنه استرسل مُباشرة على عجل:

- فقط عندما رأيتُ وجهها الميت، فهمتُ كل ما قمتُ به، أدركتُ أنني، أنّني، قد قتلتها، وأنه بسبب ما فعلته، بعد أن كانت تعيش، تتحرك، دافئة، أما الآن فهي بلا حراك، وقد أصبحتْ شاحبة وناعمة مثل الشمع، باردة، وأن كل هذا لا يمكن أبداً، في أيّ مكان، أو بأيّ وسيلة، أن يُعَالجْ، ومن لم يعش من خلال مثل هذه الحياة، فلن يستطع أن يفهمه. أوه! أوه! أوه!...

ولقد كان يبكي عدة مرات.. ثم صمتْ. وجلسنا كلانا في صمتْ لفترة طويلة. وظلّ يبكي، ينتحب ويرتجف، وهو يجلس أمامي دون أن يتحدث، وكان وجهه قد أصبح ضيقًا وممتدًا، ويبدو أن فمه كان يمتدّ أيضاً عبر وجهه، إلا أنه قال فجأة:

- نعم، لو عرفتُ حينها ما أعرفه الآن، لسارتْ الأمور كلها بشكل مختلفاً. لم يكن شيئاً يدفعني إلى الزواج منها.... لم يكن ينبغي لي أن أتزوج على الإطلاق.

ومرة أخرى، ظللنا صامتين لفترة طويلة.. ابتعدْ عنّي، واستلقى على المقعد، وقد غطي نفسه بغطاء من النسيج المنقوش. وفي المحطة حيث اضطررتُ للخروج (وكان ذلك في الساعة الثامنة صباحاً)، صعدتُ إليه لكي أودّعه، وسواء كان نائماً، أو أنه كان يتظاهر بأته كان نائماً فقط، فعلى أية حال، لم يتحرك، ولمسته بيدي، فكشف عن وجهه، وقد استطعتُ أن أعرف أنه لم يكن نائماً. فقلتُ له:

- وداعاً..

ومددتُ له يدي، ومدّ لي يده، مُبتسماً ابتسامة خفيفة، بشفقة شديدة، لدرجة أنني شعرتُ بأنني مُستعدّ للبكاء."

- نعم، سامحني...

و كرّر نفس الكلمات، التي أنهى بها قصته.

إن الله يرى الحقيقة، ولكنه يمهلنا

في مدينة فلاديمير، عاش تاجر شاب، يدعى إيفان دمريتش "أكسيونوف ". كان لديه متجرين ومنزل خاص به.

كان "أكسيونوف " زميلًا وسيمًا وذو شعر أشقر، مجعد، ممتلئًا بالمرح، ومولعًا بالغناء. عندما كان شابًا كان مُدمناً للشرب، وكان عربيداً مُشاغبًا عندما يتناول الكثير من الشراب، ولكنه بعد الزواج، توقّف عن الشُرب، فيما عدا بين الحين والآخر. وفي أحد أيام الصيف، كان "أكسيونوف " متوجهاً إلى معرض نيزني، وبينما كان يودّع عائلته، قالت له زوجته:

- إيفان دميتريتش، لا تبدأ اليوم؛ لقد كان لديّ حلماً سيئاً عنك.

ضحك "أكسيونوف "، وقال:

- أنتِ خائفة من أنني عندما أذهب إلى المعرض، سوف أنغمس في المرح والشُرب.
- لا أدري ما أخاف منه؛ كل ما أعرفه هو أنه كان لديّ حلماً سيئاً. فقد حلمتُ أنك عدت من المدينة، وعندما خلعتَ القُبّعة، رأيتُ أن شعركَ كان رماديًا تمامًا.

ضحك "أكسيونوف ". قال:

- هذه فأل خير!. حاولي أن تعرفي ما إذا كنتُ لم أبع كل ما عندي من السلع، وأشترِ لك بعض الهدايا من المعرض. ثم ودّع أسرته، ومضى في طريقه.

وعندما قطع نصف الطريق، إلتقى تاجرًا كان يعرفه، وقضيا ليلتهما في نفس النزل.

وتناولا بعض الشاي معًا، ثم ذهبا إلى الفراش في غرف متجاورة.

ولم يكن من عادة "أكسيونوف " أن ينام متأخراً، ورغبة منه في السفر بينما كان الجو لا يزال باردًا، أيقظ سائقه قبل الفجر، وطلب منه أن يُعِدّ الخيول. ثم شق طريقه إلى مالك النزل(الذي كان يعيش في كوخ في الخلف)، ودفع فاتورته، واستمر في رحلته. وعندما قطع مسافة نحو خمسة وعشرين ميلاً، توقّف لإطعام الخيول.

إستراح "أكسيونوف " لبعض الوقت في ممشى النزل ثم دخل في الشرفة، وأمر بإناء إعداد الشاي ليتم تسخينه وأخرج غيتاره وبدأ العزف.

فجأة ظهرت عربة تجرها ثلاثة خيول، مع رنين الأجراس، وترجّل منها ضابط، ثم تبعه جنديان. وتوجه إلى "أكسيونوف " وبدأ في إستجوابه، وسأله من يكون، ومن أين جاء. أجابه "أكسيونوف " بالكامل وأردف قائلاً:

- ألن تتناول معي كوباً من الشاي ؟ ولكن الضابط تابع إستجوابه وسأله:
- أين قضيت الليلة الماضية؟ هل كنتَ وحدك أم مع تاجر زميل؟ هل رأيت التاجر الآخر هذا الصباح؟ لماذا تركت النزل قبل الفجر؟

واندهش "أكسيونوف "، لماذا سُئِل كل هذه الأسئلة، ولكنه وصف كل ما حدث، ثم سأل الضابط:

- لماذا إستجوبتني كما لو كنتُ لصاً أو سارقاً؟ إنني أسافر من أجل أعمالي الخاصة بي، وليس هناك حاجة لإستجوابي. فنادى الضابط على الجنود ثم قال له:

- أنا ضابط شرطة في هذه المقاطعة، وأنا أستجوبك لأن التاجر الذي قضيت معه الليلة الماضية قد تم العثور عليه مذبوحاً. ويجب أن نفتش الأشياء الخاصة بك.

ثم دخلوا المنزل. وقام الجنود وضابط الشرطة بتفكيك أمتعة "أكسيونوف " وتفتيشها. وفجأة سحب الضابط سكيناً من إحدى الحقائب، وصاح فيه:

- لمن هذا السكين؟

فنظر "أكسيونوف " مرتعداً، فقد رأى سكينًا ملطخًا بالدماء بعد أن أخرجها الضابط من حقيبته، وسأله الضابط في نبرة صارمة:

- كيف يمكن أن يحدث ذلك، ومن أين جاءت هذه الدماء على هذا السكين؟

حاول "أكسيونوف " الإجابة ، لكنه بالكاد ينطق بكلمة، وقد تعثّر تماماً في الحديث:

- أنا، إنني، لا أعرف، إنها ليست لي.

- لقد تم العثور على التاجر في السرير مذبوحاً هذا الصباح. وأنت الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه أن يفعل ذلك. فقد كان المنزل مُغلقاً من الداخل، ولم يكن هناك أحد آخر. كما أن هذه السكين الملطخة بالدماء كانت في حقيبتك، وها هو وجهك وسلوكك يفضحان أمرك!، هيا أخبرني، كيف قتلته، وكم من المال سرقت؟ وأقسم "أكسيونوف " أنه لم يفعل ذلك؛ وأنه لم يرَ التاجر بعد أن تناولا الشاي معًا؛ وأنه ليس لديه مال إلا ثمانية آلاف روبل وهي أمواله الخاصة، وأن السكينة لم تكن له أو تخصه. إلا أن صوته كان ضعيفاً، وكلماته كانت متقطعة، ووجهه شاحباً، وكان يرتجف من الخوف كما لو كان مذنباً.

فأمر ضابط الشرطة الجنود بربط "أكسيونوف " ووضعه في العربة. وبينما ربطا قدميه مع بعضهما، وطرحاه في العربة، رسم "أكسيونوف " الصليب على صدره وإنخرط في البكاء. وأخذوا منه أمواله وبضاعته، وأُرسلوه إلى أقرب بلدة حيث تم سجنه هناك. كما تم إجراء استعلامات حول شخصيته في مدينة فلاديمير.

قال التجار وغيرهم من سكان تلك المدينة أنه في الأيام السابقة كان قد إعتاد أن يشرب ويضيع وقته، لكنه كان رجلاً صالحًا. ثم جاءت نتيجة المحاكمة لتعلن: أنه قد تم إتهامه بقتل تاجر من مدينة ريازان، وسرقة 20 ألف روبل منه.

كانت زوجته في حالة من اليأس، ولم تكن تعرف ماذا تصدق. كما كان أطفالها جميعهم صغارًا؛ كان الأصغر منهم لا يزال رضيعاً في صدرها. وإصطحبتهم معها جميعًا، عندما ذهبت إلى المدينة التي كان بها زوجها في السجن.

في البداية لم يُسمح لها برؤيته؛ ولكن بعد الكثير من التوسل، حصلتْ على إذن من المسؤولين، وتم نقلهم إليه.

عندما رأت زوجها في ثوب السجن وفي السلاسل، ومسجون مع اللصوص والمجرمين، سقطت مغشياً عليها ولم تسترد وعيها إلا بعد فترة طويلة. ثم وجهت أولادها إليه، وجلست بالقرب منه. وأخبرته عن الأمور التي تخص المنزل، وسألته عما حدث له. فروى لها كل ما حدث، وسألته:

- وماذا يمكننا أن نفعل الآن؟
- يجب أن نقدّم طلب إسترحام إلى القيصر حتى لا يدع رجلاً بريئاً يهلك ظُلماً.

فأخبرته زوجته أنها قد أرسلت فعلاً عريضة إلى القيصر، لكنها لم يتم قبولها.

لم يردّ عليها "أكسيونوف "، ولكنه بدا منقبضاً محزوناً. ثم قالت زوجته مُسترسلة:

- إن هذا يفسر الحلم الذي حلمتُ به عندما رأيتُ في الحلم أن شعرك قد تحول إلى اللون الرمادي. هل تتذكّر؟ لم يكن عليك أن تغادر في ذلك اليوم.

ومرّرت أصابعها عبر شعره في حنان، ثم قالت:

- فانيا، يا أعز الناس، أخبر زوجتك بالحقيقة؛ هل لم يكن أنتَ الذي فعل ذلك؟

- إذن أنتِ أيضًا تشتبهين فيّ!

سألها "أكسيونوف " مندهشاً، ودفن وجهه بين راحتيه، وأجهش بالبكاء. وجاء جندي ليقول إن الزوجة والأولاد يجب أن يرحلوا. وودّع "أكسيونوف " عائلته لآخر مرة. وعندما ذهبوا، بدأ "أكسيونوف " يتذكّر ما دار بينه وبين زوجته من أحاديث،وعندما تذكّر أن زوجته أيضاً كانت قد إشتبهت به، قال لنفسه:

"يبدو أن الله وحده هو الذي يمكنه معرفة الحقيقة، وإليه وحده يجب أن نلجأ، ومنه وحده ننتظر الرحمة".

ولم يكتب "أكسيونوف " إلتماسات أخرى. بل فقد تماماً كل الأمل، وراح فقط يُصَلّي ويبتهل إلى الله. وصدر عليه الحكم بالجَلْد، وأُن يُرسَل إلى العمل بالمناجم. ولذا فقد تعرّض للجَلْد بالسوط، وعندما تم التئام الجروح التي أحدثها السوط، تم نقله إلى سيبيريا مع محكومين آخرين.

وهكذا عاش "أكسيونوف " لمدة ستة وعشرين سنة سجيناً في سيبيريا.

وقد تحول شعره إلى اللون الأبيض الثلجي وأصبحت لحيته طويلة، رقيقة، ورمادية اللون.

لقد ذهب كل مرحه، وانحنى ظهره، وكان يمشي ببطء، ويتحدث قليلاً، ولم يكن يضحك أبدًا، إلا أنه كان يُصَلّي كثيرًا.

وفي السجن، تعلّم "أكسيونوف" صنع الأحذية، وكسب القليل من المال، الذي اشترى به كتاب "حياة القديسين". وكان يقرأ في هذا الكتاب عندما يجد هناك ما يكفي من الضوء في السجن؛ وفي أيام الأحد كان يقرأ الدروس ويغنّى في الكورال أو الجوقة في كنيسة السجن؛ فقد كان صوته لا يزال جيداً عذباً. وكانت سلطات السجن تحب "أكسيونوف" على وداعته، كما إكتسب إحترام زملائه في السجن، الذين أطلقوا عليه إسم "الجد" وأيضاً "القديس".

وعندما كانوا يرغبون في تقديم إلتماسات إلى سلطات السجن حول أي شيء، كانوا دائماً يجعلون "أكسيونوف " المتحدث باسمهم، وعندما كانت هناك مشاحنات بين السجناء جاءوا إليه لوضع الأمور في نصابها الصحيح، والحكم على الأمور. لم تصل أيّة أخبار إلى "أكسيونوف " من منزله، أو عن أسرته، ولم يكن يعرف حتى إذا كانت زوجته وأطفاله لا يزالون على قيد الحياة.

وذات يوم، جاءت عصابة جديدة من المحكومين إلى السجن. في المساء، تجمع السجناء القدامى حول المساجين الجدد، وسألوهم عن البلدات أو القرى التي أتوا منها، وعن ماهية الجرائم التي حُكم عليهم بسببها.

وبين الباقين، جلس "أكسيونوف " بالقرب من القادمين الجدد، واستمع إلى ما كان يُقال في جو حزين وكئيب، كان أحد المدانين الجدد، وهو رجل طويل القامة، قوي البنية، يبلغ من العمر نحو الستين عامًا، وله لحية رمادية تم تسويتها بعناية، كان يُخبر الآخرين بالعمل الذي قُبض عليه من أجله. قال:

- حسنًا أيها الأصدقاء، إن كل ما فعلته، هو أنني أخذتُ حصانًا كان مربوطًا بزلّاجة، وتم إلقاء القبض عليّ واتهامي بالسرقة. فقلت لهم أنني أخذته فقط للوصول إلى المنزل بشكل أسرع، وبعدها أتركه؛ إلى جانب ذلك، كان السائق صديقًا شخصياً لي. لذلك قلت، "كل شيء على ما يرام".

قالوا:

"لا ، لقد سرقتها".

ولكن كيف سرقته، أو أين سرقت، إنهم لم يستطيعوا أن يقولوا. لقد ارتكبتُ فعلاً خطأً في أحد الأيام، وكان يجب عليّ أن آتي إلى هنا منذ فترة طويلة، لكن في ذلك الوقت لم يتمكن أحد من أن يكشفني. أما الآن فلقد أرسلتُ إلى هنا من أجل لا شيء على الإطلاق.. إيه، لكن كل ما أخبركم به هو محض أكاذيب، فلقد أرسلتُ إلى سيبيريا من قبل، ولكنني لم أبقَ طويلًا.

وهنا سأله أحدهم مُقاطعاً:

- من أي بلد أنت؟

- إنني من مدينة فلاديمير. عائلتي من تلك المدينة. إسمي "مَكار"، ويطلقون عليّ أيضاً اسم "سيميونيتش".

ورفع "أكسيونوف " رأسه وقال له:

- أخبرني، سيميونيتش، هل تعرف أي شيء عن أسرة التاجر "أكسيونوف "، من فلاديمير؟ هل ما زالوا على قيد الحياة؟

- هل أعرفهم؟، بالطبع أعرفهم. إن آل "أكسيونوف " أغنياء، على الرغم من أن والدهم في سيبيريا، فهو خاطئ مثلنا، فيما يبدو! ، أما بالنسبة لك يا"جَدّي"، كيف أتيت إلى هنا؟

ولم يكن "أكسيونوف " يحب التحدث عن سوء حظه. فاكتفى بأن تنهد وقال:

- من أجل خطاياي، ظللتُ هنا في السجن هذه الفترة، ستة وعشرون عاماً.

- وما هي هذه الخطايا؟

لكن "أكسيونوف " إكتفى بأن قال:

- حسنًا، حسنًا، ربما أكون أستحق ذلك!

ولم يكن يرغب في أن يقول أكثر من ذلك، لكن رفاقه أخبروا الوافد الجديد كيف أصبح "أكسيونوف " سجيناً في سيبيريا: كيف قتل أحدهم تاجرًا ووضع سكينًا بين أشياء "أكسيونوف "، وهكذا أدين "أكسيونوف " ظلماً.

عندما سمع "مكار سيميونيتش" هذا، نظر إلى "أكسيونوف "، وربت على ركبته،

وصاح:

- حسنًا، هذا رائع!، حقاً رائع!، ولكن كم عمرك، يا جَدّي!

سأله الآخرون عن سبب دهشته، وأين رأى "أكسيونوف " من قبل؛ لكن ماكار

سيميونيتش لم يردّ. قال فقط:

- إنه لأمر رائع أن نلتقي هنا، أيها الفتيان!

وجعلت هذه الكلمات "أكسيونوف" يتساءل عما إذا كان هذا الرجل يعرف من قتل التاجر؛ فقال له:

- ربما، سيميونيتش، تكون قد سمعت بهذه القضية، أو ربما كنتَ قد رأيتني من قبل؟

- كيف يمكن أن يفيد ما سمعت؟ إن العالم مليء بالشائعات. ولكن ذلك حدث منذ زمن طويل، ولقد نسيتُ ما سمعت.

- ربما تكون قد سمعتَ عمن قتل التاجر؟

فضحك "مكار سيميونيتش"، وأجابه قائلاً:

- ربما كان هو الذي عثروا على السكين في حقيبته! إذا قام شخص آخر بإخفاء السكين هناك، "فهو ليس لصًا حتى يتم القبض عليه"، كما يقول المثل. فكيف يمكن لأي شخص أن يضع سكيناً في حقيبتك بينما كانت تحت رأسك؟ من المؤكد أن ذلك من شأنه أن يوقظك؟

عندما سمع "أكسيونوف" هذه الكلمات، شعر أنه متأكد من أن هذا هو الرجل الذي قتل التاجر. فنهض وذهب بعيداً. وطوال تلك الليلة إستلقى "أكسيونوف" مستيقظاً. لقد شعر بعدم الرضا الشديد، وتوالت كل أنواع الصور في ذهنه. فكانت هناك صورة زوجته، كما كانت عندما غادرها للذهاب إلى المعرض. رآها كما لو كانت موجودة معه؛ صورة وجهها وعينيها ظهرت أمامه. وسمعها تتكلم

وتضحك ثم رأى أطفاله، مجرد صغار، كما كان الحال في ذلك الوقت: واحد منهم يرتدي معطفاً صغير، وآخر في صدر أمه.

ثم تذكّر نفسه كما اعتاد أن يكون، شابًا ومرحًا.

لقد تذكّر كيف جلس وهو يعزف على الجيتار في شرفة النزل حيث تم القبض عليه، وكيف أصبح بلا رعاية أو اهتمام من أحد. لقد رأى، بعيني ذهنه، المكان الذي تعرّض فيه للجَلْد، والجلاد، والأشخاص الذين يقفون حوله؛ السلاسل، المحكومين، طوال الستة وعشرين سنة من عمره التي قضاها في السجن، وكِبَرَ سنه السابق لأوانه. كما فكّر في كل ما جعله بائسًا لدرجة أنه كان مستعدًا لقتل نفسه والانتحار.

"وهذا هو كل ما يفعله الشرير!"

هكذا كان "أكسيونوف " يفكّر. وكان غضبه عظيماً للغاية ضد ماكار سيميونيتش لدرجة أنه كان يتوق إلى الثأر والإنتقام منه، حتى لو كان هو نفسه سوف يهلك من أجل ذلك. وظَلّ يكرّر الصلاة طوال الليل، لكنه لم يستطع الشعور بالسلام. وخلال النهار لم يستطع أن يقترب من ماكار سيميونيتش، ولا حتى أن ينظر إليه.

مرّ أسبوعان على هذا النحو.

لم يستطع "أكسيونوف " النوم ليلاً ، وكان بائساً لدرجة أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل. في إحدى الليالي بينما كان يتجول في السجن، لاحظ بعض التراب الذي تدفق

من تحت أحد الألواح الخشبية التي ينام عليها السجناء. فتوقف لمعرفة ما الأمر. فجأة، زحف "مكار سيميونيتش" مُتسللاً من تحت الرف، ونظر إلى أعلى إلى "أكسيونوف " بوجه خائف مذعور. حاول "أكسيونوف " المرور دون أن ينظر إليه، لكن مكار أمسك بيده وأخبره أنه قد حفر حفرة تحت الحائط، وللتخلص من التراب فإنه يضعه في حذائه المرتفع، ويفرغه كل يوم على الطريق، عندما يتم نقل السجناء إلى عملهم. ثم قال له مُحَذّراً مُتوعّداً:

- فقط عليك الصمت، أيها الرجل العجوز!، وسوف أخرجك أنت أيضاً من هنا، وإذا أنت أفشيت هذا السر وثرثرت كثيراً، فإنهم سوف يجلدونني حتى الموت، ولكنني سأقتلك أولاً.

فارتعد "أكسيونوف " من الغضب وهو ينظر إلى عدوّه. وسحب يده بعيدًا بقوة، قائلاً:

- لتعلم أنني ليس لديّ أيّ رغبة في الهروب، كما أنك لستَ بحاجة لأن تقتلني فلقد قتلتني منذ زمن طويل!، أما فيما يتعلق بإفشاء سِرّك، هل أفعل ذلك أم لا، فاترك ذلك إلى مشيئة الله.

وفي اليوم التالي، عندما تم إخراج المساجين إلى العمل، لاحظ الجنود الذين يرافقون القافلة أن أحد السجناء قد أفرغ بعض الأتربة من حذائه. فتم تفتيش السجن، واكتشاف النفق.

جاء آمر السجن، واستجوب جميع السجناء لمعرفة من الذي حفر الحفرة. إلا أنهم جميعاً أنكروا أي علم بهذا الأمر. إن أولئك الذين كانوا يعرفون، لن يخونوا

"مكار سيميونيتش"، لعلمهم أنه سوف يُجلد حتى الموت. وأخيرًا، إستدار آمر السجن إلى "أكسيونوف "، الذي عُرف عنه أنه رجل عادل ومستقيم، وقال:

- أنت رجل عجوز صادق. أخبرني، أمام الله، من الذي حفر الحفرة؟

وقف "مكار سيميونيتش" كما لو كان غير مهتم تمامًا وغير معني بهذا الأمر، ينظر إلى الضابط الآمر، ولكن ليس كما كان ينظر إلى "أكسيونوف ". الذي إرتجفتْ شفتاه ويداه، ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة لفترة طويلة. فقد كان يفكر في نفسه:

"لماذا يجب عليّ أن أتستّر على الرجل الذي دمّر حياتي؟ سوف أدعه يدفع ثمن ما عانيت منه. ولكنني إذا أفشيتُ سِرّه، فمن المحتمل أن يجلدوه حتى الموت، وربما كنتُ أشتبه به بالخطأ ظلماً. وبعد كل شيء، ما الفائدة التي تعود عليّ من ذلك؟ "

وكرر آمر السجن إستجواب "أكسيونوف " مرة أخرى:

- حسناً، أيها الرجل العجوز، هيا أخبرنا بالحقيقة: من الذي حفر تحت الجدار؟

ونظر "أكسيونوف " إلى "مكار سيميونيتش"، وقال:

- لا أستطيع أن أقول ، يا سيدي. إنها ليست مشيئة الله أن أقول! افعل بي ما تحب، إنني بين يديك.

ومهما حاول الحاكم، لم يقل "أكسيونوف " المزيد، ولذا فقد تركوا الأمر دون نتيجة.

في تلك الليلة، وعندما كان "أكسيونوف " يرقد على سريره، وبدأ للتوّ يغفو، جاء أحدهم بسرعة وجلس على سريره. فراح يُمعن النظر من خلال الظلام وتعرّف على مكار. فسأله:

- ماذا تريد مني أكثر من ذلك؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟

كان ماكار سيميونيتش صامتًا.

فجلس "أكسيونوف " وقال:

- ماذا تريد منّي؟ إبتعد، وإلا فسوف أنادي الحرس!

فانحنى ماكار سيميونيتش بالقرب من "أكسيونوف "، وهمس:

- إيفان ديميتريتش، سامحني!

- لِمَ؟، أسامحك على ماذا؟

- لقد كنتُ أنا من قتل التاجر وأخبأ السكين بين أمتعتك وأغراضك. ولقد قصدتُ أن أقتلك أنت أيضًا، ولكنني سمعتُ ضجةً في الخارج؛ لذلك أخفيتُ السكين في حقيبتك، وهربتُ إلى الخارج من النافذة.

كان "أكسيونوف " صامتاً، ولم يكن يعرف ماذا يقول. وإنزلق ماكار سيميونيتش على لوح السرير الخشبي، وركع على الأرض. وقال:

- إيفان دميتريتش، سامحني! حباً في الله، إغفر لي!، وسوف أعترف بأنّني أنا من قتل التاجر، وسوف يتم إطلاق سراحك، ويمكنك الذهاب إلى منزلك إنه من السهل عليك أن تتحدث، ولكنّني عانيتُ بسببك ستة وعشرين عامًا. إلى أين

يمكنني أن أذهب الآن؟.. لقد ماتت زوجتي، ونسيني أولادي. وأصبح هنا هو المكان الذي يُمكنني أن أذهب إليه!.

ولم ينهض "مكار سيميونيتش"، بل راح يضرب رأسه على الأرض.

- إيفان دميتريتش، إغفر لي!

وانخرط في البكاء.

- عندما جلدوني بالسوط، لم يكن ذلك أكثر صعوبة مما أتحمله الآن بسبب رؤيتك..

- ومع ذلك لا يزال لديك شفقة عليّ، ولم تُفشي سِرّي. من أجل المسيح إغفر لي، يا لِيَ من تعيس بائس! وبدأ يبكي وينتحب.

عندما سمعه "أكسيونوف " وهو يبكي، بدأ هو أيضاً في البكاء.

- سوف يغفر اللهُ لك!.. وربما أكون أسوأ منك مائة مرة.

وبعد هذه الكلمات شعر بقلبه ضعيفاً، ولم يَعُدْ يشعر بالتوق إلى العودة إلى منزله. كما لم يَعُدْ لديه أيّ رغبة في مغادرة السجن، ولكنه كان يأمل فقط في منيّته، وأن يغادر الحياة.

وعلى الرغم مما قاله "أكسيونوف"، فقد إعترف "مكار سيميونيتش" بجريمته. ولكن عندما جاء أمر إطلاق سراحه، كان "أكسيونوف " قد مات بالفعل.

***

حيث يوجد الحب هناك الله أيضا

كان الإسكافي ""مارتن" أفديتش" يعيش في المدينة، في قبو، به غرفة صغيرة لها نافذة واحدة، تطل على الشارع مباشرة، وقد إعتاد أن يشاهد الناس المارّة من خلال هذه النافذة، على الرغم من أن أقدامهم فقط هي التي كان يمكنه رؤيتها إلا أن "مارتن" أفديتش كان يتعرّف على الناس عن طريق أحذيتهم، ولقد عاش لفترة طويلة في مكان واحد، وأصبح لديه الكثير من المعارف، وكانت القليل من الأحذية في الحيّ هي التي لا تمرّ أمامه مرة تلو الأخرى، البعض منهم كان يركّب لها نصف نعل، والبعض الآخر كان يرقّعها، والبعض الآخر كان يخيطها، وأحيانًا يركّب لها البعض وجوها جديدة.

وعبر النافذة، غالبًا ما كان يتعرّف على عمله، كما كان لدى "مارتن" الكثير من العمل للقيام به، لأنه كان عاملاً مُخلصًا، وكان يستخدم مواداً جيدة، ولم يكن يطلب أجراً باهظاً، كما كان من طباعه الوفاء بوعوده، فإذا كان في إمكانه أن يُنهي العمل في الوقت المحدد المطلوب، فإنه يقبل العمل، وإلا فإنه لن يخدعك، بل أنه سوف يخبرك مُسبقًا أو سلفاً بعدم إمكانه أن يُنهي العمل في الوقت المطلوب منه، وكان الجميع يعرفون أفديتش، ولم يكن أبداً عاطلاً أو متوقفاً عن العمل، وقد عُرِف عنه دائمًا أنه رجلًا صالحًا، ولكن مع تقدمه في العمر، بدأ يفكر أكثر في شئون نفسه وروحه، ويقترب من الله أكثر، وكان لا يزال يعيش مع مخدومه

عندما توفيت زوجته، وتركت له إبنهما صبياً عمره ثلاث سنوات، حيث أنه لم يعش أيّ من أطفالهما الآخرون، ومات كل أخواته الأكبر منه في سن الطفولة.

وأراد "مارتن" في البداية إرسال إبنه الصغير إلى أخته في القرية، لكنه شعر بعد ذلك بالأسف والقلق تجاهه، ففكّر في نفسه:

"سيكون من الصعب على صغيري "كابيتوشكا" أن يعيش في أسرة غريبة ولذا فسوف أبقيه معي".

وترك أفديتش مخدومه، وذهب إلى مسكنه مع إبنه الصغير، ولكن الله لم يُعطِ أفديتش الحظ مع أولاده، إذ أنه عندما كبر كابيتوشكا، بدأ بمساعدة والده، وكان مصدر سرور وبهجة له، إلا أن المرض أصابه، فوقع طريح الفراش يعاني المرض، لمدة أسبوع، وتوفي بعدها. دفن "مارتن" إبنه، وسقط صريع اليأس والقنوط.

وكان هذا اليأس عميقًا لدرجة أنه بدأ يشكو من الله.

حتى سقط "مارتن" في مثل هذه الحالة السيئة من الحزن والكئابة، لدرجة أنه كان يصلي داعياً الله أكثر من مرة من أجل الموت، موجّهاً إلى الله اللوم والعتاب لأنه لم يأخذه هو من كان رجلًا مسنًا، ويُميته، بدلاً من إبنه الحبيب الوحيد.

وتوقف "مارتن" أيضًا عن الذهاب إلى دور العبادة.

وذات مرة حدث أن جاء رجل عجوز من نفس الحيّ، من دير الثالوث الأقدس، لرؤية "مارتن" والإطمئنان عليه، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يزوره فيها، فهو يتردد عليه منذ سبع سنوات، وتحدث "مارتن" معه، وبدأ يتذمّر من أحزانه ويشكو له همومه، قال:

"ليس لديّ أيّ رغبة في العيش أكثر من ذلك، إنني أتمنّى لو كنتُ ميتاً، وهذا هو كل ما أدعو الله وأصلّي من أجله، ولقد أصبحتُ رجلاً عجوزاً لا أمل له في شيء". فقال له الرجل الأصغر منه سناً:

انت لا تتحدث بشكل صحيح يا "مارتن"، فلا يجب علينا أن نحكم على تصرفات الله، فإن العالم لا يتحرك بناء على مشيئتنا، بل بمشيئة الله، ولقد قضى ربك أن يموت إبنك، وقضى لك بأن تعيش، وعليك أن تعلم أن ذلك هو الأفضل لك وفيه الخير من أجلك، وانت في حالة من اليأس، لأنك ترغب في العيش من أجل سعادتك الشخصية والخاصة. فسأله "مارتن" مندهشاً:

ولكن، ما الذي يجب على المرء أن يعيش من أجله؟

يجب أن نعيش من أجل الله، يا "مارتن". إنه يمنحك الحياة، ومن أجله يجب أن تعيش، فإنك عندما تبدأ في العيش من أجله، فلن تحزن على أيّ شيء، ولسوف يبدو كل شيء سهلاً بالنسبة لك.

وظل "مارتن" صامتاً للحظات، ثم كسر سكونه بالتساؤل:

ولكن كيف يعيش المرء من أجل الله؟

لقد علّمنا الله كيف نعيش من أجله!، ألا تعرف كيف تقرأ؟ عليك بالكتاب المُقَدّسْ، إقرأ فيه، عندئذ، سوف تتعلم كيف تعيش من أجل الله، لقد تم شرح كل شيء هناك.

ولقد أضاءت هذه الكلمات قلب أفديتش، فذهب في نفس اليوم، وأحضر الكتاب المُقَدّسْ، في طبعة بالحجم الكبير، وبدأ في القراءة.

وفي البداية أراد أفديتش أن يقرأ فقط في أيام العطلات، ولكنه بمُجرّد أن بدأ يقرأ، كان هناك ما يهتف في روحه بالبهجة، لدرجة أنه قرر أن يقرأ كل يوم.

في بعض الأحيان كان يستغرق تماماً في القراءة ، حتى يحترق كل الكيروسين الموجود في المصباح، وهو لا يزال غير قادر على أن يتوقف عن القراءة.

وهكذا إعتاد أفديتش أن يقرأ كل مساء، وكلما قرأ أكثر، كلما إنشرح قلبه أكثر، وأدرك ما أراده الله منه أن يفهمه، وكيف ينبغي للمرء أن يعيش من أجل الله، وظل قلبه ينمو مُنشَرِحاً أكثر وأكثر، وقد كان في السابق، عندما يستلقي للنوم، كان قد إعتاد أن يتنهّد ويتأوّه، ويفكر دائمًا في إبنه كابيتوشكا أما الآن فقد أصبح الهتاف الوحيد لديه هو:

الحمدُ لك يارب! الحمدُ لك يا ألله! تجَلّتْ مَشيئتك.

ومنذ ذلك الحين، تغيرت حياة "مارتن" بأكملها.

وفي الأيام الأخرى، إعتاد "مارتن" أيضًا أن يذهب إلى مأوى إجتماعي كتسلية ليوم عطلته، لكي يتناول كوبًا من الشاي، ولم يكن يكره القليل من القهوة، أيضًا، فكان يتناولها مع بعض معارفه، وبعدها يترك الصالون، في حالة نفسية جيدة وسعيدة، ولا يكون لديه ميلاً إلى الحديث عن الهراء، والصراخ ، واستخدام لغة مسيئة إلى أيّ شخص.

والآن قد ترك هذا النوع من الأشياء، وأصبحت حياته هادئة وبهيجة، ففي الصباح، كان يجلس للعمل، ويُنهي مهمته المخصصة، ثم يأخذ المصباح الصغير من الخطّاف، ويضعه على الطاولة، ومن ثم يحصل على كتابه المُقَدّس من الرف،

يفتحه، ويجلس للقراءة، وكلما قرأ، زاد فهمه، وازداد سطوعه في قلبه، وإزدادت سعادته، وبمجرد حدوث ذلك، كان "مارتن" يقرأ حتى وقت متأخر من الليل.

بعد أن قرأ "مارتن"، ملأت البهجة روحه، خلع نظارته، ووضعها بجانب الكتاب، وانحنى بالمرفقين على الطاولة، واستغرق في الفكر، وبدأ في قياس حياته بهذه الكلمات التي قرأها، وفكر في نفسه:

"هل بُني منزلي على الصخر، أم على الرمال؟ إنه على ما يرام إذا كان على الصخر، إن الأمر يكون سهلاً جداً عندما تكون وحدك مع نفسك، وتبدو كما لو كنت قد فعلت كل شيء كما أمر الله، ولكن عندما تنسى نفسك، تخطئ مرة أخرى ومع ذلك لا يزال يتعين عليّ النضال، إن ذلك جيد جداً، ساعدني يا ألله!"

وهكذا رتب أفكاره، أراد أن يذهب للنوم، لكنه كان قد أصبح يمقت أن يبعد نفسه بعيدًا عن الكتاب المُقَدّسْ. وبدأ يقرأ مرة أخرى.

ومرة أخرى، قام أفديتش بخلع نظارته، ووضعها إلى جانب الكتاب، واستغرق مرة أخرى في التفكير. واستراح أفديتش برأسه على ذراعيه ولم يلاحظ أنه نائم.

""مارتن"".. بدا فجأة وكأنه يسمع هذا النداء في أذنيه..

بدأ "مارتن" من خلال نومه يحاول أن يفهم:

"من هنا؟"

والتفت حوله، ونظر نحو الباب، لا أحد.

ومرة أخرى سقط في غفوة، وفجأة، سمع بوضوح:

""مارتن"! آه، "مارتن"! انظر غداً في الشارع، فإنني سوف أحضر"

استيقظ "مارتن"..

ونهض من الكرسي، وبدأ يفرك عينيه، هو نفسه لم يستطع معرفة ما إذا كان قد سمع تلك الكلمات في حلمه أم في الواقع، فأخفض ضوء مصباحه وذهب إلى النوم..

وعند انبلاج الفجر في صباح اليوم التالي، نهض أفديتش، وصلى لله، وأشعل الموقد، ووضع عليه حساء الكرنب كما وضع العصيدة، ولم ينسَ أن يضع الماء في إناء إعداد الشاي "الساموفار"، وإرتدى المريول أو المِئزَر، وجلس إلى النافذة للعمل، وبينما كان يعمل، ظل يفكر في كل ما حدث في اليوم السابق.

ولقد بدا له في لحظة أنه كان حلماً، والآن قد سمع صوتًا حقيقياً، قال لنفسه: "حسنًا، لقد كانت مثل هذه الأمور تحدث"

كان "مارتن" جالسًا بجوار النافذة، يتطلع إلى الشارع أكثر مما كان يعمل، وعندما يمر أيّ شخص بحذاء لم يكن يعرفه، كان ينحني إلى الخارج، وهو ينظر من خلال النافذة ، لكي يرى هذا الحذاء، وليس فقط القدمين، بل الوجه أيضًا، ومرّ بوّاب المنزل مُرتدياً حذاءً جديداً مصنوع من اللبّاد، ثم مرّ ناقل المياة أو السَقّا، وبعدها جاء إلى النافذة جندي قديم من عهد "نيكولاس"، مُرتدياً زوجاً قديماً من الأحذية اللبّادية ذات الأربطة، مع مجرفة في يديه، وتعرّف عليه "مارتن" من خلال أحذيته اللبّادية، وكان إسم الرجل العجوز هو "ستيبانويتش"، وكان تاجراً من جيرته، وبدافع الصدقة والبِرّ، أعطاه مكاناً للإقامة معه في منزله، وكان مطلوباً منه مساعدة حارس المنزل، وبدأ ستيبانويتش

في جرف الثلج بعيداً عن واجهة نافذة أفديتش، الذي نظر إليه، ومن ثم تابع عمله مرة أخرى، وهو يقول لنفسه ضاحكاً:

"أفّ!، يبدو أنني سوف أصاب بالجنون في هذا السن المتأخر من عمري!، إن ستيبانويتش يزيل الثلج، وأنا أدرك أن الله يراني، سوف أجن تماماً، ياليَ من عجوز خرِف!"

خاط "مارتن" حوالي عشرة غُرزْ، ثم شعر بأن هناك ما يدفعه للنظر من خلال النافذة مرة أخرى، فنظر من جديد، ورأى أن ستيبانويتش كان يسند مجرفته على الحائط ، ويُدفيء نفسه، ويأخذ قسطاً من الراحة، فلقد كان رجلاً عجوزاً مُحطّماً، "من الواضح أنه لم يكن لديه القوة الكافية حتى لجرف الثلج"

قال أفديتش ذلك لنفسه، ولا زال يُفكّر:

"سوف أعطيه بعض الشاي، بالمناسبة، لقد انتهى الساموفار للتوّ من تسخين الماء"

ووضع أفديتش مِخراز الجلد، ونهض من مقعده، ووضع الساموفار على الطاولة، وصَبّ الشاي، ونقَر بإصبعه على الزجاج، فاستدار ستيبانويتش، وجاء إلى النافذة، فأشار أفديتش إليه يدعوه، ثم ذهب لكي يفتح له الباب قائلاً:

تفَضّل، أدفيء نفسك قليلاً ، فلا شكّ أنك تشعر بالبرد.

سوف يجازيك اللهُ خيراً على هذا! فإن عظامي تؤلمني!

ودخل ستيبانويتش، ونفض الثلج، وحاول أن يمسح قدميه، حتى لا يُلطّخ الأرض، لكنه ترَنّح وكاد يسقط أرضاً..

لا تقلق لمسح قدميك، فسوف أنظّف المكان بنفسي، ونحن معتادون على مثل هذه الأشياء، تعال وإجلس هنا، تَفَضّل، إشرب كوبًا من الشاي..

ورفع أفديتش كأسين، وسلّم واحدًا منهما لضيفه، وبينما كان يصُبّ الشاي لنفسه في صحن الفنجان، وبدأ ينفخ فيه لكي يبرد قليلاً، كان ستيبانويتش قد أنهى شرب فنجانه من الشاي، وقلب الفنجان رأسًا على عقب، ووضع عليه نصف قطعة من السكر، وبدأ في التعبير عن شكره، ولكنه كان من الواضح أنه يرغب في المزيد.

املأ المزيد..

قال له أفديتش ذلك وهو يملأ كوبه وكوب ضيفه، وشرب كوبه، ولكنه كان من وقت لآخر يُلقي نظرة سريعة على الشارع، فسأله الضيف:

هل تتوقع رؤية أي شخص؟

هل أتوقع أحداً؟ إنّني أشعر بالخجل حتى من أن أقول من أتوقع! أنا أتوقّع، وأنا لا أتوقّع شخصًا ما، لكن كلمة واحدة أضاءت شمعة في قلبي. وسواء كان حلماً، أو كان شيئاً آخر، لا أعرف، ألا تفهمني، يا أخي، لقد كنتُ أقرأ بالأمس في الإنجيل عن المسيح، كيف عانى، وكيف مشى على الأرض، أفترض أنك سمعت عن هذا؟

نعم، لقد سمعتُ حقاً عن هذا، ولكننا أناس نعيش في الظلام، لا نعرف القراءة..

حسنًا، الآن، كنتُ أقرأ عن هذا الأمر بالذات - كيف سار على الأرض، قرأتُ، كما تعلم، كيف أتى إلى "الفريسي"، ولم يعامله الفريسي كما يجب أن يُعامل الضيف، حسنًا، وهكذا يا أخي، كنتُ أقرأ بالأمس، عن هذا الموضوع بالذات، وكنتُ أفكر بنفسي، كيف لم يستقبل المسيح، بالتكريم، لنفترض، على سبيل المثال، أنه يجب أن يأتي إليّ، أو أيّ شخص آخر، قلت لنفسي، لن يتسنّى لي أبداً حتى معرفة كيفية استقباله، ولم يعطه أي ترحيب على الإطلاق، حسناً! بينما كنتُ أفكر هكذا، استغرقتُ في النوم، يا أخي، وسمعت أحدهم يناديني بإسمي، فنهضتُ، قال الصوت، كما لو أن أحدهم يهمس لي..

"كن على انتظار، سوف آتي في الغد"

وقد حدث هذا مرتين، حسناً! هل سوف تصدق ذلك، وأن كل هذا دخل في رأسي؟ لقد وبّختُ نفسي - ومع ذلك أتوقّع مجيئه!

هز ستيبانويتش رأسه، ولم يقل شيئًا، وبعد أن انتهى من تناول كوب الشاي، وضعه جانباً، ولكن أفديتش التقطه مرة أخرى، وملأه مُجدداً، وقدّمه للضيف قائلاً:

اشرب هذه الكمية الإضافية من أجل صحتك، فكما ترى، لديّ فكرة أنه عندما ذهب عيسى يجول على هذه الأرض، لم يأنف أو يزدري أحداً، وكان له علاقة أكبر بالناس البسطاء، بل كان يذهب دائماً لرؤية الناس البسيطة، كما اختار تلاميذه أكثر من بين القوم مثل هؤلاء المخطئين، مثلنا، من الطبقة العاملة، فهو

يقول، أن الذي يُمجّد نفسه، سوف يكون متواضعاً، وأما من يتواضع، فسوف يكون مُمجّداً.. أنت تناديني يا رب..

وأنا أغسل جسدك.. لكل من يرغب في أن يكون هو الأول..

سوف يكون هو نفسه خادماً للجميع.. فطوبى للفقراء..

والمتواضع، اللطيف، الكريم..

ونسي ستيبانويتش أمر الشاي، فلقد كان رجلاً عجوزاً، وراح يبكي بسهولة..

لقد كان يستمع، بينما إنهمرت الدموع على وجهه.

تعال الآن، لكي تتناول المزيد من الشاي..

قال أفديتش ذلك، لكن ستيبانويتش رسم علامة الصليب، وشكره، ووضع كأسه، وقام، قائلاً:

شكراً لك.. "مارتن" أفديتش، لمعاملتي بلطف، وإقناعي، سواء بالروح أو بالجسد..

مرحباً بك، تعال مرة أخرى، إنّني سعيد دائماً لرؤية صديق.

وغادر ستيبانويتش، وصَبّ "مارتن" بقية الشاي، وتناوله، ووضع الأطباق بعيدًا في مكانها، وجلس مرة أخرى بجوار النافذة للعمل، لكي يرتق رقعة ظل يرتقها، وفي الوقت نفسه ينظر من خلال النافذة.

كان يتوقع المسيح، وكان يفكر طوال الوقت فيه، وفي ما يفعله، وكان رأسه مُمتلئًا بخطب المسيح المختلفة. ومر به جنديان، كان أحدهما يرتدي أحذية مُزوّدة بالتاج، أما الآخر، فقد كان هو الذي صنع حذاءه، ثم مر صاحب البيت المجاور،

في الأحذية الجلدية اللامعة، ثم مر الخباز ومعه سلته، جميعهم مرّوا به، والآن جاءت أيضاً عبر النافذة سيدة في جوارب صوفية، وباشماك ريفي على قدميها، مرت بجانب النافذة، وظلت واقفة بالقرب من الإطار الخشبي للنافذة، فنظر "مارتن" إليها من النافذة، ورأى أنها كانت إمرأة غريبة، ترتدي ملابس سيئة، توحي بالفقر، ومعها طفل، وكانت تقف بجانب الحائط وظهرها في مهب الريح، تحاول أن تلفّ الطفل وتحتويه لحمايته من الريح، ولكن ليس لديها ما تلفّ نفسها به أو تلفّ الطفل به، بل أنها كانت ترتدي ملابس صيفية رثة بالية، ومن وراء الإطار، كان "مارتن" يسمع بكاء الطفل، بينما كانت المرأة تحاول تهدئته، إلا أنها لم تكن قادرة على ذلك، فنهض "مارتن"، وذهب إلى الباب، وصعد الدرجات، وراح يصيح بها:

يا أيتها المرأة الطيبة.. مرحباً!

أيها المرأة الطيبة!

وسمعته المرأة فاستدارت تجاهه..

لماذا تقفين في البرد مع الطفل؟ تعالي إلى غرفتي، حيث الجو هنا دافئ، ويُمكنكِ أن تكوني هنا أفضل، من هنا، اسلكي هذا الطريق!

لقد دُهشتْ المرأة، فقد رأتْ رجلاً عجوزاً، عجوزاً، في مِئزَر، وقد وضع نظارة طبية على أنفه، يدعوها للدخول إليه، إلا أنها تبعته، فنزلا الدرجات، هي وطفلها، ودخلا الغرفة، فقادها الرجل العجوز إلى سريره، قائلاً:

تفَضّلي، اجلس يا سيدتي الصالحة، بالقرب من الموقد، حتى يمكنك الحصول على بعض الدفء لكِ وللطفل الصغير، وأرضعيه..

ليس لديّ حليب له، وأنا نفسي لم أتناول أيّ طعام منذ الصباح..

ولكن، مع ذلك، أخذتْ الطفل إلى صدرها في محاولة لإرضاعه.

هز "مارتن" رأسه في تعاطف مع المرأة وحالتها الرقيقة، وذهب إلى الطاولة، وأحضر الخبز وطبقًا، وفتح باب الفرن، وصَبّ في الطبق بعض حساء الملفوف، وأخرج الوعاء الذي به العصيدة، ولكنها لم تكن قد نضجت بعد، ولذلك فقد ملأ الطبق بالشُربة فقط، ووضعه على الطاولة، وأحضر الخبز ، وأخذ المنشفة من الخطاف الذي كانت مُعلّقة به، ونشرها على الطاولة.. قائلاً للسيدة:

اجلسي..وتناولي طعامكِ يا سيدتي الصالحة، وسوف أهتم أنا بالطفل الصغير، هل تعلمي، لقد كان لديّ أطفالاً ذات يوم، وأعرف كيف يُمكنني رعايتهم..

وجلست السيدة إلى الطاولة، بعد أن رسمت الصليب على صدرها، ومن ثم بدأت في تناول الطعام، بينما شغل "مارتن" مقعدًا على السرير بالقرب من الرضيع، وأخذ يُقَبّله ويُقَبّله بشفتيه، ولكنها كانت نوعًا سيئاً من القُبُلات، لأنه لم يكن لديه أسنان، فاستمرّ الصغير يبكي، فبدأ أفديتش يهدّد الصغير بإصبعه، ولوّح، ولوّح بإصبعه مباشرة بالقرب من فم الطفل، وسحبها على عجل، وهو لم يضعها في فم الطفل، لأنها لم تكن نظيفة، بل كانت ملوثة بالشمع، ونظر الصغير إلى إصبعه.. وأصبح هادئًا، ثم بدأ في الإبتسام، وكان "مارتن" سعيدًا أيضًا.

وبينما كانت المرأة تأكل، أخبرت "مارتن" من تكون، وإلى أين كانت ذاهبة.. فقالت:

إننّي زوجة لأحد الجنود، ولقد انقضى الآن سبعة أشهر منذ أن أرسلوا زوجي بعيدًا، ولا توجد أيّ أخبار عنه، ولقد كنتُ أعمل طاهية، ولكن بعد أن ولدتُ الطفل، لم يوافق أحد على إبقائي بالعمل لديهم بصُحبة الطفل، وهذا هو الشهر الثالث الذي يشهد صراعي بدون مأوى، ولقد استنفذتُ كل ما كنتُ أملك من المؤن، وحاولتُ أن أعمل مُرضِعة لأطفال الأخريات، ولكن لم يقبلني أحد، فأنا، كما ترى نحيفة للغاية، وهم يقولون لي ذلك، ولقد كنتُ للتَوّ مع زوجة تاجر، حيث تعيش امرأة شابة أعرفها، ولذا وعدوا بقبولنا، ولذلك إعتقدتُ أن هذه كانت نهاية الأمر، ولكنها طلبت منّي أن آتي إليها في الأسبوع المقبل، وهي تعيش بعيداً، ولقد شعرتُ بالتعب، وأرهقته معي أيضًا، حبيبي الصغير، ولكن لحسن الحظ، فإن صاحبة العقار تُشفق علينا من أجل المسيح، وتمنحنا غرفة للإقامة فيها، إلا أنني لا أعرف كيف أرتب لهذا الأمر..

وتنهّد "مارتن"، ونظر إليها بعطف قائلاً:

أليس لديكِ أيّة ملابس دافئة؟

لقد حان الوقتُ أيها الصديق، لأن أرتدي ثياباً دافئة، ولكنّني بالأمس فقط رهنتُ شالي الأخير مقابل قطعة من النقود تُقَدّر قيمتها بعشرين كوبيك..

ثم جاءت المرأة إلى السرير وأخذت الطفل، ونهض "مارتن"، وذهب إلى قسم من الغرفة، وراح يُفتّش بدقّة، حتى نجح في العثور على معطف قديم.. فسُرّ سروره، وصاح مُبتَهِجاً:

هاي!، إنه شيء قديم، ومع ذلك يمكنكِ تحويله إلى شيء نافع!..

فنظرت المرأة إلى المعطف، ثم نظرت إلى الرجل العجوز،وأخذت المعطف وانفجرت في البكاء.

وأبعد أفديتش وجهه بعيداً لفرط تأثره، ثم بدأ يزحف تحت السرير، وأخرج حقيبة صغيرة، وراح يفتش فيها، وجلس مجددًا أمام المرأة، التي قالت له:

ليباركك الله، أيها الجد الصغير!، لا بد أنه قد أرسلني إلى نافذتك، وإلا لكان طفلي الصغير قد تجمد من البرد حتى الموت، فعندما بدأتُ أتحرك به كان الجو لا يزال دافئًا، لكنه أصبح الآن باردًا، وقد جعلك الله تنظر من خلال النافذة، وتُشفق عليّ، وهو شيء مؤسف لك..

وابتسم "مارتن"، قائلاً:

لقد فعل ذلك بالفعل! ولقد كنتُ أنظر من خلال النافذة، سيدتي الطيبة لحكمة معينة..

ثم راح يقص على زوجة الجندي حلمه، وكيف سمع الصوت، وكيف وعده الرب أن يأتي ويراه في ذلك اليوم.. فقالت المرأة:

كل الأشياء ممكنة..

ثم نهضتْ، ولبستْ المعطف، ولفّتْ به طفلها الصغير، وعندما بدأتْ في المُغادرة، شكرتْ "مارتن" مرة أخرى.. ومَدّ لها يده، لكي يعطيها قطعة من النقود، فئة عشرين كوبيك.. قائلاً:

خذي هذا، من أجل الله، لكي تفكّي رهن شالك..

رسمتْ المرأة علامة الصليب على صدرها، وقام "مارتن" بنفس الشيء، فرسم علامة الصليب على صدره، وذهب معها إلى الباب.. ومضتْ المرأة بعيداً..

وتناول "مارتن" بعض حساء الملفوف، وغسل الأطباق، وجلس مرة أخرى للعمل.

وبينما كان يعمل، كان لا يزال يتذكر النافذة، وعندما أصبحت النافذة أكثر إظلاماً، نظر فوراً لمعرفة من الذي يمرّ.. كان معارفه يمرّون بها، وأيضاً مرّ بها غرباء، ولم يكن هناك شيء خارج عن المألوف..

ولكن هنا رأى "مارتن" أن المرأة العجوز بائعة التفاح توقفت أمام نافذته.. وكانت تحمل سلة من التفاح.. لم يتبقّ منهم سوى القليل، حيث من الواضح أنها باعتهم تقريباً بالكامل.. وعلى كتفها كان لديها حقيبة مليئة برقائق البطاطس المُحمّرة.. لا بد أنها جمعتهم من مبنى جديد، وكانت في طريقها إلى المنزل، ويمكن للمرء أن يُدرك أن الحقيبة كانت ثقيلة على كتفها، وقد حاولتْ مناوبة حملها ونقلها إلى الكتف الآخر، لذا فقد أنزلت الحقيبة ووضعتهاعلى الرصيف، ووضعت السلة التي تحوي التفاح على مكان صغير، وبدأت في التخلص من الشظايا في الحقيبة، وبينما كانت تهز حقيبتها، جاء صبي صغير يرتدي قبعة ممزقة

والتقط تفاحة من السلة وكان على وشك الفرار، ولكن المرأة العجوز لاحظت ذلك، فاستدارت، وأمسكتْ الولد الحدث من كُمّه، وبدأ الصبي الصغير في النضال، محاولاً أن يُخلّص نفسه من يدها، لكن المرأة العجوز أمسكته بكلتا يديها، وقامت بنزع قبعته، وأمسكته من شعره، فراح الولد الصغير يصرخ، بينما كانت المرأة العجوز توبّخه، ولم يكن "مارتن" ليضيع أي وقت، فانتزع شاله وألقاه على الأرضية، وانطلق إلى الباب، حتى أنه تعثّر وهو يقفز على الدرج، فسقطت نظارته، وهرع إلى الشارع، كانت المرأة العجوز تجذب الشاب الصغير من شعره، وكانت لا تزال توبّخه وتهدده بأخذه إلى الشرطي، وكان الشاب الصغير يدافع عن نفسه، وينكر التهمة، قائلاً:

أنا لم آخذها، ما الذي تضربونني من أجله؟ دعوني أذهب!

حاول "مارتن" أن يفصل بينهما، فأخذ الصبي من ذراعه، وقال لها:

دعيه يذهب، يا بابوشكا، وسامحيه، من أجل المسيح..

لن أسامحه، حتى لا ينسى هذا الأمر، حتى لا تنمو البراعم الجديدة هكذا، سوف أسلّم هذا الوغد الصغير إلى الشرطة..

وبدأ "مارتن" في التوسّل إلى المرأة العجوز:

أرجوكِ، دعيه يذهب، يا بابوشكا، ولن يفعل ذلك مرة أخرى، دعيه يذهب، من أجل المسيح..

تركته المرأة العجوز، فبدأ الصبي بالركض، إلا أن "مارتن" أبقى عليه، قائلاً:

اطلب المغفرة من بابوشكا، ولا تفعل ذلك مرة أخرى، فلقد رأيتك تأخذ التفاحة.. وانفجر الصبي في البكاء، وبدأ يسألها الصفح..

هيا الآن!، إن هذا صحيح، وهذه هي تفاحة من أجلك..

قال له "مارتن" ذلك، بعد أن أخذ تفاحة من السلة، وأعطاها له، ثم توجه بحديثه إلى المرأة العجوز قائلاً:

سوف أدفع لك ثمن التفاحة، يا بابوشكا..

أنت تفسدهم بهذه الطريقة، إنك تفعل الخير هباءً، وبلا جدوى..

يجب أن يعامل هكذا، حتى يتذكرها لمدة أسبوع كامل..

هل هذا صحيح يا بابوشكا، بابوشكا.. هذا صحيح وفقًا لحكمنا، لكن ليس وفقًا لحكم الله، فإذا كان سوف يُجلد من أجل تفاحة، فما الذي يجب فعله لنا من أجل خطايانا؟ ..

كانت المرأة العجوز صامتة، وأخبرها "مارتن" بالحكاية الرمزية عن السيد صاحب العمل الذي سامح المدين الذي كان عليه ديون لصالحه، وكيف ذهب المدين وبدأ في خنق الشخص المستحق الذي كان له دين طرفه..

كانت المرأة العجوز تستمع، وكان الصبي يصغي أيضاً.. وقال "مارتن" مُسترسلاً:

لقد أمرنا الله بالتسامح، وإلا فإنه لن يُغفر لنا أيضًا.. يجب أن يُغفر للجميع، ولا سيما الأرعن الطائش.. وهزت المرأة العجوز رأسها، وتنهّدت.. ثم قالت:

هكذا الأمر إذن.. ولكن المشكلة تكمن في أنهم مُدللون كثيرًا..

إذن، علينا نحن الكبار أن نُعلّمهم..

هذا هو ما أعنيه بالضبط.. فأنا شخصياً كان لديّ سبعة منهم، ولم يتبقّ منهم سوى إبنة واحدة..

وبدأت السيدة العجوز في تحديد أين وكيف عاشت مع إبنتها، وكم هو عدد أحفادها.. قالت:

هنا، كانت قوتي بين بين، ومع ذلك لا بد لي من العمل.. إنني أشفق على الشباب الصغير، فهم أحفادي، ولكن يا لهم من أطفال رائعين!، لا أحد يمنحني هذا الترحيب الذي أحظى به، كما يفعلون.. إن "أكسينتكا" لا يذهب إلى أي شخص غيري أنا..وأما "بابوشكا"، عزيزتي بابوشكا، فهي أجملهم..

وتحولت مشاعر المرأة العجوز إلى حالة رقيقة، عاطفية جداً.. وأردفت قائلة، مُشيرة إلى الصبي، وقد اختلفت نبرتها:

بالطبع، إنها خدعة صبيانية.. الله يكون معه..

وكانت المرأة على وشك أن ترفع الحقيبة على كتفها، عندما أقبل عليها الصبي، وقال لها:

دعني أحملها، بابوشكا، إنني سوف أسلك هذا الطريق..

فأومأت المرأة العجوز برأسها بالموافقة، ومع إبتسامة رضا، وضعت الحقيبة على ظهر الصبي.. وعَبَرا الشارع جنباً إلى جنب.. ونسيتْ أن تطلب من "مارتن" أن يدفع ثمن التفاحة.

وقف "مارتن" بلا حراك، وظَلّ يُحدّق بهما، وسمعهما يتحدثان طوال الوقت وهما يسيران بعيداً..

بعد أن رآهما "مارتن" يختفيان، عاد إلى غرفته، ووجد نظارته مَلقاة على السلالم، سليمة لم تنكسر، والتقط شاله، وجلس للعمل مرة أخرى.

بعد العمل لفترة قصيرة، أصبح الجو مُظلماً، لدرجة أنه لم يعُد يتمكن من الرؤية لكي يُحيك، ورأى المسئول عن إضاءة مصابيح الشوارع يمرّ به، من أجل إضاءة اللمبات فقال في نفسه:

يجب أن يكون الوقت قد حان لإشعال الضوء.

ولذا فقد أحضر مصباحه الصغير وأعدّه للإشعال، وعلّقه، وبدأ يعمل مجددًا.

وكان قد أنجز بالفعل حذاءً واحداً، وراح يُقلّبه بين يديه ويتفحّصه، قائلاً:

يا له من عمل جيدّ، أحسنت..

أعاد أدواته إلى مكانها، وكنس القصاصات، ونظّف الفرشاة النايلون وأطرافها، وأخذ المصباح، ووضعه على الطاولة، وأخذ الإنجيل من الرف.. كان ينوي فتح الكتاب في نفس المكان الذي وضع فيه البارحة قطعة من الجلد كعلامة، ولكنه حدث أن فتحه على مكان آخر، وفي اللحظة التي فتح فيها "مارتن" العهد، تذكّر حلم الليلة الماضية، وبمجرد أن تذكر ذلك، بدا كما لو أنه قد سمع شخصًا يخطو خلفه، فنظر "مارتن" حوله، فرأى هناك، في الزاوية المظلمة، كما لو أن الناس كانوا يقفون، كان في حيرة لمعرفة من كانوا. وهمس صوت في أذنه:

"مارتن"، آه، "مارتن"! ألم تتعرّف عليّ؟

صاح "مارتن" مذعوراً:

من؟

أنا، لقد كنتُ أنا..

وصعد ستيبانويتش من الزاوية المظلمة، وابتسم، ومثل سحابة صغيرة تلاشت، وسرعان ما اختفت .. لقد كان أنا..

قال الصوت مُجدّداً، ومن الزاوية المظلمة صعدت المرأة مع طفلها.. وابتسمتْ، وضحك الطفل، واختفتْ أيضًا.. ومرة أخرى، جاء نفس الصوت..

لقد كان أنا.

تقدمت كل من المرأة العجوز والصبي مع التفاحة، وابتسما واختفيا..

وإبتهجتْ روح "مارتن"، فرسم الصليب على صدره، وارتدى نظاراته، وبدأ في قراءة الإنجيل حيثما فتحه، وفي الجزء العلوي من الصفحة قرأ:

"لأنني كنتُ جائعًا، وقد أعطيتني اللحوم، وكنتُ عطشانًا، وقد أعطيتني الشراب، وكنتُ غريباً، وقربتني.."

وفي الجزء السفلي من الصفحة قرأ هذا:

"بقدر ما فعلتموه بأحد هؤلاء الأخوة، فقد فعلتموه بي"..

وفهم "مارتن" أن حلمه لم يخدعه..

إن المخلّص دعاه إليه حقًا في ذلك اليوم، وأنه استقبله حقًا.

***

سجين في القوقاز

الفصل الأول

كان الضابط "زيلين" يخدم في الجيش في القوقاز، وذات يوم تلقّى رسالة من المنزل، كانت من والدته التي كتبت له:

"إنني أتقدم في العمر، وأود أن أرى إبني العزيز مرة أخرى قبل أن أموت، تعال لكي تودّعني وتدفنني، ومن ثم، إن شاء الله، عُدْ إلى الخدمة مرة أخرى بمباركتي ورضايَ. ولكنني وجدت فتاة لك، وهي عاقلة وجيدة، كما أنها لديها بعض الممتلكات، فإذا أمكنك أن تحبها، فقد تتزوجها وتبقى في وطنك.

وفكّر "زيلين" في نفسه:

"لقد كان هذا صحيحًا تمامًا، إن صحة السيدة العجوز في تدهور مُستمر، وقد لا تتاح لي فرصة أخرى لرؤيتها حية، إنه من الأفضل لي أن أذهب، وإذا كانت الفتاة لطيفة، فلماذا لا أتزوجها؟".

ولذلك فقد ذهب زينين إلى العقيد، وحصل على إجازة، وودّع رفاقه، بعد أن شربوا ملء أربعة دِلاء من الفودكا بمثابة هدية صغيرة للوداع، واستعد للذهاب.

وفي هذا الوقت كانت هناك حرب مُشتعلة في القوقاز، ولذا لم تكن الطرق آمنة ليلاً أو نهاراً، إذا غامر أي روسي بالمرور سيان راكباً أو سيراً على الأقدام، وعلى أي مسافة بعيداً عن حصنه أو معقله، فسوف يقتله التتار أو ينقلونه إلى التلال،

لذلك فقد تم ترتيب الأمور بهذا الخصوص على أن يرافق مجموعة من الجنود قافلة المسافرين من حصن إلى آخر مرتين في الأسبوع من نقطة إلى نقطة.

وكان ذلك في فصل الصيف، وقت بزوغ الفجر، عندما استعد قطار الأمتعة تحت حماية القلعة، خرج الجنود وساروا جميعاً على طول الطريق، وكان "زيلين" يمتطي ظهر الحصان، بينما ذهبت العربة التي تحمل أشياءه مع قطار الأمتعة، وقد كان عليهم أن يقطعوا مسافة ستة عشر ميلاً. تحرك قطار الأمتعة ببطء، في بعض الأحيان كان الجنود يتوقفون، أو ربما تنطلق عجلة وتنفصل عن إحدى العربات، أو يرفض الحصان أن يستمر في العدو، وكان يترتب على ذلك أن يضطر جميع المرافقون إلى الانتظار، وعندما كانت الشمس قد تجاوزت وقت الظهيرة، لم يكونوا قد قطعوا نصف الطريق، كان الجو مُغبّراً حاراً، والشمس حارقة، ولم يكن هناك ملاذاً أو سقيفة للحماية من هذه الحرارة في أي مكان: مجرّد سهل مكشوف وأرض مُنبسطة، هذا هو كل ما كان هناك، ولا يوجد حتى شجرة واحدة، ولا شجيرة، على الطريق، ركب "زيلين" في المقدّمة، وتوقف، في انتظار قطار الأمتعة لكي ينقله، ثم سمع صوت البوق يأتي من خلفه..

توقف الرفقاء مرة أخرى.

ولذلك بدأ يفكر:

"أليس من الأفضل لي أن أذهب بنفسي؟ إن حصاني جيد، حتى إذا هاجمني التتار، فيمكنني الركض بعيدًا، ومع ذلك، قد يكون من الحكمة الانتظار".

بينما كان جالسًا يفكر في ذلك، ركب "كوستيلين"، وهو ضابط يحمل سلاحًا، وقال له:

"تعال يا "زيلين"، دعنا نواصل السير بأنفسنا، إنه أمر مروع، إنني أتضوّر جوعاً، والحرارة رهيبة، وهذا قميصي يعتصر ماءً..

كان "كوستيلين" سميناً، ورجلًا بديناً، وكان العرق ينحدر على وجهه الأحمر..

فكّر "زيلين" لحظة، ثم سأله:

هل تم تعبئة بندقيتك؟

نعم، إنها مُعَبّأة .

حسنًا، إذن، دعنا نذهب، ولكن بشرط أن نبقى معًا.

وهكذا، ركبا الطريق إلى الأمام عبر السهل، يتحدثان، لكنهما كانا يراقبان كلا الجانبين من الطريق.

وكان يمكنهما أن يريا من بعيد كل المكان من حولهما، ولكن بعد عبور السهل، كان الطريق يمر عبر الوادي بين إثنين من التلال..

قال "زيلين":

لقد كان من الأفضل لنا أن نتسلق هذا التل وأن نلقي نظرة حوله، وإلا فإن التتار ربما يباغتوننا قبل أن نعرف، أو نشعر بهم.

لكن "كوستيلين" أجاب:

وما الفائدة من وراء ذلك؟ ، دعنا نذهب يا "زيلين"، وعلى أيّ حال، فإنني لم أكن لأوافق على ذلك.

كلا، ويمكنك الانتظار هنا إذا أردت، لكنني سوف أذهب وألقي نظرة على المكان. وغيّر "زيلين" اتجاه حصانه إلى اليسار، إلى أعلى التل..

كان حصان "زيلين" صيادًا، وحمله إلى أعلى جانب التل كما لو كان له أجنحة، (وكان قد إشتراه مقابل مائة روبل حيث كان مُهراً من قطيع، وكبح جماحها بنفسه).

وبالكاد وصل إلى قمة التل، وعندها رأى نحو ثلاثين من التتار على مسافة لا تتجاوز مائة ياردة منه، وبمجرد أن رآهم، استدار، لكن التتار شاهدوه أيضًا، وهرعوا خلفه بأقصى سرعة لخيولهم..

بعد أن أعدّوا أسلحتهم وهم يلاحقونه، ركض "زيلين" بأسرع ما يمكن أن تجري أرجل الجواد، وهو ينادي "كوستيلين":

اشرع سلاحك! وأخذ يفكّر في نفسه، ويخاطب حصانه:

"هيا أخرجني بخير من هذا المأزق، يا حيواني الأليف، ولا تتعثّر، لأنك ببساطة إذا تعثّرت فقد ضاع كل شيء، وبمجرد أن أحصل على البندقية، فإنهم لن يأخذوني سجينًا".

ولكن، بدلاً من الانتظار، عاد "كوستيلين"، بمجرد أن رأى التتار نحو القلعة بأقصى سرعة، حيث ضرب حصانه مرة على هذا الجانب ومرة على الجانب الآخر، وكان ذيله المضروب بالسوط هو كل ما يمكن رؤيته من كثرة الغبار.

رأى "زيلين" ذلك..

كان مشهداً سيئاً، فقد ذهبت البندقية هكذا مع "كوستيلين"، وماذا كان يمكنه أن يفعل وليس لديه سوى سيفه؟

فاستدار بحصانه نحو الحراسة المرافقة له، وهو يفكّر في الهرب، ولكن كان هناك ستة من التتار الذين هرعوا خلفه للإمساك به.

كان حصانه قوياً، لكن كانت خيولهم أفضل، وإلى جانب ذلك، كانوا يقطعون عليه طريقه، حاول كبح جماح حصانه والإنعطاف به إلى طريق آخر، لكنه كان يسير بسرعة لا يمكن أن تسمح له بالتوقف.. وانطلق باتجاه التتار مباشرة.

ورأى أحد جنود التتار ذو لحية حمراء على حصان رمادي، وقد رفع سلاحه، فهجم عليه، وهو يصيح، ويُظهر أسنانه، وهو يُفكّر في نفسه:

"آه، إنني أعلم أيها الشيطان بأنك إذا أخذتني على قيد الحياة، فسوف تضعني في حفرة وتجلدني بالسوط ، ولن أسمح لك بأن تأخذني أسيراً على قيد الحياة!"

ورغم أن "زيلين" لم يكن ندّاً كبيراً، إلا أنه كان شجاعاً، فسحب سيفه من غمده، وهجم على جندي التتار ذو اللحية الحمراء وهو يُفكّر:

"إما أن أوقعه أرضاً، أو أقتله بسيفي"

وكان لا يزال يبعد عنه بمسافة طول الحصان، عندما أطلق عليه النار من الخلف، وكان حصانه قد أصيب، فسقط على الأرض بكل وزنه، موقعاً "زيلين" على الأرض، فحاول النهوض، لكن إثنين من التتار ذوي الرائحة السيئة للغاية كانوا يجلسون عليه بالفعل ويربطون يديه خلف ظهره.

لقد بذل مجهودًا وطرحهم أرضاً، ولكن ثلاثة آخرون قفزوا من على ظهور خيولهم وبدأوا في ضرب رأسه بأعقاب بنادقهم حتى تورّمت عيناه، وسقط على ظهره فاعتقله التتار، وأخذوا الأحزمة الإحتياطية من سروج خيولهم، وقاموا بلف يديه خلف ظهره وربطوهما وأحكموا وثاقه على طريقة التتار، كما قاموا بإزالة قبعته، ونزعوا حذائه، وفتشوه في كل مكان، ومزقوا ملابسه، وأخذوا نقوده وساعته.

نظر "زيلين" حوله فرأى حصانه هناك لا يزال يستلقي على جانبه، كم هو مسكين هذا الحصان، تمامًا كما سقط؛ يكافح ويحاول تحريك قدميه في الهواء، غير قادر على لمْس الأرض أو النهوض.

فقد كان هناك ثقباً في رأسه، والكثير من الدماء الداكنة تتدفق من الجرح، مُحوّلة التراب إلى وحل لبضعة أقدام.

وصعد أحد التتار على الحصان وبدأ في خلع السرج، وكان الحصان ما زال يركل برجليه، لذلك فقد سحب التتاري خنجره وقطع القصبة الهوائية للحصان وذبحه فانطلق صوت صفير من حلقه، وسقط الحصان سقطة واحدة غارقاً في دمائه، وكان كل شيء قد انتهى.

أخذ التتار السرج والزخارف والجل المزركش للسرج، وإمتطى التتاري ذو اللحية الحمراء حصانه، ورفع الآخرون "زيلين" ووضعوه على السرج خلفه، ولمنعه من السقوط، فقد قاموا بربطه بحزام التتاري؛ وبعد ذلك ركبوا جميعًا إلى التلال، وهكذا استلقى "زيلين"، متأرجحاً من جانب إلى آخر، تصطدم رأسه

في ظهر التتاري نتن الرائحة. لم يستطع "زيلين" أن يرى شيئًا سوى ذلك الجسم ذي العضلات والعنق القوي، بقفاه المزرق والحليق بعناية.

كان رأس "زيلين" قد أصيب بجرح عميق، وجفت الدماء على عينيه، ولم يكن يستطع تغيير وضعه على السرج أو أن يمسح الدماء من فوق عينيه، فقد كانت ذراعاه مقيدتان بإحكام لدرجة أن عظام الترقوة كانت تؤلمه.

وركبوا التلال صعوداً وهبوطاً، لمسافة طويلة، ثم وصلوا إلى نهر حيث عبروه، ووصلوا إلى طريق صعب غير مُمَهّد يؤدي إلى وادي.

حاول "زيلين" أن يرى إلى أين هم ذاهبون، لكن جفونه كانت عالقة بالدماء، ولم يتمكن من أن يحركها، وبدأ الشفق يكسو المكان، وإمتلأت السماء بحمرة الشمس عند المغيب، وعبروا نهرًا آخر ، وركبوا جانبًا من التلال الصخرية، وبدت هناك رائحة الدخان، كما كانت هناك كلاب تنبح.

لقد وصلوا إلى قرية، (هي إحدى قرى التتار).

وترجّل التتار عن خيولهم، فأقبل الأطفال التتاريون ووقفوا حول "زيلين"، يتصايحون في بهجة وسرور، وهم يُلقونه بالحجارة، وجاء جنود التتار وأبعدوا الأطفال بعيداً عنه، وأنزلوه من على ظهر الحصان، واستدعوا صاحبه.

كان رجلاً ضخماً، نوجي، من قبيلة تتارية، ذي عظام الخد البارزة، ولا يرتدي شيئاً سوى قميص (وكان هذا القميص مُمزّقاً إلى حد أن صدره كان مكشوفًا تمامًا) ، وهو الذي لبّى النداء، وقد أعطى له الجندي التتاري أمراً، فذهب وجلب

أغلالاً، وهي عبارة عن كتلتين من شجر البلّوط بحلقات موصولة من الحديد، ومشبك إبزيم وقفل ثابت في واحدة من الحلقات.

وقاموا بفك ذراعي "زيلين" وتحريرهما من الرباط، وربطوا الأغلال في ساقه، وجرّوه إلى الإسطبل، حيث دفعوه إلى الداخل ومن ثم أغلقوا عليه الباب، فسقط "زيلين" على كومة من الروث، وظلّ مستلقيًا لفترة من الوقت، ثم تلمّس طريقه ليجد مكانًا ليّناً،

واستقر فيه.

الفصل الثاني

في تلك الليلة لم يكن "زيلين" لينام إلا بالكاد.

كان هذا هو الوقت من العام الذي تكون فيه الليالي قصيرة، وسرعان ما كان ضوء النهار يُظهِر نفسه من خلال شق في الجدار.

نهض "زيلين" وراح ينحت في الحائط ويخدشه، حتى جعل الشق كبيراً بما يكفي، وراح يختلس النظر من خلال الحفرة التي أحدثها بالجدار، فرأى طريقًا يؤدي إلى أسفل التل، وإلى اليمين كان هناك كوخ للتتار ، وإلى جواره كانت هناك إثنتان من الأشجار،وكلب أسود يستلقي على العتبة،وماعز وأطفال كانوا يتحركون ويتهادون في مشيتهم ويهزون ذيول ثيابهم، ثم رأى امرأة تتارية شابة، ترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً بألوان زاهية، مع بنطلون وأحذية عالية تظهر من تحته، وكان لديها غطاء رأس كانت قد ألقته على رأسها، حيث حملت عليه إبريقاً معدنياً مليئاً بالماء، وكانت تمسك بيدها فتىً صغيراً من التتار ، حليق تماماً، كان يرتدي قميصًا فقط ، ولا شيء آخر، وبينما كانت تعمل على موازنة نفسها، كانت عضلات ظهرها تهتزّ، حملت هذه المرأة الماء إلى الكوخ، وبعد فترة وجيزة خرج التتاري ذو اللحية الحمراء الذي رآه "زيلين" بالأمس، وهو يرتدي سترة حريرية قصيرة بدون أكمام، مع خنجر فضّي المقبض مُعلّق بجانبه، وأحذية على قدميه الصغيرتين، وقبّعة سوداء طويلة مصنوعة من جلد الغنم وضعها على الجانب الخلفي من رأسه، خرج، وهو يتمطّى، ويُمرّر يده على شعر لحيته الحمراء يداعبها، وتوقّف لحظة، وأعطى أمراً لخادمه، ثم ذهب بعيداً، وركب إثنان من

الفتيان خيولهما بعد سقيهما، وكانت أنوف الخيول لا زالت مبللة، وجرى بعض الأولاد الآخرين الذين كانوا مُحلّقين تماماً، دون أي سراويل، ولا يرتدون سوى القمصان، واحتشدوا معًا، ثم جاءوا إلى الحظيرة، وإلتقطوا غصينًا، وبدأوا في دفعه في الشق بالجدار، فصرخ "زيلين"، وصرخ الأولاد وركضوا فراراً، وكانت ركبهم الصغيرة العارية تلمع وهم يركضون.

كان "زيلين" عطشانًا جدًا، وكان حلقه جافًا، وكان يفكّر ويُحدّث نفسه:

"إذا كانوا سوف يأتون إلى هنا، كيف سوف ينظرون إليّ!"

ثم سمع صوت أحدهم يفتح الحظيرة، ثم دخل التتاري ذو اللحية الحمراء، وكان معه رجل آخر أقصر منه، أسمر داكن البشرة، عيونه سوداء لامعة، أحمر الخدّين، ولحيته قصيرة، وكان لديه وجه مرح، يضحك دائمًا، وكان هذا الرجل يرتدي ملابس أكثر ثراءً حتى من الرجل الآخر، حيث كان يرتدي سترة من الحرير الأزرق مُزيّنة بالذهب كما كان هناك خنجر فضّي كبير في حزامه، وغطاء مغربية حمراء اللون، مشغولة بالفضة، وزوج من الأحذية السميكة، كما كان يرتدي على رأسه قبّعة بيضاء من جلد الغنم، دخل الرجل التتاري ذو اللحية الحمراء، وتمتم قائلاً شيئاً ما، كما لو كان منزعجاً، ووقف مُتكئاً على عارضة الباب، يلعب بخنجره، وإرتاب في "زيلين" صارخاً، مثل الذئب، فأسرع الرجل الأسمر يتحرك في سرعة وحيوية، كما لو كان على زنبرك، وإتجه إلى "زيلين" مباشرة، وجلس أمامه القرفصاء، وصفعه بقوة على الكتف، وبدأ في التحدث

بسرعة بلغته الخاصة بطريقة أظهرت أسنانه، وظل يطرف بعينه لا إرادياً، ويطقطق بلسانه، ويكرّر:

"حسن روس، روس جيد".

ولم يستطع "زيلين" أن يفهم كلمة واحدة، لكنه قال:

"أريد أن أشرب! أعطني الماء لكي أشرب!"

وضحك الرجل الأسمر قائلاً:

"حسن روس"

واستمر في الحديث بلغته الخاصة، فقام "زيلين" بالإشارة له بعلامات من الشفاه واليدين تفيد بأنه يريد شيئًا يشربه، وفهم الرجل الأسمر وضحك، ثم نظر من الباب، ونادى على أحدهم:

"دينا!"

وجاءت فتاة صغيرة تهرع: كانت تقريباً في سن الثالثة عشر، خفيفة، رقيقة، وتشبه الرجل التتاري الأسمر في ملامح الوجه، فكان من الواضح أنها ابنته، وكانت لديها أيضًا عيون سوداء لامعة، كما كان وجهها جميل الطلّة والملامح.

كانت دينا ترتدي ثوبًا أزرقاً، طويلًا، بأكمام واسعة، وبدون حزام، وكانت حاشية ثوبها والجانب الأمامي منه والأكمام ، كانت جميعها مُزخرفة باللون الأحمر، وكانت ترتدي بنطلوناً وغطاء، وعلى الغطاء الأحذية السميكة ذات الكعب العالي، أما حول عنقها، فقد كانت ترتدي قُلادة، مصنوعة من العملات الفضّية الروسية، وكانت عارية الرأس، وقد ضَفّرَتْ شعرها الأسود بشريط

وزخرفته بجديلة مُذهّبة وعملات فضّية. أصدر والدها لها أمرًا، فغادرت مُسرعة، وعادت تحمل معها إبريق ماء معدني سلّمته إلى "زيلين" وجلست مُنحنية، حتى أن ركبتيها كانتا بارتفاع رأسها، وهناك جلست بعيون مفتوحة على مصراعيها تشاهد كيف يشرب "زيلين"، كما لو كانت تعتقد أنه حيوانًا وحشيًا.
وعندما سلّم "زيلين" لها الإبريق الفارغ، قفزت قفزة مفاجئة للخلف مثل الماعز البري، مما جعل والدها يضحك، وأرسلها بعيداً لشيء آخر، فأخذت تجري بالإبريق، وعادت ببعض الخبز الخالي من الخميرة على صينية دائرية، وجلست مرة أخرى، منحنية، وتنظر إلى "زيلين" بعيون مُحدّقة.
ذهب التتاريون بعيداً بعد أن أغلقوا الباب مرة أخرى.
وبعد فترة جاء الرجل الضخم النوجي وقال:
"عايدة، السيد، عايدة!"
هو أيضًا لم يكن يعرف اللغة الروسية.
كل ما كان يمكن أن يفهمه "زيلين" منه هو أنه قيل له أن يذهب إلى مكان ما فاتبع النوجي، ولكنه كان يعرج، لأن الأصفاد جرّت قدميه حتى أنه لم يكن يمكنه أن يخطو على الإطلاق.
وعند الخروج من الحظيرة رأى قرية من قرى التتار من حوالي عشرة منازل، وكنيسة تتارية لها برج صغير، وكانت هناك ثلاثة من الخيول تقف أمام أحد المنازل وقد تم تزويد كل منهم بالسرج بينما كان الصبية الصغار يكبحونهم باللجام.

خرج التتاري الأسمر من هذا المنزل، وأشار بيده إلى "زيلين" بأن يتبعه، ثم ضحك، وقال شيئاً بلغته الخاصة، ومن ثم عاد إلى المنزل، ودخل "زيلين" أيضاً.

كانت الغرفة جيدة: فالجدران مُغطاة بطبقة ناعمة من الطين، وبالقرب من الجدار الأمامي وضع كومة من الحشية الريش زاهية الألوان، أما الجدران الجانبية فقد كانت مغطاة بالسجاد الثمين المستخدم كمعلقات أو ستائر، وفوق هذه المعلقات كانت هناك بنادق ومسدسات وسيوف مثبتة، وكلها مُطعّمة بالفضة، وبالقرب من أحد الجدران كان هناك موقد صغير على مستوى من الأرضية الترابية، وأما الأرضية نفسها فقد كانت نظيفة مثل الأرض المسحوقة، وقد إفترشت مساحة كبيرة في إحدى الزوايا بقماش اللباد الصوفي الناعم وفوقه وضعوا السجاد، وكانت على هذه السجادات وسائد محشوة بالوبر والزغب، وعلى هذه الوسائد جلس خمسة من التتار، الرجل الأسمر، والرجل ذات الشعر الأحمر، وثلاثة من الضيوف، وكانوا جميعهم يرتدون النعال الخاصة بداخل المنزل، وكان كل واحد منهم قد وضع وسادة خلف ظهره، وأمامهم كان هناك كعك الأذرة البيضاء على صينية مستديرة، والزبدة المذابة في وعاء، وإبريق بوظة أو بيرة التتار.

أكلوا كل من الكعك والزبدة بأيديهم، وقفز الرجل الأسمر وأمر بوضع "زيلين" في أحد الأركان، وليس على السجادة، ولكن على الأرض غير المفروشة، ثم جلس على السجادة مرة أخرى، وقدّم كعك الأذرة والبوظة لضيوفه.

وأجلس الخادم "زيلين".

وبعد ذلك خلع الحذاء الفوقي المطاطي أو الجرموق الخاص به، وضعهم بجانب الباب حيث كانت الأحذية الأخرى توضع، وجلس بالقرب من رؤسائه على القماش الصوفي الناعم أو اللباد، يراقبهم بينما كانوا يأكلون، وهو يلعق شفتيه.

وأكل التتاريون بقدر ما أرادوا، وجاءت امرأة ترتدي بنفس طريقة الفتاة – ثوب طويل وبنطلون، وقد وضعت منديلاً على رأسها – وأخذت ما تبقى من المأكولات، وجلبت حوضاً جميلاً، وإبريق به صنبور ضيق.

قام التتار بغسل أيديهم، ثم شابك كل منهم يديه ونزلوا على ركبهم، ونفخوا في الإتجاهات الأربعة وتلَوا صلواتهم، وبعد أن تحدثوا لفترة، توجه أحد الضيوف إلى "زيلين" وبدأ في التحدث باللغة الروسية، قال:

لقد تم القبض عليك بواسطة "كازي محمد"

وأشار إلى الجندي التتاري صاحب اللحية الحمراء. ثم استطرد قائلاً:

ولقد سلّمك كازي محمد إلى "عبدول مُرات"

مشيراً إلى الرجل الأسمر. وواصل حديثه:

عبدول مرات هو الآن سيدك.

كان "زيلين" صامتاً.

ثم بدأ عبدول مرات في الكلام، وهو يضحك، ويشير إلى "زيلين"، ويكرر،

جندي روس، روس جيد.

قال المترجم:

إنه يأمرك بالكتابة إلى وطنك وأهلك، وتطلب منهم إرسال فدية، وبمجرد وصول الأموال سوف يطلق سراحك.

ففكّر "زيلين" للحظة، ثم قال:

وما هو مقدار الفدية التي يريدها؟

وتحدث التتاريون للحظة، ثم قال المترجم:

ثلاثة آلاف روبل.

لا ، لا يمكنني دفع هذا المبلغ.

قفز عبدول مرات، وراح يلوّح بذراعيه، ويتحدث إلى "زيلين"، مُعتقداً، كما حدث من قبل، أنه سوف يفهم حديثه. فتدخّل المترجم لكي يترجم ل"زيلين":

كم يُمكنك أن تدفع؟

قال "زيلين" بعد أن فكّر في الأمر:

خمسمائة روبل.

وعند ذلك بدأ التتار يتحدثون بسرعة كبيرة، كلهم تحدّثوا معًا، وبدأ عبدول مرات في الصراخ في وجه الرجل ذي اللحية الحمراء، وأخذ يثرثر بسرعة كبيرة لدرجة أن بعض اللعاب تناثر من فمه.

واكتفى التتاري ذو اللحية الحمراء فقط بأن راح يجول المكان بعينيه، وطقطقة لسانه، إلا أنهم هدأوا بعد فترة من الوقت. وعاود المترجم حديثه فقال:

إن مبلغ خمسمائة روبل ليست كافية للسيد، فلقد دفع مائتي روبل بنفسه من أجل الحصول عليك، وكان كازي محمد مدينًا له، وأخذك مقابل سداد دينه البالغ

ثلاثة آلاف روبل! وأقل من ذلك لن يُجدي.. إذا رفضت الكتابة، فسوف تُوضع في حفرة وتُجلد بالسوط!

وفكّر "زيلين"، إنه يُدرك أنه كلما اشتدّ خوفه منهم، كلما اشتدّ إيذائهم له:

"إيه!، كلما خافهم المرء أكثر، سيكون الأمر أسوأ".

ثم نهض فجأة ووثب واقفاً على قدميه، وقال:

أخبر ذلك الكلب أنه إذا حاول إخافتي، فلن أكتب على الإطلاق، ولن يحصل على شيء، وأنني لم أكن خائفاً منهم أبداً هؤلاء الكلاب، ولن أكون أبدًا!

فقام المترجم بترجمة ما قال. ومرة أخرى بدأوا جميعهم يتحدثون في الحال.

وثرثروا لفترة طويلة، ثم قفز الرجل الأسمر، وجاء إلى "زيلين"، وقال:

"Dzhigit Russ ،Dzhigit Russ "

وضحك، ثم قال شيئاً للمترجم، الذي قام بدوره بالترجمة فقال:

إنه يقول أنك رجل شجاع، وأن ألف روبل سوف تُرضيه.

فتمسك "زيلين" بما سبق أن قال وردده في عناد:

لن أعطي أكثر من خمسمائة روبل، وإذا قتلتني فلن تحصل على شيء على الإطلاق. وتحدث التتار لحظة، ثم أرسلوا الخادم للخارج لجلب شيء ما، وظلوا ينظرون، مرة إلى "زيلين"، ومرة إلى الباب.

عاد الخادم، وقد تبعه رجل رث الثياب، قوي البنية، حافي القدمين، وكان مُقيّد القدمين أيضًا، مما جعل "زيلين" يندهش بهذه المفاجأة، فقد كان هذا الرجل هو "كوستيلين".

فقد تم القبض عليه هو أيضاً، وتم وضعهما جنبًا إلى جنب، وبدأ كل منهما في إخبار الآخر بما حدث.

بينما كانا يتحدثان، كان التتاريون يشاهدون المشهد في صمت.

روى "زيلين" ما حدث له، وأخبره "كوستيلين" بدوره كيف اعترضوا حصانه وأوقفوه، و كيف أخطأت أسلحته الإصابة، وكيف إنتصر عليه نفس هذا الرجل التتاري، عبدول مرات، وقام بأسره، قفز عبدول مرات، وأشار إلى "كوستيلين"، وقال شيئاً.

وترجم المترجم حديثه فقال أنهما كلاهما ينتميان الآن إلى سيد واحد، وأن الشخص الذي سوف يدفع الفدية أولاً، سوف يتم إطلاق سراحه أولاً.

ثم وجّه حديثه إلى "زيلين" قائلاً:

ماذا لدينا الآن، أنت غاضب، ولكن رفيقك هنا لطيف، لقد كتب إلى أهله في الوطن، وهم سوف يرسلون خمسة آلاف روبل، ولذلك فسوف يتم الإعتناء بتغذيته بشكل جيد، كما أنه سوف يتم التعامل معه معاملة جيدة، فأجابه "زيلين" بشكل صارم:

إن رفيقي يُمكنه أن يفعل ما يحلو له، فربما كان غنيّاً، أما أنا فلستُ كذلك، ويجب أن يكون الأمر كما قلتُ وأوضحتُ من قبل، إقتلني، إذا أردتَ – ولكنك لن تجني شيئًا بذلك، لكنني لن أكتب لكي أطلب أكثر من خمسمائة روبل.

كانوا صامتين.

فجأة، وثب عبدول مرات، وأحضر صندوقًا صغيرًا، وأخرج قلمًا، حبرًا، وقطعة صغيرة من الورق، وأعطاهم إلى "زيلين"، وصفعه على الكتف، وقام بأداء إشارة تعني أنه يجب عليه أن يكتب، حيث كان قد وافق على أن يأخذ خمسمائة روبل فقط. قال "زيلين" للمترجم الفوري:

انتظر قليلا!، عليك أن تخبره أنه يجب عليه أن يقدّم لنا الغذاء بشكل صحيح، وأن يمدّنا بالملابس والأحذية المناسبة، وأن يدعنا نقيم معاً، لأن ذلك سوف يكون مصدر سرور بالنسبة لنا، كما ويجب عليه أن ينزع هذه القيود من أقدامنا.

ونظر إلى سيده وضحك، فبادله سيده الضحك أيضًا، واستمع إلى المترجم الشفوي حتى انتهى من حديثه، وقال:

سوف أقدّم لهما أفضل الملابس، عباءة وأحذية مناسبة للزواج.

كما أنني سوف أطعمهم مثل الأمراء.

وإذا كانا يفضّلان، فيمكنهما العيش معاً في الحظيرة، ولكنني لا أستطيع أن أنزع عنهما القيود، أو سوف يهربان، وعلى أيّ حال، فسوف ننزعها عنهما في المساء.

ثم قفز وصفع "زيلين" على كتفه قائلاً:

أنت جيد، أنا جيد!

وقام "زيلين" بعدها بكتابة الرسالة، إلا أنه تعمّد أن يكتب العنوان بشكل خاطئ، بحيث لا يُمكنها أن تصل إلى وجهتها الصحيحة، وراح يُفكّر في نفسه:

"سوف أهرب!"

تم إعادة "زيلين" و"كوستيلين" إلى الحظيرة، وإعطاؤهما بعض قش الأذرة، وإبريق من الماء، وبعض الخبز، وإثنين من العباءات القديمة، وبعض الأحذية العسكرية البالية - كانت من الواضح أنها مأخوذة من جثث الجنود الروس، وفي الليل، تم نزع أغلالهما عن أقدامهما، كما تم حبسهما في الحظيرة وإغلاقها عليهما.

الفصل الثالث

عاش "زيلين" وصديقه بهذه الطريقة لمدة شهر كامل، وكان السيد يضحك دائماً ويقول:

أنت، إيفان، جيد! أنا، عبدول مرات، جيد!

وكان يشير إلى "إيفان الرابع" ، القيصر الروسي، الذي كان يُطلق عليه" الرجل المُخيف".

ولكنه أطعمهما بشكل سيئ، ولم يعطهما شيئًا سوى الفطير، أو الخبز الخالي من الخميرة والكعك المسطح المصنوع من دقيق الأذرة، أو في بعض الأحيان فقط العجين غير المخبوز. كتب "كوستيلين" إلى أهله في الوطن للمرة الثانية.

لم يكن "كوستيلين" يفعل شيئًا سوى تطهير نفسه من القمل، ويُفكّر كثيراً مُكتئباً، في انتظار وصول الأموال، حتى أنه كان يظلّ نائماً في الحظيرة لعدة أيام متواصلة، أو يعدّ الأيام ويُحصيها، حتى يأتي خطاب.

أما "زيلين" فقد كان يعلم أن رسالته لن تصل إلى أحد، ولذا فإنه لم يكتب رسالة أخرى، بل أنه كان يُفكّر في نفسه:

"من أين يُمكن لأمي الحصول على ما يكفي من الأموال لكي تُقدّمها فدية لي؟ في حين أنها تعيش أساساً وبشكل رئيسي على ما أرسله أنا لها من نقود، إذا كان عليها أن تجمع خمسمائة روبل، فسوف تكون مدمّرة تمامًا.. بعون الله سوف أتمكن من الهرب!"

ولذا فقد واظب على مراقبة الأوضاع، والتخطيط لكيفية الهروب.

فكان يسير حول القرية يُصفّر، أو يجلس يعمل، فقد كان يشكّل دُمى من الطين أو الصلصال، أو ينسج السلال من الأغصان..

فقد كان "زيلين" ذكيًا وماهراً في الأعمال اليدوية، وذات مرة صمّم دُمية ذات أنف ويدين ورجلين وثوب من موديلات التتار، ووضعه على السطح.

عندما خرجت نساء التتار لجلب الماء، رأت "دينا"، إبنة السيد، الدُمية، واستدعت النساء، اللائي وضعن أباريقهن ووقفن ينظرن ويضحكن.

وراح "زيلين" يحرك الدُمية لأسفل وهو يُمسكها ويُبعدها عنهن. فضحكن، لكنهن لم يجرؤن على أن يأخذنها. فألقى بالدُمية وذهب إلى الحظيرة، في انتظار معرفة ما سوف يحدث، وركضت دينا إلى الدُمية، ونظرت حولها، واستولت عليها، وهربت بها.

في الصباح، عند بزوغ الفجر، نظر إلى الخارج، خرجت دينا من المنزل وجلست على العتبة وهي مُمسكة بالدُمية، التي كانت قد ألبستها قطع صغيرة من الأقمشة الحمراء، وراحت تُهدهدها وتؤرجحها وكأنها طفل، وهي تُغنّي لها ترنيمة التتار لتنويم الأطفال، وجاءت امرأة عجوز وبّختها وعنّفتها، وانتزعت منها الدُمية وكسرتها إلى قطع صغيرة، وأرسلت دينا إلى مزاولة عملها.

ولكن "زيلين" صنع دُمية أخرى، أفضل من الأولى، وأعطاها لدينا.

وما أن أحضرت دينا إبريقًا صغيرًا، ووضعته على الأرض، وجلست وهي تنظر إليه، وتضحك، مشيرة إلى الإبريق، فتساءل "زيلين" مُندهِشاً:

"ما الذي يسُرّها ويُبهِجها هكذا؟".

وأخذ الإبريق ظنًا منه أن به ماء، ولكن تبيّن أنه لبن، فشربه وقال:

"إن هذا شيء جيد!"

ولكم كانت دينا سعيدة بذلك!

"جيد، إيفان، جيد!"

قالت دينا ذلك، وهي تقفز وتثب لأعلى، وتصفّق بيديها، ثم أمسكت بالإبريق، وهربت، بعد ذلك، كانت تُحضر له بعض الحليب خلسة كل يوم.

وكان التتار يصنعون نوعًا من الجبن من حليب الماعز، ويجففونه على أسطح منازلهم، وأحيانًا، خلسة، كانت تُحضر له بعضًا من هذه الجبنة.

وذات مرة، عندما ذبح عبدول خروفاً أحضرت إلى "زيلين" قليلاً من لحم الضأن في جُعبتها. وبمجرّد أن ألقت هذه اللحوم إليه جرت عائدة.

وذات يوم، كانت هناك عاصفة شديدة، وسقط المطر مُنهَمِراً في سيول لمدة ساعة كاملة، وأصبحت جميع جداول الأنهار الصغيرة عكرة، في أماكن العبور والمخاضات إرتفع الماء حتى وصل إرتفاعه إلى سبعة أقدام، وكان التيّار قويًا لدرجة أنه حوّل الأحجار من أماكنها، وتدفّقت جداول الأنهار الصغيرة في كل مكان، ولم يتوقّف الهدير في التلال، وعندما انتهت العاصفة، جرى الماء في مجاري شارع القرية، وذهب "زيلين" إلى سيده لكي يُعيره سكينًا، وبه استطاع أن يصنع إسطوانة صغيرة، وقطع بعض الألواح الصغيرة، وصنع عَجَلة قام بتثّبيت دُميتين عليها، واحدة على كل جانب، وأحضرت له الفتيات الصغيرات بعض القطع الصغيرة من الأقمشة، وألبس الدُمى الثياب، واحدة كرجل فلاح، والآخر كفتاة

فلاحة، ثم قام بتثبيتهما في ماكنيهما، ووضع العَجَلة بحيث يُمكن للتيّار أن يجعلها تعمل وتدور، وبدأت العجلة في الدوران وراحت الدُمى ترقص.

وتجمّع أهل القرية بأكملها من حولها، الصبية والفتيات الصغار، رجال ونساء التتار، لقد جاءوا جميعًا وراحوا يطقطقون بألسنتهم.

"آه، روس! آه، إيفان! "

وكان عبدول يمتلك ساعة روسية، وحدث أن كُسِرتْ، فاستدعى "زيلين"، وعرضها عليه، وهو يطقطق بلسانه.. فقال له "زيلين":

أعطني إياها، وسوف أقوم بإصلاحها من أجلك.

وفكّكها إلى قطع بالسكين، وقام بترتيب القطع وجمّعها معًا مرة أخرى، بحيث سارت الساعة على خير ما يرام.. ولذا كان السيد مسروراً، وقدّم له هديةً تتكون من إحدى السترات القديمة التي كانت جميعها تحوي ثقوباً.. وكان على "زيلين" قبولها، حيث يمكنه، على أي حال، استخدامها كغطاء ليلاً أو كلحاف.

وبعد ذلك انتشرت شهرة "زيلين" وذاع صيته.

وجاء التتار من قرى بعيدة، وأحضروا له مرة زناد أو قفل الأمان لبندقية أو لمسدس، ومرة ساعة، لإصلاحها، أما سيده فقد أعطاه بعض الأدوات - الكماشة، المثقاب، ومبرد.

وفي أحد الأيام أصيب أحد التتار بمرض، وجاءوا إلى "زيلين" قائلين:

"هيا معنا لكي تعالجه!"

ولم يكن "زيلين" يعرف شيئًا عن المعالجة، ومع ذلك فقد ذهب لكي يرى الأمر بنفسه، وفكّر في نفسه:

"ربما سوف يتحسن بطريقة أو بأخرى".

ثم عاد إلى الحظيرة، وخلط بعض الماء بالرمل، ثم في حضور التتار همس ببعض الكلمات عليها، ومن ثم أعطاها للرجل المريض لكي يشربها.

ولحسن حظه، فقد صادف أن تعافى التتاري!.

وبدأ "زيلين" في التقاط لغتهم قليلاً ، وأصبح بعض التتار مألوفين بالنسبة له.

وعندما كانوا يريدونه، كانوا ينادونه:

"إيفان! إيفان!"

وكان هناك آخرون، مع ذلك، لا يزالون ينظرون إليه شزراً بارتياب، كما لو كانوا ينظرون إلى شخص وحشي. كان التتاري ذو اللحية الحمراء يكره "زيلين".

كلما رآه عبس وابتعد، أو وجّه إليه السُباب، كما كان هناك أيضًا رجل عجوز لم يكن يعيش في القرية، ولكنه إعتاد الخروج من سفح التل، ولم يره "زيلين" إلا عندما مر في طريقه إلى المسجد.

كان قصيرًا ويضع قطعة قماش بيضاء ملفوفة حول طاقيّته، وقد مشّط لحيته وشواربه التي كانت بيضاء كالثلج، وكان وجهه مجعدًا وأحمر بلون الطوب القرمزي، أما أنفه فكان معقوفاً مثل منقارالصقر، وقد بدت عيناه الرماديتان قاسيتان، ولم يكن لديه من الأسنان سوى نابين.

كان "سيمر" وعمامته على رأسه، يتّكيء على عصاته، وكان يُحدّق بها حوله مثل الذئب.. وكان إذا رأى "زيلين" فإنه يتذمّر غاضباً، ويُصدر صوتاً كالشخير، ويرحل.

وذات مرة حدث أن نزل "زيلين" من التل لرؤية أين كان يعيش هذا الرجل العجوز. نزل على طول الطريق ووصل إلى حديقة صغيرة محاطة بجدار حجري.. وخلف الجدار، رأى أشجار الكرز والمشمش وكوخًا ذو سقف مسطح. اقترب، ورأى خلايا نحل مصنوعة من القش المَجْدول، والنحل يطير حولها يإزّ، وكان الرجل العجوز راكعًا، مشغولًا بعمل شيء ما بإحدى الخلايا، ظَلّ "زيلين" يُمعن النظر، واهتزّتْ أغلاله فأحدثت صوت صلصلة.. مما جعل الرجل العجوز يستدير، وأخذ يصيح بصوت مرتفع، وإنتزع مسدسًا من حزامه وأطلق النار على "زيلين"، الذي تمكن من أن يقي نفسه ويجد ملاذاً خلف الجدار الحجري. وذهب الرجل العجوز يشكوه إلى سيده الذي استدعى بدوره "زيلين" وسأله ضاحكاً:

لماذا ذهبت إلى منزل الرجل العجوز؟

إنني لم ألحق به أي أذى، وكل ما كنتُ أرغب فيه، هو أن أعرف كيف يعيش!.

وكرر السيد ما قاله "زيلين".

إلا أن الرجل العجوز كان في حالة من الغضب.. فهسهس مُستهجناً، وثرثر، مُظهراً أنيابه، وهو يُلوّح بقبضته في إتجاه "زيلين"، الذي لم يستطع أن يفهم شيئاً، إلا أنه استنتج أن الرجل العجوز كان يقول لعبدول إنه لا ينبغي عليه أن يُبقي

الروس في القرية، بل يجب عليه أن يقتلهم.. في النهاية ذهب الرجل العجوز بعيداً. وسأل "زيلين" سيده، عمّن يكون هذا الرجل العجوز. فأجابه:

إنه رجل عظيم! ولقد كان أشجع زملائنا.. وقتل العديد من الروس، وكان في يوم ما غنياً جداً.. وكان لديه ثلاث زوجات وثمانية من الأبناء، وكانوا جميعهم يعيشون في قرية واحدة.. ثم جاء الروس ودمّروا القرية، وقتلوا سبعة من أبنائه.. ولم يتبقّ له منهم سوى إبن واحد، وقد سلّمْ نفسه للروس.. كما ذهب الرجل العجوز أيضاً وسلّم نفسه لهم، وعاش بين الروس لمدة ثلاثة أشهر.. وفي نهاية ذلك الوقت وجد ابنه.. وقتله بيديه، ثم هرب.

وبعد ذلك ترك القتال، وذهب إلى مكة للصلاة إلى الله، وهذا هو السبب في أنه يرتدي عمامة.. ويُطلَق على من يذهب إلى مكة المكرمة لقب"حاج"، ويرتدي عمامة..

إنه لا يحبك، وقد طلب منّي أن أقتلك، لكنّني لا أستطيع أن أقتلك، فلقد دفعت المال من أجل الحصول عليك، وإلى جانب ذلك، لقد أصبحتُ مُعجباً بك، يا إيفان. وبعيداً عن قتلك، فلن أسمح لك بالرحيل إذا لم أقدّم الوعد.

وضحك قائلاً بالروسية:

أنت يا إيفان جيد. وأنا، عبدول، جيد!

الفصل الرابع

عاش "زيلين" بهذه الطريقة لمدة شهر.

خلال النهار كان يتسكّع حول القرية، أو يشغل نفسه ببعض الحرف اليدوية، ولكن في الليل، عندما يكون كل شيء نائم في القرية، كان يحفر في أرضية الحظيرة.

ولم تكن هذه مهمة حفر سهلة، بسبب الحجارة، لكنه تعامل معها بمبرده، وأخيراً استطاع أن يُكوّن حفرة تحت الحائط كبيرة بما يكفي للعبور من خلالها، وكان يُفكّر في نفسه:

"إذا كان بإمكاني معرفة خريطة الأرض، وأي طريق عليّ أن أسلكه! لكن أيّا من التتار لن يخبرني".

ولذلك فقد اختار يومًا كان فيه السيد بعيدًا عن المنزل، وانطلق بعد العشاء لتسلُّق التَلّ من الجانب الآخر من القرية، ويراقب المكان من حوله.

ولكن قبل مغادرته المنزل، كان السيد يعطى أوامره دائمًا لابنه لمراقبة "زيلين"، وألا يدعه يغيب عن عينيه، ولذلك فقد راح الفتى يركض خلف "زيلين"، وهو يصيح به قائلاً:

لا تذهب! فإن أبي لا يسمح بذلك، سوف أستدعي الجيران إذا لم تعُد.

وحاول "زيلين" إقناعه، بأن قال له:

أنا لن أذهب بعيداً، أريد فقط أن أتسلق هذا التل، أريد أن أجد عشبة – لعلاج المرضى، ويُمكنك أن تأتي معي إذا أردت، ثم كيف يمكنني الهرب وأنا مُقيّد

بمثل هذه الأغلال؟ وغداً سوف أصنع لك القوس والسهام.

وهكذا استطاع أن يُقنع الفتى، وذهبا.

بالنظر إلى التل، لم يبدُ أن القمة بعيدة، ولكن كان من الصعب المشي بمثل هذه القيود التي تُكبّل ساقه، وعاود "زيلين" سيره وراح يسير ويسير، وكان هذا هو كل ما يُمكنه عمله للوصول إلى القمة، وهناك جلس، ولاحظ كيف يتعرّف على موقع وحدود الأرض، في الجنوب، وإلى الجانب الآخر من الحظيرة، كان هناك وادي يرعى فيه قطيع من الخيول، وفي الجزء السفلي من الوادي كان بإمكان المرء رؤية قرية أخرى.

وإلى ما وراء ذلك كان هناك تلاً شاهقاً شديد الإنحدار، ومن وراءه يوجد تل آخر، وبين التلال، في المساحة الزرقاء، كانت الغابات، وإلى مسافات أبعد من ذلك كانت هناك الجبال، ترتفع أعلى وأعلى، وكانت الأعلى منها مغطاة بالثلوج، بيضاء بلون السكر، وذروة ثلجية واحدة كانت تعلو كل القمم الباقية، وفي الشرق وامتداداً إلى الغرب، كانت هناك تلالاً أخرى مثلها، وهنا وهناك وفي كل مكان، إرتفع الدخان من القرى في الوديان. وفكّر "زيلين" في نفسه:

"آه، هذه إذن هي مدينة التتار".

واستدار نحو الجانب الروسي، وعند قدميه رأى نهرًا، والقرية التي كان يعيش فيها، محاطة بحدائق صغيرة، وكان بإمكانه رؤية نساء، مثل الدُمى الصغيرة، يجلسن بجانب النهر يغسلن الملابس، ومن وراء القرية كان هناك تل، أقل إرتفاعاً من التل الواقع إلى الجنوب، ومن بعده يوجد تلان آخران، مشجرتان

جيدًا، وبين هذا وذاك،أرض مُنبَسطة ممّهدة ضاربة إلى الزرقة، وبعيدًا، بعيداً، عبر الأرض المُنبسطة، يوجد شيء يشبه سحابة من الدخان.

وحاول "زيلين" أن يتذكّر،أين كانت الشمس تشرق وتغرب،عندما كان يعيش في الحصن ورأى أنه لم يكن هناك أي خطأ: يجب أن يكون الحصن الروسي في هذا السهل، بين هذين التلين كان عليه أن يشق طريقه عندما هرب.

وكانت الشمس قد بدأت في الغروب.

وتحولت الجبال البيضاء الثلجية إلى اللون الأحمر، وبدأت التلال تتحول إلى الظلمة أكثر وأكثر، كما إرتفع الضباب من الوادي، وحيث من المفترض أن يكون هناك الحصن الروسي، بدا الوادي مشتعلاً مع توهج الغروب. ونظر "زيلين" باهتمام وتركيز، فقد بدا أن هناك شيء ما يرتجف ويهتزّ في الوادي مثل الدخان من المدخنة، وشعر أنه متأكد من أن القلعة الروسية كانت موجودة هناك.

لقد فات الأوان، وكان يسمع صرخة المُلّا.

تم نقل القطعان إلى مكانهم بحظائرهم، وكانت الأبقار تجأر، وظل الفتى يردد:

تعال إلى المنزل!

لكن "زيلين" لم يشعر بالميل إلى الذهاب بعيداً، في النهاية، وعلى أي حال، عاد.

ولكنه كان يفكّر:

"حسناً، الآن وبعد أن عرفت الطريق، فقد حان الوقت للهروب ".

وفي تلك الليلة، بدأ "زيلين" يُفكّر في الهروب.

كانت الليالي مظلمة ..

فقد تضاءل القمر، ولكن كما كان سوء الحظ موجوداً، فقد عاد التتار إلى منازلهم في ذلك المساء، لقد كانوا يعودون بشكل عام يقودون الماشية أمامهم في حالة معنوية جيدة، لكن هذه المرة لم يكن لديهم ماشية، بل إن كل ما أحضروه إلى المنزل هو جثة أحد التتار، وهو شقيق الرجل ذو اللحية الحمراء، الذي قُتل، لقد عادوا بادية عليهم الكئابة والتجهّم، وتجمعوا جميعًا معًا من أجل إجراءات الدفن، وجاء "زيلين" أيضاً لرؤية هذا الأمر.

ثم لفوا الجثة في قطعة من الكتان، وبدون أي نعش، وحملوها إلى خارج القرية، ووضعوها على العُشب، تحت بعض أشجار الدُلب. وجاء رجل الدين، المُلا، والرجال المُسنّون، ولفّوا الأقمشة حول طاقياتهم، ونزعوا أحذيتهم، وجلسوا القرفصاء على كعوبهم، جنبًا إلى جنب، بالقرب من الجثة، وكان المُلّا أمامهم في المقدمة: ومن خلفه صفّاً من ثلاثة رجال مُسنّين، يرتدون عمائم، ومن خلفهم التتار الآخرون.

وقد أخفضوا جميعهم عيونهم في خشوع وجلسوا في صمت، وقد استمر هذا الطقس

لفترة طويلة، حتى رفع المُلّا رأسه وقال:

"الله!"

قال هذه الكلمة، فخشعوا وأخفضوا جميعهم عيونهم مرة أخرى، وظلّوا صامتون مرة أخرى لفترة طويلة، جلسوا صامتين، ولا يتحركون أو يُصدرون أي صوت. ومرة أخرى رفع المُلّا رأسه وقال:

"الله!"

وكرروا جميعاً:

"الله! الله!"

ومرة أخرى عادوا لصمتهم.

كان الجسمان مُستلقياً على العُشب بلا حراك، وجلسوا كما لو كانوا هم أيضاً ميتون، لم يتحرك أحد منهم، كما لم يكن هناك أي صوت سوى أصوات أوراق أشجار الدُلب التي تحركت في النسيم.

ثم كرر المُلّا الصلاة، فقاموا جميعًا، ورفعوا الجسمان وحملوه بين أيديهم إلى حُفرة في الأرض، لم تكن حفرة عادية، ولكن تم تجويفها تحت الأرض مثل قبو، وأخذوا الجسمان من تحت الذراعين ومن تحت الساقين، وأمالوه، وتركوه في الأسفل بلطف، ووضعوه تحت الأرض في وضعية الجلوس، مع طي اليدين إلى الأمام، وأحضر الرجل النوجي بعض أغصان نباتات الأسل الخضراء، الذي حشوا به الحفرة، وسرعان ما قاموا بتغطيته بالتراب، وقاموا بتنعيم الأرض وصقلها، ووضعوا حجرًا مستقيمًا عامودياً على رأس القبر، ثم ردموا الحفرة وبسطوا الأرض، وجلسوا مرة أخرى في صف أمام القبر، وصمتوا لفترة طويلة، في النهاية نهضوا، قائلين:

"الله! الله! الله!"

ويذرفون الدموع.

أعطى التتاري ذو اللحية الحمراء نقوداً إلى الرجال المسنين، ثم نهض هو أيضاً،

وأخذ سوطًا، وضرب نفسه به ثلاث مرات على جبهته، وذهب إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي، رأى "زيلين" الرجل التتاري ذو اللحية الحمراء، وقد تبعه ثلاثة آخرون، يقود فرساً إلى خارج القرية، وعندما كانوا خارج القرية وعلى الجهة الأخرى منها، خلع التتاري ذو اللحية الحمراء سترته وأظهر سواعده، وأظهر ذراعيه القويتين، ثم سحب خنجراً وشحذها على حجر المشحذ.

رفع التتار الآخرون رأس الفرس، وقام بذبحها، وألقى بها أرضاً، وبدأ يسلخها،ويرخي الجلد بيديه الكبيرتين، وجاءت النساء والفتيات وبدأن في غسل الأمعاء والأحشاء والأجزاء الداخلية، تم تقطيع الفرس، وأُخذت القطع إلى الكوخ، وجُمعت القرية بأكملها في كوخ التتاري ذو اللحية الحمراء لإقامة جنازة.

واستمروا لمدة ثلاثة أيام في أكل لحم الفرس، وشرب البوظة، والصلاة والدعاء من أجل الرجل الميت. جميع التتار كانوا في المنزل.

وفي اليوم الرابع في وقت العشاء، رآهم "زيلين" يستعدون للرحيل، وقد أحضرت الخيول، وتم تجهيزها، وانطلق عشرة منهم (كان ذو اللحية الحمراء من بينهم)، لكن عبدول بقي في المنزل.

كان القمر جديداً، والليالي كانت لا تزال مظلمة.

وبدأ "زيلين" يُفكّر من جديد:

"آه!، إن الليلة هي الوقت المناسب للهروب"

وأخبر "كوستيلين" بذلك. ولكن قلب "كوستيلين" خذله، فقال له مُتعلّلاً:

ولكن كيف يمكننا الهروب؟ إننا حتى لا نعرف الطريق. أنا أعرف الطريق، حتى لو فعلنا ذلك، فلن يمكننا الوصول إلى الحصن في ليلة واحدة.

إذا لم نتمكن من ذلك، سوف ننام في الغابة، إنظر هنا، لقد اِدّخرتُ بعض الجبن، ما هي الفائدة من الجلوس هنا والتفكير بكئابة ؟ إذا أرسلوا فديتك، فهذا جيد ورائع، ولكن لنفترض أنهم لم يتمكنوا من جمعها؟ خاصة وأن التتار غاضبون الآن، لأن الروس قتلوا أحد رجالهم، إنهم يتحدثون عن قتلنا.

وفكّر "كوستيلين" في ذلك، ثم قال:

حسناً، دعنا نذهب.

الفصل الخامس

تسلل "زيلين" إلى داخل الحفرة، وقام بتوسعتها حتى يتمكن "كوستيلين" أيضًا من العبور من خلالها، ثم جلس كلاهما ينتظران حتى يصبح جميع أهل القرية ساكنين أو نائمين. وبمجرد أن كان كل شيء هادئًا، تسلل "زيلين" من تحت الجدار، وخرج، وهمس إلى "كوستيلين":

هيّا!

وتسلل "كوستيلين" أيضاً، ولكن، وهويفعل ذلك، جذب حجرًا بقدمه وأثار ضجة، وكان للسيد كلب حراسة متوحش للغاية، وهو كلب مُرقّط كان يُطلق عليه إسم "أولياشين"، كان "زيلين" يعتني بإطعامه لبعض الوقت من قبل، سمع أولياشين الضجيج وبدأ النباح والقفز، فراحت باقي الكلاب تنبح وتقفز هي الأخرى وأصدر "زيلين" صافرة خفيفة،

وألقى له قليلاً من الجبن، وتعرّف أولياشين على "زيلين"، فهزّ ذيله، وسرعان ما توقّف عن النباح، لكن السيد سمع نباح الكلب، وصاح له من داخل كوخه..

"هيت، هيت، ياو أولياشين!"

وعلى أيّ حال، فقد سارع "زيلين" بمداعبة أولياشين وراح يُملّس جلده خلف الأذنين، مما جعله يظلّ هادئًا، فاستمرّ "زيلين" في مداعبته، وراح يفرك على ساقيه، والكلب يواصل هزّ ذيله، وجلسا مختبئان خلف ركن لفترة، وأصبح الجميع صامتون مرة أخرى، فقط كان هناك خروف يسعل داخل سقيفة أو زريبة، كما كان هناك صوت خرير الماء المتساقط فوق الحجارة في الوادي.

كان الليل يُسدل ستارة سوداء على المكان، والنجوم تتلألأ في السماء، وكان القمر الجديد يظهر باللون الأحمر وهو يغرب، مثل طرفي هلال، هناك في الأعالي، خلف التلال، وفي الوديان كان الضباب أبيض كالحليب.

نهض "زيلين" وقال لرفيقه:

حسناً، يا صديقي، هيا بنا!

ولم يكادا يتحركان إلا بضع خطوات قليلة، حتى سمعا المُلّا يصيح من السطح، "الله، بسم الله! الرحمن!"

وكان معنى هذا أن الناس سوف يذهبون إلى المسجد للصلاة، ولهذا فقد جلسا مرة أخرى، مختبئان وراء جدار، وانتظرا لفترة طويلة حتى مرّ الناس، وفي النهاية كان كل شيء هادئًا مرة أخرى.

والآن إذن!، ليكن الله معنا!

قالا ذلك، وعبرا بأنفسهما، وتحركا مُجددّاً، ومرّا عبر فناء وذهبا أسفل مُنحدر التل إلى النهر، وإجتازاه، وذهبا بمحاذاة الوادي.

كان الضباب كثيفًا، ولكن فقط بالقرب من الأرض، أما في السماء، فكانت النجوم أكثر إشراقاً..

وجّه "زيلين" مسارهما من خلال مواقع النجوم، وكان الجو مُنعشاً مُعتدل البرودة في الضباب، والمشي مُريحاً، إلا أن أحذيتهما لم تكن مريحة، حيث كانت مُتهالكة، وقد التوَتْ لأسفل، فخلع "زيلين" حذاءه، وألقى به بعيداً، وسار حافي القدمين، وراح يقفز من حجر إلى حجر، وكان يُحدّد إتجاه سيره عن طريق

أوضاع النجوم في السماء، وبدأ "كوستيلين" يُبطيء من سيره ويتخلف عنه، وطلب منه أن يتمهّل، قائلاً:

تمهّل قليلاً وأبطيء من مشيتك، فإن هذه الأحذية اللعينة المُربِكَة قد ملأت قدميّ تقرحات وبثور. اخلعهما! فسيكون المشي أسهل بدونهما.

وفعلاً نزع "كوستيلين" حذاءه وسار حافي القدمين، ولكن أحواله ما زالت أسوأ، فقد جرحت الحجارة قدميه، وظلّ متخلفاً عن رفيقه، فقال له "زيلين" يُحثه على السير على نحو أسرع:

إذا جرحت الصخور قدميك، فسوف يشفيان مرة أخرى، ولكن إذا قبض علينا التتار وقتلونا، فسيكون الأمر أسوأ!

ولم يرد "كوستيلين"، ولكنه استمر في سيره، يئن ويتأوه طوال الوقت.

كان طريقهما يمتد في الوادي لفترة طويلة، ثم، وإلى اليمين منهما، سمعا كلاب تنبح، فتوقف "زيلين"، ونظر إلى مصدر الصوت، وبدأ في تسلق التل يتحسّس بيديه، وقال:

آه!، لقد أخطأنا، وابتعدنا كثيراً إلى اليمين، فهذه هي قرية أخرى، قرية أخرى رأيتها من التل، ويجب علينا أن نعود أدراجنا ونصعد هذا التل مُتجهين إلى اليسار، يجب أن يكون هناك غابة.

انتظر لحظة!، إسمح لي أن أتنفس، إن قدمي كلها قد جُرحتْ، وتدمي.

لا تشغل بالك كثيراً يا صديقي!، فسوف تشفى مرة أخرى، ويجب أن تسير بخفة أكثر، هكذا!

وركض "زيلين" عائداً مرة أخرى مُتّجهاً إلى اليسار أعلى التل نحو الغابة، إلا أن "كوستيلين" كان لا يزال متأخراً عنه، يئن ويتأوه.

صمتاً وتوقف عن الأنين! واستمر في سيره.

صعدا التل، ووجدا الغابة، تماماً كما قال "زيلين".

دخلا الغابة، وشقّا طريقهما عبر نباتات العُلّيق، التي مزقت ملابسهما، وفي النهاية وصلا إلى الطريق واتبعوه .. توقف!..

فقد سمعا فجأة وقع حوافر على الطريق، وانتظرا، يستمعان، بدا الأمر كأنها وقع حوافر خيول، إلا أنها توقفت بعد ذلك، فعاودا السير، ومرة أخرى سمعا وقع الحوافر، وعندما توقفا، توقف الصوت أيضاً.

زحف "زيلين" بالقرب من الصوت، فرأى شيئًا يقف على الطريق حيث لم يكن الظلام شديدًا، بدا الأمر كما لو كان حصان، ولكنه ليس مثل الحصان تماماً، وكان عليه شيء غريب، لا يشبه الرجل، سمعاه يُصدر صوتاً كالشخير.

ماذا يمكن أن يكون؟

وأصدر "زيلين" صافرة خافته، وبعد ذلك إنطلق من الطريق إلى الأجمة، وكانت الغابات مليئة بضجيج طقطقة أو فرقعة، كما لو كان الإعصار يجتاح المكان، ويكسر فروع الأشجار في طريقه.

كان "كوستيلين" خائفًا لدرجة أنه إنبطح على الأرض، فراح "زيلين" يضحك قائلاً:

إنه ظبي، ألا تسمعه يكسر فروع الأشجار بقرونه؟، لقد كنا خائفين منه، وكان

هو يخاف منّا.

ذهبا، وكانت كوكبة "الدب الأكبر" واضحة بالفعل في السماء، وكان الوقت على مقربة من الصباح، ولم يكونا يعرفان ما إذا كانا يسيران في الإتجاه الصحيح أم لا. فقد إعتقد "زيلين" أن هذا هو الطريق الذي أحضره التتار من خلاله، وأنهما ما زالا على بُعد سبعة أميال من الحصن الروسي، ولكن لم يكن لديه شيء مؤكد ليذهب من خلاله، وفي الليل يخطئ المرء في الطريق بسهولة.

بعد فترة قصيرة، وصلا إلى أرض مقطوعة الأشجار في الغابة، وجلس "كوستيلين" قائلاً:

إفعل ما تريد، أما أنا فلا يُمكنني الذهاب إلى أبعد من هذا!، كما أن قدميّ لن تحملاني.

فحاول "زيلين" أن يُقنعه، وأن يحثّه على مواصلة السير، فردّ عليه قائلاً:

لا، لن أستطيع أن أصل إلى هناك، لا أستطيع!.

غضب "زيلين"، وبدأ يتحدث معه بجفاء وخشونة، قائلاً:

حسنًا، إذن، سوف أواصل السير وحدي، وداعاً!

فقفز "كوستيلين" وتبعه، وقطعا نحو ثلاثة أميال أخرى، وكان الضباب قد استقرّ بالغابة بشكل أكثر كثافة، حتى أنهما لم يتمكنا من الرؤية لمسافة ياردة أمامهما، وأصبحت النجوم خافتة، وفجأة سمعا صوت حوافر الحصان أمامهما، سمعا صوت حدوته الحديدية تضرب الحجارة.

استلقى "زيلين" على الأرض مُنبطحاً، وراح يستمع بأذنه من خلال الأرض.

نعم، إنه كذلك!، إنه فارس قادم نحونا. وسرعان ما هربا بعيداً عن الطريق، ورابضا بين الشجيرات وانتظرا. وزحف "زيلين" إلى الطريق، وجال بنظراته، فرأى أحد التتار على صهوة جواده، وهو يقود بقرة ويُدندن لنفسه.

ومضى التتاري بعيداً، فعاد "زيلين" إلى "كوستيلين"، وقال:

لقد قاده الله وراءنا وأبعده عنا، هيا إنهض، ودعنا نذهب ونواصل رحلتنا!

وحاول "كوستيلين" أن ينهض، ولكنه تراجع مرة أخرى، وقال:

لا أستطيع، إنني على وعدي، ولكنني لا أستطيع!، لم يعُد لديّ أي قوة.

فقد كان ضخماً وبديناً، وكان يتعرّق بغزارة، وشعر بالبرد الشديد بسبب الضباب، وكانت قدماه تنزفان كثيراً، وقد أصبح يعرج تماماً.

مما دعا "زيلين" يحاول أن يحمله، إلا أن "كوستيلين" صرخ فجأة:

آه، يا له من ألم؟

فغاص قلب "زيلين" بين جنباته، وقال له مُحذّراً:

لماذا تصرخ؟، إن التتاري لا يزال قريباً منّا، وسوف يسمعك!

وفكّر في نفسه:

"إنه مُرهق حقًا، ماذا يمكنني أن أفعل به؟ لن أترك رفيقي أو أهجره".

ثم إقترب منه قائلاً:

حسنًا، إذن، إنهض، وإصعد على ظهري، سوف أحملك إذا كنتَ حقًا لا تستطيع المشي. وساعده، ووضع ذراعيه تحت فخذيه، ثم مضى به في الطريق وهو يحمله، ويقول له:

إنني أفعل هذا فقط من أجل حب الله، لا تخنقني بيديك! تمسّك جيداً بكتفي.

ووجد "زيلين" أن الحموله ثقيلة على ظهره، وقد كانت قدماه أيضًا تدميان، كما كان هو نفسه مُتعبًا، وكان بين الحين والآخر يتوقف لتحقيق التوازن في وضع "كوستيلين" بشكل أفضل، ويهزّه لأعلى ويرجّه لكي يستقر أعلى كتفيه، ثم يعاود السير مرة أخرى.

ولعل التتاري، مع ذلك، قد سمع فعلاً تأوهات "كوستيلين".

وسمع "زيلين" فجأة شخصاً ما يعدو بفرسه من خلفه، وهو يصرخ بلغة التتار، فاندفع بين الشجيرات في الدغل، وأمسك التتاري بندقيته وأطلق النار عليهما، لكنه لم يُصبهما، وصاح بلغته، وركض على الطريق. قال "زيلين" لرفيقه:

"حسناً، لقد إنتهينا الآن، يا صديقي!، فسوف يجمع هذا الكلب التتار معاً لملاحقتنا، وما لم نتمكن من أن نقطع مسافة ميلين من هنا، فقد ضعنا!

وراح يُفكّر في نفسه:

"لماذا يُثقل الشيطان على كاهلي ويُحمّلني عبء هذه الكُتلة؟ كان يُمكنني أن أقطع شوطاً طويلاً منذ زمن بعيد، لو كنت وحدي". قال له "كوستيلين":

هيّا، إذهب لوحدك، لماذا يجب أن تهلك بسببي؟

لا، لن أذهب، ولن يحدث أن أترك رفيقي.

ومرة أخرى، أخذ "كوستيلين" على كتفيه وتعثّر كما لو كان سوف يقع، ومضيا بهذه الطريقة لنصف ميل آخر أو أكثر.

كانا لا يزالان في الغابة، ولم يتمكنا من رؤية نهايتها، لكن الضباب كان مشتتاً بالفعل، ويبدو أن السحب كانت تتجمع وتلتحم، ولم تعد النجوم يُمكن رؤيتها، وأصبح "زيلين" مُرهقاً تماماً، ووصلا إلى نبع مُسوّر بالحجارة على جانب الطريق. توقف "زيلين" ووضع "كوستيلين" أرضاً، قائلاً:

دعني استريح وأشرب، ولنأكل بعض الجبن، فلا يمكن أن نذهب أبعد من هذا الآن. ولكن بالكاد كان قد استلقى لتناول مشروب، عندما سمع صوت أقدام الخيول وراءه، ومرة أخرى، إندفعا إلى اليمين بين الشجيرات، واستلقيا تحت منحدر حاد، وسمعا أصوات التتار.

وتوقف التتار في المكان الذي انحرفا فيه من الطريق تماماً، وتحدثوا قليلاً، وبعد ذلك بدا وكأنهم يضعون كلبًا على الأثر، لكي يقتفي أثرهما، كان هناك صوت طقطقة الأغصان وفروع الأشجار، وظهر كلب غريب من خلف الشجيرات، وتوقف، وبدأ ينبح، ثم جاء التتار، وكانوا غرباء أيضًا، وهبطوا إلى أسفل المنحدر، وألقوا القبض على "زيلين" و"كوستيلين"، وقيدوهما ووضعوهما على الخيول وعادوا بهما مغادرين المكان، عندما قطعوا مسافة ميلين تقريبًا، قابلوا عبدول، سيدهما، مع إثنين من التتار الآخرين يتبعونه، وبعد التحدث مع الغرباء، وضع "زيلين" و"كوستيلين" على إثنين من خيوله الخاصة، وأعادهما إلى القرية.

لم يكن عبدول يضحك هذه المرة، ولم يقُل لهما كلمة واحدة.

ومع حلول النهار، كانا قد عادا إلى القرية، وتم وضعهما في الشارع، جاء الأطفال يحتشدون من حولهما، وراحوا يرشقونهما بالحجارة ويصيحون ويضربونهما بالسياط، كما تجمع التتار معًا في دائرة، وكان معهم أيضاً الرجل العجوز القادم من سفح التل، وبدأوا في المناقشة، وسمعهم "زيلين" يتناقشون حول ما ينبغي عمله معه ومع "كوستيلين".

قال البعض إنه يجب إرسالهما إلى الجبال، ولكن الرجل العجوز قال:

يجب أن يُقتلا!

إلا أن عبدول تجادل معه، قائلاً:

لقد دفعتُ أموالاً من أجل الحصول عليهما، ويجب أن أحصل على فدية لهما،

لكن الرجل العجوز قال:

إنهما لن يدفعا لك شيئًا، ولن يجلبا لك سوى سوء الحظ ، إنها خطيئة أن تُطعم الروس، إقتلهما، وضع حدّاً لهذا الأمر!

وبعد ذلك تفرّق الجمع، وعندما ذهبوا، جاء السيد إلى "زيلين" وقال له:

إذا لم يتم إرسال أموال الفدية الخاصة بك في غضون أسبوعين، فسوف أجلدك بالسوط ، وإذا حاولتَ الهرب مرة أخرى، فإنني سوف أقتلك مثل كلب! ، إكتب رسالة، وإكتبها بشكل صحيح!

تم إحضار الورق إليهما، وكتبا الرسائل، ثم وضعت الأغلال في أقدامهما، ونُقلا إلى خلف المسجد في حفرة تبلغ مساحتها حوالي 12 قدمًا مربعاً، والتي تم إلقائهما فيها.

الفصل السادس

أصبحت الحياة الآن صعبة للغاية بالنسبة لهما.

لم تُنزع أبدًا الأغلال من أقدامهما، ولم يكن يُسمح لهما بالخروج إلى الهواء الطلق.

كان العجين غير المخبوز يُلقى إليهما كما لو كانا كلابًا، وكان الماء يُدلّى إليهما في علبة. كما كان مكان إقامتهما رطباً وضيقاً في الحفرة، وقد إنتشرت هناك رائحة نتنة وكريهة. وهو ما جعل "كوستيلين" يُصاب بمرض شديد، وتورم جسده وإنتفخ، وكان كل جسده يؤلمه، وإما يئن وينوح، أو ينام طوال الوقت.

ولم يكن "زيلين" بأفضل منه حالاً، فقد أصبح محزوناً كئيباً.

ورأى "زيلين" أنهم كانوا يفرضون عليهما رقابة سيئة،لن تدع لهما فرصة أخرى للهرب ورغم ذلك فقد حاول أن يحفر نفقًا، لكن لم يكن هناك مكاناً لإلقاء التراب الذي سوف ينتج من الحفر، ولاحظ سيده ذلك، وهدّد بقتله.

كان "زيلين" يجلس على أرضية الحفرة في يوم من الأيام، يُفكّر في الحرية، ويشعر بالإكتئاب، محزوناً مُنكسر القلب، عندما سقطت كعكة فجأة في حضنه، ثم أخرى، ثم دُشّ من الكرز، فنظر إلى أعلى. لقد كانت دينا، ونظرت إليه ضاحكة وهربت. وفكّر "زيلين":

"ألا يُمكن أن تساعدني دينا؟"

وقام بتنظيف مكان صغير في الحفرة، وكشط بعض الصلصال، وبدأ في تصميم بعض اللعب، فصنع الرجال والخيول والكلاب، وهو يفكر:

"عندما تأتي دينا، سأرميهم لها" ..إلا أن دينا لم تأتِ في اليوم التالي.

وسمع "زيلين" وقع أقدام الخيول، ومرّ به بعض الرجال، وتجمّع التتار في نادي بالقرب من المسجد، وراحوا يتصايحون، ويتجادلون، وكانت كلمة "الروس" تتكرر عدة مرات، وكان يُمكنه أن يسمع ويُميّز صوت الرجل العجوز، على الرغم من أنه لم يستطع أن يعرف ما كان يُقال، إلا أنه خمّن أن القوات الروسية كانت قريبة في مكان ما، وأن التتار، الذين كانوا يخشون أن تأتي القوات الروسية إلى القرية، لا يعرفون ماذا يفعلون بأسراهم، وبعد التحدث لفترة، ذهبوا بعيداً. وفجأة سمع خشخشة في الهواء، ورأى دينا وهي تنحني على حافة الحفرة، حتى صارت ركبتيها أعلى من رأسها، وانحنت حتى تدلّت عُملات ضفيرتها فوق الحفرة، وكانت عيناها تلمعان وتتلألآن مثل النجوم، وقامت بسحب قطعتين من الجبن من جعبتها وألقت بهما إليه، فأخذهما وقال لها:

لماذا لم تأتي من قبل؟ لقد صنعتُ بعض اللعب من أجلك، ها هي، إلتقطيها!

وبدأ يرمي إليها بالألعاب، الواحدة تلو الأخرى، ولكنها هزّت رأسها ولم تنظر إليهم، أو تهتم بهم، بل قالت له:

أنا لا أريد أي شيء

وجلست دينا صامتة لفترة، ثم تابعت قائلة:

إيفان، إنهم يريدون أن يقتلوك! وأشارت إلى حلقها.

من يريد قتلي؟

الأب، ويقول كبار السن أنه يجب عليه أن يفعل ذلك، ولكنني أشفق عليك!

حسنًا، إذا كنتِ حقاً تُشفقين عليّ، فأحضري لي عصاً طويلة.

فهزّت رأسها، وكأنها تقول:

لا أستطيع!

فشبّك يديه أمام صدره، وراح يرجوها قائلاً:

دينا، من فضلك إفعلي ذلك! عزيزتي دينا، إنني أتوسّل إليكِ!

لا أستطيع! سوف يرونني إذا أحضرتها، إنهم جميعاً في المنزل.

قالت ذلك ثم انصرفتْ.

لذلك، عندما حلّ المساء، ظلّ "زيلين" جالسًا ينظر لأعلى ويراقب، من حين لآخر، ويتساءل عما سوف يحدث.

كانت النجوم تتلألأ في السماء، ولكن القمر لم يكن قد أطلّ بنوره، وسمع "زيلين" صوت المُلّا، ثم أصبح كل شيء صامتاً.

بدأ "زيلين" يغالب النعاس، إلا أنه راح يفكّر:

"سوف تخشى الفتاة أن تفعل ذلك!"

فجأة شعر بالطين يسقط على رأسه، فنظر إلى أعلى، وإذا به يرى عصاً طويلة تظهر على الجدار المقابل للحفرة، واستمرت مُعلّقة لفترة، ثم هبطت مُنزلقة إلى الحفرة.

فرح بها "زيلين" كثيراً، وأمسك بها وأنزلها، فقد كانت عصاً قوية، وكانت هي إحدى العصي التي رآها من قبل على سطح كوخ سيده.

ونظر "زيلين" إلى أعلى، كانت النجوم تسطع في السماء، وفوق الحفرة تماماً كانت عينا دينا تلمعان في الظلام مثل عينيّ قطة، وقفتْ ووجهها بالقرب من حافة الحفرة،وراحت تهمس:

إيفان! إيفان!

وأخذت تلوّح بيدها أمام وجهها لإظهار أنه ينبغي أن يتكلم بصوت منخفض.

ماذا؟

لقد ذهب الجميع ما عدا اثنان.

حسناً..

ثم نادى "كوستيلين"..

"كوستيلين"، هيّا، دعنا نجرب للمرة الأخيرة، سوف أساعدك لكي تصعد..

إلا أن "كوستيلين" لم يكن ليُصغي إليه، أو يُعيره الإهتمام، بل قال له:

كلا، فمن الواضح أنني لا أستطيع الإبتعاد عن هنا، إذ كيف يُمكنني أن أهرب، بينما ليس لديّ القوة إلا بالكاد، لكي أتحرك؟

حسنًا، إلى اللقاء، إذن! لا تعتقد أنني إنسان سيء!

وقبّلا بعضهما بعضاً.

وأمسك "زيلين" العصا بقوة، وطلب من دينا أن تمسك بها جيداً، وبدأ في تسلّقها لأعلى، وانزلق مرة أو مرتين، فقد كانت الأغلال في قدمه تعرقله، ولقد ساعده "كوستيلين"،حتى تمكن من الوصول إلى القمة، وقد جذبته دينا من قميصه بيديها الصغيرتين جاهدة بكل قوتها، وهي تضحك.

وسحب "زيلين" العصا وقال لها:

أعيديها إلى مكانها، دينا، وإلا فسوف يلاحظون، وعندئذ سوف تتعرضين للضرب.

قامت دينا بسحب العصا ومضت.

أما "زيلين" فقد سارع بالهبوط إلى أسفل التل، وعندما وصل إلى أسفل المنحدر الحاد، أخذ حجرًا حادًا وحاول أن يكسر قفل الأغلال لكي يُحرر قدميه، ولكنه كان قفلًا قويًا فلم يستطع أن يكسره، وبالإضافة إلى ذلك كان من الصعب التخلّص منه، ثم سمع أحدهم يركض إلى أسفل التل، وهو يثب بخفة.

وفكّر "زيلين" في نفسه:

"بالتأكيد، هذه هي دينا مرة أخرى"

وكانت دينا فعلاً، أقبلت، وأمسكتْ حجرًا، وقالتْ:

دعني أحاول.

وركعتْ على ركبتيها، وحاولت أن تكسر القفل، لكن يديها الصغيرتين كانتا نحيلتين ضعيفتين، مثل غصن الشجرة الصغير، ولم يكن لديها القوة الكافية لإنجاز هذا العمل، فألقت الحجر بعيداً، وراحتْ تبكي، وكان هذا هو ما جعل "زيلين" يعود للمحاولة مرة أخرى لكسر القفل، وإقتربت دينا منه وجلست القرفصاء إلى جانبه، وقد وضعتْ يدها على كتفه.

ونظر "زيلين" حوله، فرأى ضوءًا أحمر إلى اليسار خلف التل، لقد كان ضوء القمر الذي بدأ يرتفع في السماء.

"آه!"

بدأ "زيلين" يُفكّر:

"قبل ارتفاع القمر، لا بد لي من إجتياز الوادي والوصول إلى الغابة".

ولذا فقد نهض، ورمى الحجر بعيداً.

بالأغلال أو بدونها، يجب عليه أن يستمر ويواصل الهرب.

"وداعاً، عزيزتي دينا!"

قال لها ذلك برفق ورقة، وقد كست الإبتسامة وجهه، وربما كان ذلك تعبيراً صادقاً عن شكره لها وإمتنانه، ثم تابع:

"وأؤكد لكِ أنّني لن أنساكِ أبداً!"

أمسكت دينا به وراحت تتلمّس بيديها باحثة عن مكان يُمكنها أن تضع له فيه بعض الأجبان التي أحضرتها من أجله، فأخذهم منها، قائلاً:

شكراً لكِ يا صغيرتي، من سوف يصنع الدُمى لكِ عندما أذهب؟

وراح يُملّس على شعرها برفق مُداعباً.

إنفجرت دينا في البكاء، مُخبأة وجهها براحتيها، ثم ركضتْ إلى أعلى التل مثل عنزة صغيرة، وكانت القطع النقدية الموجودة في ضفيرتها تُخشخش وتُصلصل بظهرها. رسم "زيلين" على صدره علامة الصليب، وهو يُتمتم ببعض الصلوات، ثم أمسك بقفل أغلاله بيده لكي يمنعها من إصدار قعقعة، وسار على طول الطريق، وهو يجرّ ساقه المُقيّدة، وينظر نحو المكان الذي كان القمر على وشك أن يرتفع فيه، وبذلك استطاع الآن أن يعرف الطريق.

إذا إتجه إلى الأمام مباشرة في خط مستقيم، فسوف يتعين عليه السير لمسافة ستة أميال تقريبًا، فقط إذا كان يستطيع الوصول إلى الغابة قبل أن يرتفع القمر تماماً!.

عبر النهر، وكان الضوء وراء التل يتحوّل إلى أن يكون ناصعاً وأكثر بياضاً، ولا

يزال ينظر إليه ويراقبه، وذهب على طول الوادي، ولم يكن القمر مرئيًا بعد، حتى أصبح النور أكثر إشراقًا، وكان أحد جانبي الوادي يشرق ويشرق، وكانت الظلال ترتسم وتمتد باتجاه سفح التل، زاحفة بالقرب منه أقرب وأقرب.

واصل "زيلين" طريقه، يحافظ على نفسه في منطقة الظل، ويسير على عجل، ولكن القمر كان يتحرك بشكل أسرع، وكانت قمم التلال على الجانب الأيمن، مُضاءة بالفعل.

وعندما اقترب من الغابة، ظهر القمر المضيء من وراء التلال، وأصبح نورًا كضوء النهار، كان يُمكن للمرء أن يرى كل الأوراق على الأشجار، كان الضوء يملأ المكان على التل، لكن كل شيء كان صامتاً، كما لو لم يكن هناك شيء حي، حيث لا يمكن سماع أي صوت، سوى صوت القرقرة في النهر في سفح التل.

وصل "زيلين" إلى الغابة بدون أن يقابل أحداً، واختار بقعة مظلمة، وجلس لكي يحظى بقسط من الراحة.

استراح "زيلين" وأكل قطعة من الجبن، ثم وجد حجراً وشرع في العمل مرة أخرى للتخلّص من القيود، فطرق على جروح يديه المتقرّحة، ولكنه لم يستطع كسر القفل.

نهض "زيلين" وإتخذ طريقه، وبعد أن قطع الجزء الأكبر من مسافة ميل، كان قد أرهق تماماً، وكانت قدماه تؤلمانه، فكان عليه أن يتوقف كل عشر خطوات، وقال يُحدّث نفسه:

"لا يوجد شيء آخر أمامي لأفعله، يجب أن أسير ببطء طالما أن لديّ أيّ قوة متبقية، لإنّني إذا جلست فلن أتمكّن من النهوض مرة أخرى، ولن أستطيع الوصول إلى الحصن، ولكن عندما ينبلج ضوء النهار ، سوف استلقي في الغابة، وأبقى هناك طوال اليوم، وأعاود مسيرتي في الليل ".

وهكذا استمرّ في سيره طوال الليل.

ومرّ به إثنان من التتار يمتطيان جواديهما، ولكنه سمعهما يمضيان بعيدًا، وإختفيا وراء شجرة، وبدأ ضوء القمر يشحب، والندى يتساقط ، وكان الوقت يقترب من بزوغ الفجر ، ولم يكن "زيلين" قد وصل إلى نهاية الغابة، وكما إعتاد، راح يُفكّر في نفسه:

"حسنًا، سوف أمشي ثلاثين خطوة أخرى، ثم أتجه بين الأشجار وأجلس"

ومشى فعلاً ثلاثين خطوة أخرى، وأدرك أنه كان قد وصل إلى نهاية الغابة، فذهب إلى الحافة، لقد كان النهار مشرقاً تمامًا الآن، وكان أمامه مباشرة الأرض المُنبسطة والحصن، وإلى اليسار ، على مقربة شديدة من سفح المنحدر ، كانت النيران تخمد، وإنتشر الدخان منها في أرجاء المكان، وكان هناك بعض الرجال قد تجمعوا حول النيران، فنظر إليهم باهتمام ورأى بنادقهم تتلألأ.

لقد كانوا جنود القوزاق! ..كان "زيلين" مليئًا بالبهجة..

لقد جمع قوته المتبقية وانطلق إلى التل، قائلاً لنفسه:

"اللهم لا تجعل أيّ من التتار راكبي الخيول يراني الآن، في هذا الحقل المفتوح! وإلا، فعلى الرغم أنني هكذا قريب، لن أستطيع الوصول إلى هناك في الوقت

المناسب". وبمجرّد أن قال هذا، وعلى مسافة مائتي ياردة، على أكمة إلى اليسار، رأى ثلاثة من التتار، كما رأوه هم أيضاً، وما أن رأوه حتى إندفعوا تجاهه..

وغاص قلبه بين جنباته، وأخذ يُلوّح بيديه ويصيح بكل قوته:

"أيها الإخوة، أيها الإخوة! ليساعدني أحدكم!"

وسمعه القوقازيون..

وتجمّع فريق منهم مِمّن يمتطون الخيول وإندفعوا صوبه لكي يقطعوا الطريق بينه وبين التتاريون، إلا أن القوقازيين كانوا بعيدين على عكس التتار الذين كانوا قريبين، ولم يكن "زيلين" ليستسلم، بل هو أيضاً حاول أن يبذُل جهداً أخيراً، فرفع القيود بيده، وركض نحو القوقازيين، وبالكاد كان يعرف ماذا يفعل، فبدأ يرسم الصليب على صدره، ويصرخ مُجدّداً:

"أيها الأخوة! أيها الإخوة! أيها الإخوة!"

كان هناك من القوقازيين نحو خمسة عشرة، أما التتار فكانوا خائفين، وتوقفوا قبل الوصول إليه.

وترنّح "زيلين" حتى وصل إلى القوقازيين، الذين أحاطوا به وبدأوا يستجوبونه.

"من أنت؟ ماذا تكون؟ من أين أنت؟"

لكن "زيلين" كان غاضباً تمامًا، ولم يكن بإمكانه سوى أن يبكي ويُكرّر:

"أيها الإخوة! أيها الإخوة!"

ثم جاء الجنود يركضون ويتحولقون حوله..

أحدهم يعطيه الخبز ، والآخر يمنحه الحنطة سوداء، والثالث يُقدّم له الفودكا..

كما راح أحدهم يلف عباءة حول جسده المُنهك، وآخر بدأ يكسر عنه الأغلال.

وقد تعرّف الضباط عليه. وصحبوه معهم إلى الحصن.

كان الجنود سُعداء برؤيته وقد عاد مُجَدّداً. وتجمّع كل رفاقه حوله.

وأخبرهم "زيلين" بكل ما حدث له.

"وكانت هذه هي الطريقة التي عُدتُ بها إلى وطني ومنزلي، وتزوّجتُ"

لا. يبدو من الواضح أن القدر كان ضده!

ولقد ذهب في الخدمة في القوقاز.

وكان قد مرّ شهر قبل تحرير "كوستيلين"، بعد دفع خمسة آلاف روبل كفدية.

لقد كان ميتًا تقريبًا عندما أعادوه إلى وطنه.

" تمت بحمد الله"

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع